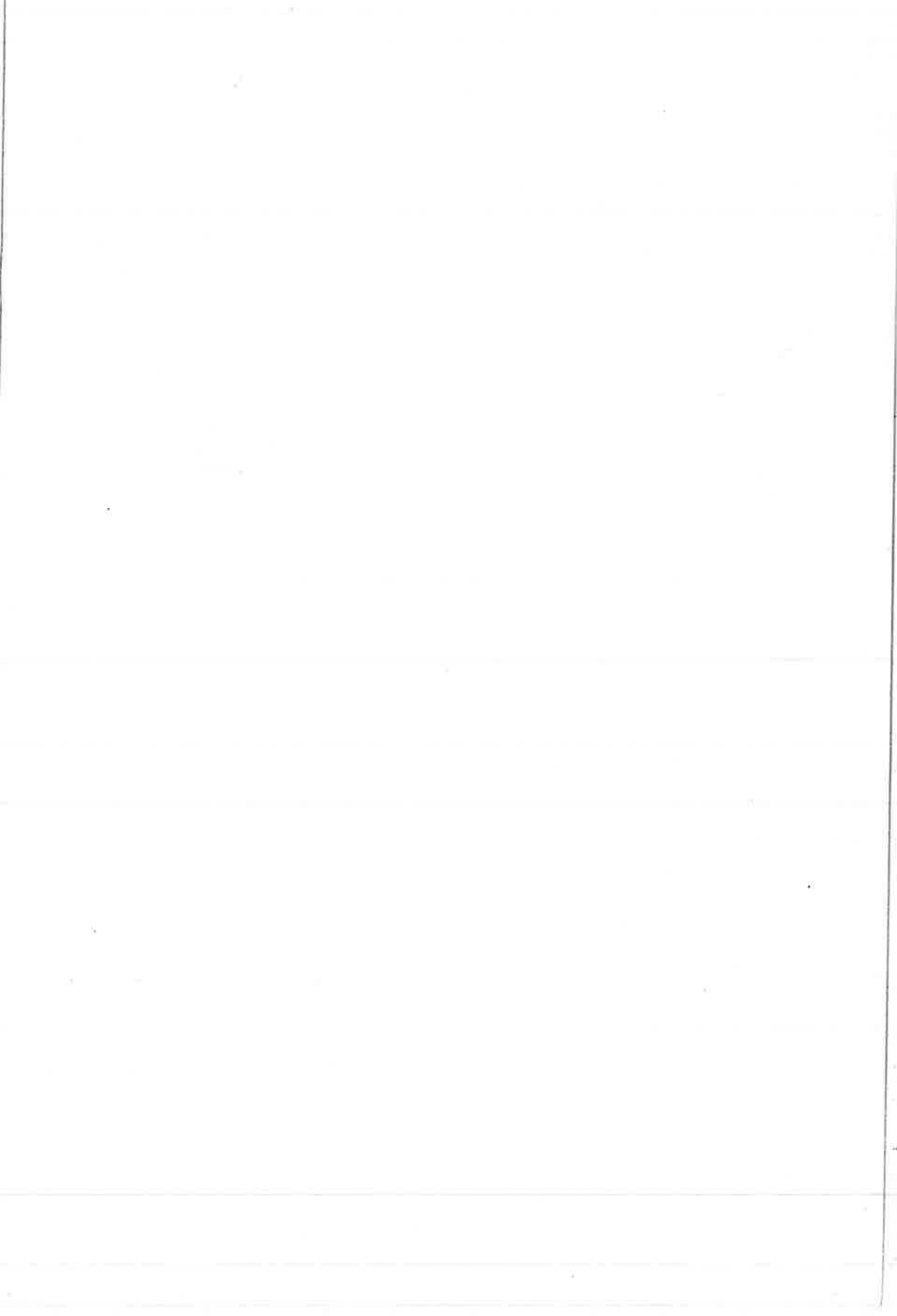
الدكتور عدنان علي رضا النحوي

قبسات من الكتاب والسنة

تدَبُّرٌ وظِلاَل

الطبعة الثانية
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

دار النحوي
للنشر والتوزيع



إلى
لقاء المؤمنين
وبناء الجيل المؤمن

قبسات من الكتاب والسنة

تدبر وظلال

الدكتور
عدنان علي رضا النحوي

الطبعة الثانية
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

دار النحوي
للنشر والتوزيع

ⓒ دار النحوي للنشر والتوزيع ، ١٤١٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النحوي ، عدنان علي رضا

قبسات من الكتاب والسنة : تدبر وظلال ط٢ - الرياض.

... ص ؛ .. سم

ردمك ٦ - ٣٧ - ٦٨٧ - ٩٩٦٠

١ - القرآن - مباحث عامة ٢- الدعوة الإسلامية أ - العنوان

ديوي ٢٢٩ ١٨/١٨٦٤

رقم الإيداع : ١٨/١٨٦٤

ردمك : ٦ - ٣٧ - ٦٨٧ - ٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

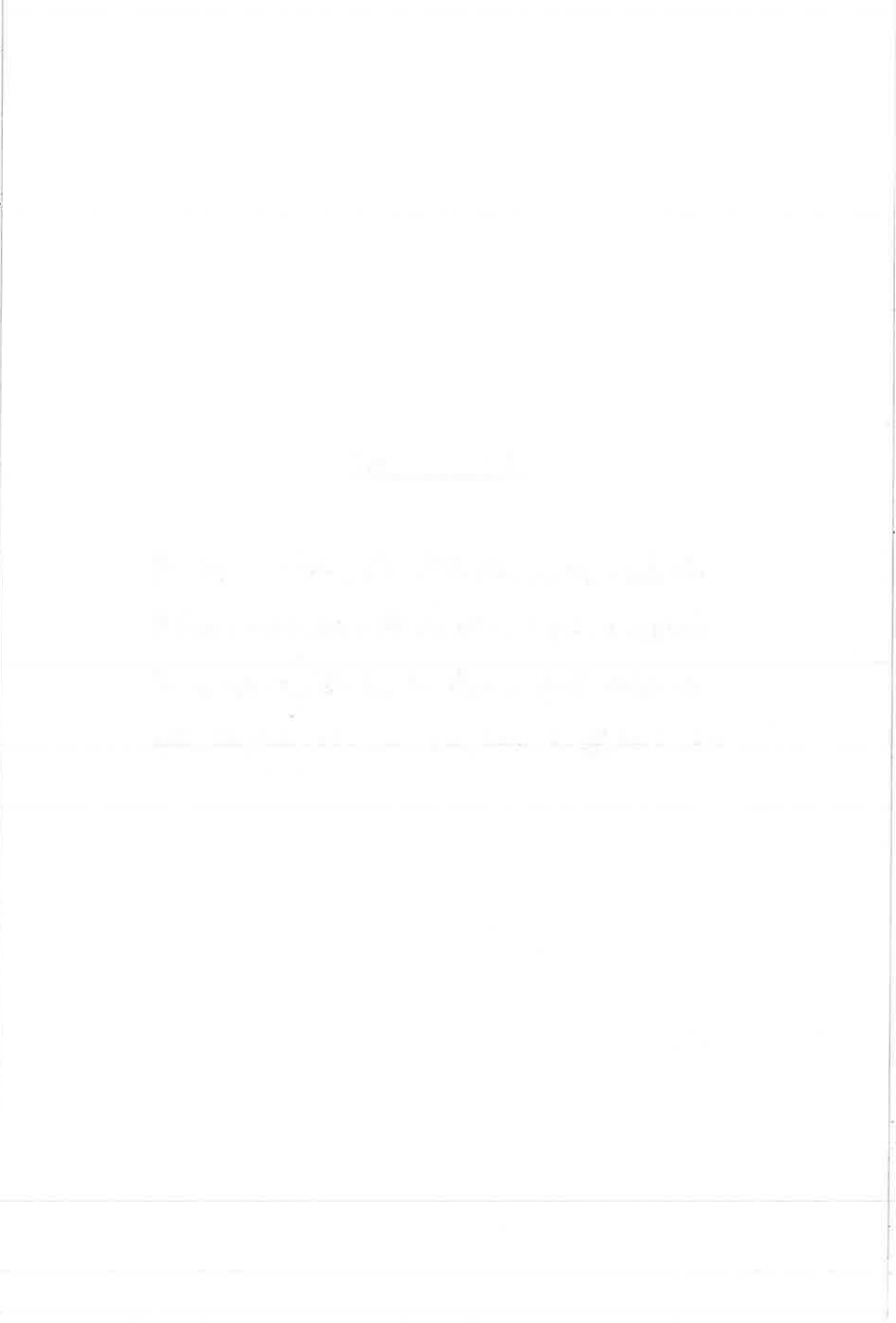
الطبعة الثانية
١٤١٨هـ - ١٩٩٧



دار النحوي للنشر والتوزيع
هاتف وفاكس ٤٩٣٤٨٤٢ - ص.ب ١٨٩١ الرياض ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية

الإهـــــــــداء

إلى الجنود العاملين والدعاة المجاهدين في سبيل الله ،
الـذين يمسّكـون بـالقـرآن والسنـة ويتـدبـرونها ،
الذيـن يريـدون الإصلاح فى الأرض، وإعلاء كلمة الله ،
والتـــزام الحق، ولا يــريـــدون الفســاد ولا الفتنـــة !



الافتتاح

﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أُولوا الألباب﴾ [ص : ٢٩]

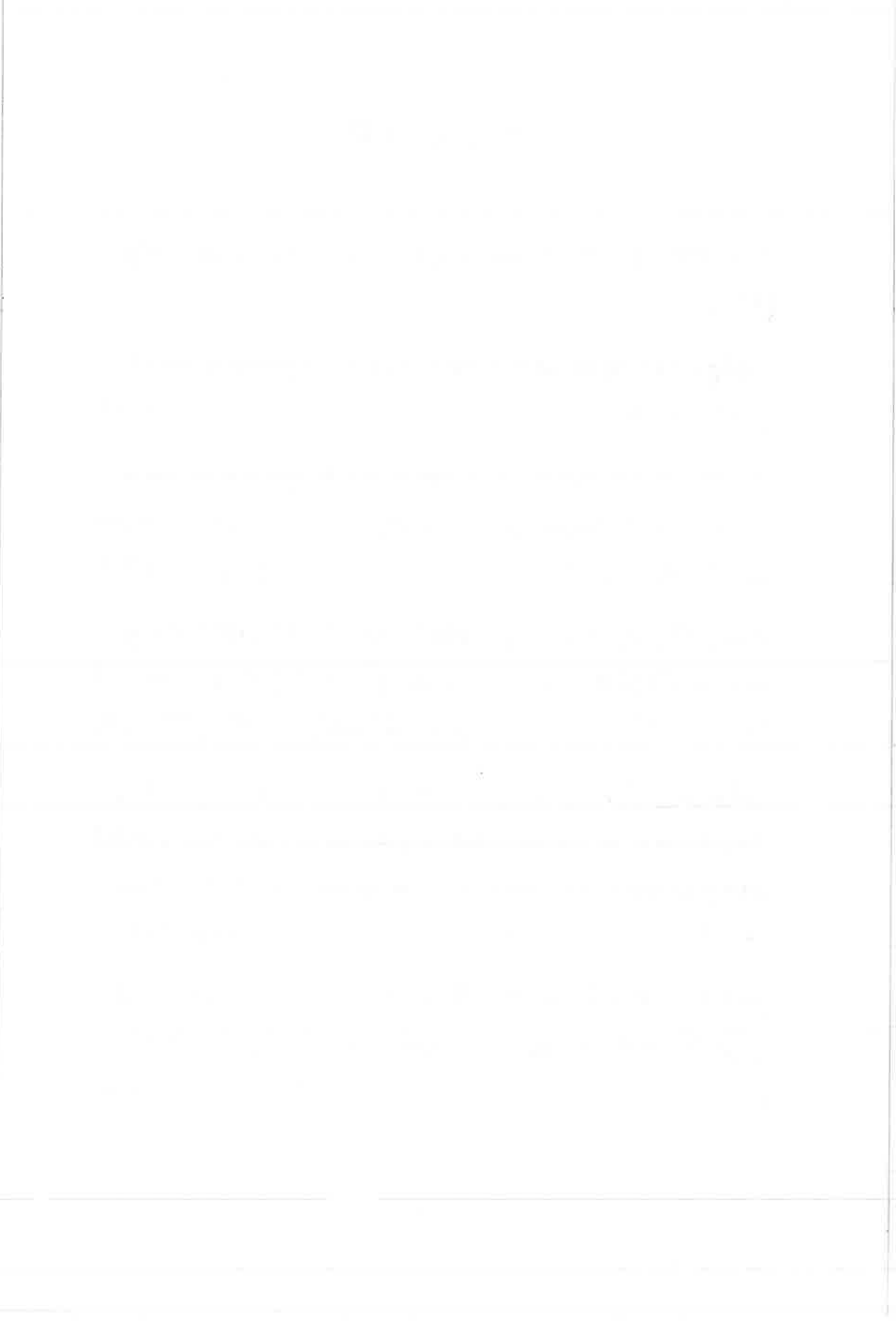
﴿ والذين يمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ [الأعراف : ١٧٠]

﴿ كتاب أُنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكّرون﴾ [الأعراف : ٢، ٣]

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأَمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تاويلاً﴾ [النساء : ٥٩]

وعن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : « **ألا وإني أوتيت الكتاب و مثله معه . ألا يوشك رجل ينثني شبعان على أريكته يقول عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه** » [رواه أبوداود : ٣٤/٦/ ٤٦٠٤]

وعن أبي رافع قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا ألفينَّ أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدري، وما وجدناه في كتاب الله اتبعناه** » [رواه الترمذي : ٤٢/ ١٠/ ٢٦٦٤]



المقدمة

نحرص في هذا الكتاب على أمرين هامين :

أولاً : إيجاز ماسبق أن فصلناه في كتب سابقة عن أهمية دراسة منهاج الله وتدبره دراسة منهجيّة ، والتدريب على ممارسته وتطبيقه في واقع الحياة تدريباً منهجياً كذلك . وأهمية دراسة الواقع أيضاً من خلال منهاج الله دراسة منهجية ، وأهمية الدعوة إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد ، دعوة تقوم على أساس المنهاج الرباني والواقع والخطة التي تقوم عليهما ، ثم منزلة السلف الصالح وما كانوا يوصون به في هذا السبيل في تاريخنا السابق وفتراته كلها . ويستغرق هذا كله الباب الأول في خمسة فصول . ونعيد التذكير بأن هذا هو موجز وأن الدراسات المنهجية المفصلة وردت في كتب الدعوة السابقة .

وثانياً : دراسة قبسات من الكتاب والسنّة دراسة تخضع للقواعد السابقة ، لنرى أهمية تلك القواعد وأهمية التزامها في تدبر منهاج الله والواقع من خلال منهاج الله . ونأخذ هذه القبسات من بعض الآيات والأحاديث التي وقع فيها خلاف في كتب التفسير، أو غلبت الإسرائيليات على تفسيرها في بعض كتب التفسير ، أو مما حدث التباس لدى بعضهم في فهمها أو تطبيقها ، لنجلو ذلك دون أن يكون هنالك مصادمة لأي قاعدة إيمانية ، أو لنصّ آخر من الكتاب والسنة ، أو خروج عن قواعد اللغة العربية ، أو تأويل فاسد لما ورد من نبأ الغيب الذي اختصّ الله سبحانه وتعالى بعلمه . وتستغرق هذه الدراسة الأبواب التالية كلها من الباب الثاني حتى الباب السادس .

ونودّ من هذه الدراسة أن نبيّن أهمية تدبر منهاج الله ، كل في حدود وسعه ومسئولياته ، حتى ينهض كل مسلم إلى واجبه الذي بيّنه الله له في منهاج الله ، بعد أن رأى النظرية ورأى نماذج من تطبيقها .

ولقد سبق أن قدمنا بعض النماذج القليلة من خلال دراسة بعض قضايا واقعنا اليوم دراسة مباشرة ، أو دراسة تمضي من خلال الأدب والشعر والملاحم ، لتكون هذه الدراسات نموذجاً عملياً لفهم واقعنا من خلال منهاج الله ، ولإبراز تميّز هذه الدراسات

من الدراسات التي لا تعتمد منهاج الله أساساً لفهم الواقع ، ومن الدراسات التي تكتفي بإطلاق الشعارات وحدها وإثارة العاطفة دون نهج أو خطة . ولتكون هذه الدراسات أيضاً حافزاً لإطلاق المواهب الإيمانية لتتابع دراسة الواقع المتجدّد على هذا النحو ، ولتمحيص النظرية العامة التي ندعو لها لتكون أساس العمل الإسلامي وقاعدته الراسخة .

من هذه النماذج كلها ، ومن هذه القبسات في هذا الكتاب نرجو أن نكون قد أوضحنا ما نهدف إليه أساساً من أن يعود المنهاج الرّبانيّ ليؤدي دوره اليوم كما كان يؤديه أيام النبوّة الخاتمة في الدعوة إلى الإيمان والتوحيد قبل الدعوة إلى أحزاب وتكتلات ، وفي البناء والتربية ، وفي إعداد الجيل المؤمن الذي يتابع تحقيق الأهداف الثابتة التي أمر الله بها على طريق ممتد إلى الجنة .

كان لابد من الباب الأول الذي يوجز القواعد والأسس ، ويوجز النظرية العامة للدعوة الإسلامية ، ليكون هذا هو الأساس الذي ننطلق منه في تدبّر الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة .

إننا نسأل الله بخشوع وإنابة ، من خلال ضعفنا ، أن يغفر لنا أخطاءنا ، وأن يهدينا سبيل الرشاد ، وأن يجعل برحمته وفضله نيّاتنا خالصة له ، نقيّة من الشرك ولوثة الدنيا وفتنتها ، وأن يجعل عملنا كله طيّباً بفضله غنيّاً بعونه مباركاً منه سبحانه وتعالى .

والحمد لله رب العالمين ؛

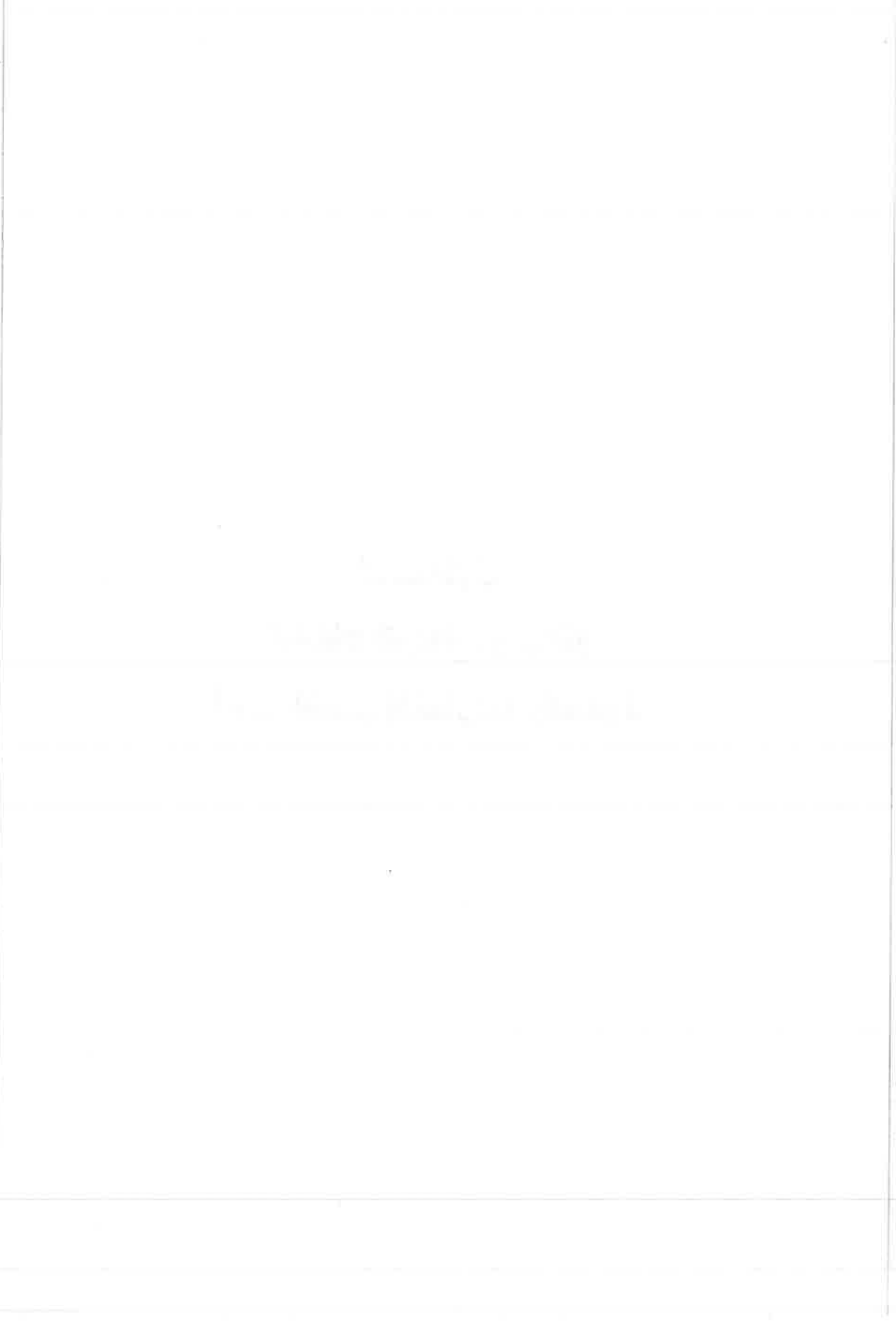
عدنان علي رضا النحوي

الرياض : الجمعة ١٦ جمادى الأولى ١٤١٥هـ

٢١/ ١٠/ ١٩٩٤م

الباب الأول

المنهاج الربّاني والواقع
أسس التدبّر والممارسة والدعوة



الفصل الأول

المنهاج الربّاني والواقع
وأسس الدعوة الإسلامية وعناصرها
ونظريّتها العامة

في كتاب الله آياتٌ بيّنات نزل بها الوحي الأمين على محمد ﷺ ليبلغها للناس أجمعين، لا إلى فئة محدودة أو طبقة خاصة ، وإنما للناس كافة . بَعثَ الله محمداً ﷺ ليبلّغ هذه الرسالة للناس كافّة ، وكذلك ليبيّنها لهم ليزداد فهمهم لها وإيمانهم بها ، وتزداد قدرتهم على ممارستها في واقع الحياة الدنيا :

﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تفلحون ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

وكذلك :

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للنّاس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾

[سبأ : ٢٨]

وكذلك البلاغ والتبيين :

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل اليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ [المائدة : ٦٨]

والمعنى هنا : أي بلّغ ما أُنزل إليك من ربك كاملاً تاماً لاينقص منه شيء، ولاتتوقف عن التبليغ مخافة أحد، وإن تركت شيئاً من التبليغ فكأنما تركت الكل.

﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس مانُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾

[النحل : ٤٤]

﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [النحل : ٦٤]

والتبيين للناس هو البلاغ من ناحية، وتوضيح التطبيق والممارسة من ناحية أخرى. فجاءت السنة النبوية لتبيّن أحكام الصلاة وممارستها، وأحكام الزكاة وممارستها، وأحكام البيوع وممارستها، وكذلك سائر الأحكام في مختلف ميادين الحياة الدنيا وممارستها في الواقع البشريّ ممارسة ترجو الله والدار الآخرة. وبذلك يكون رسول الله ﷺ أسوة حسنة للمؤمنين وهو يبلّغ ويبيّن كيف تُمارَسُ آيات الله في الواقع البشريّ لتكون الممارسة الإيمانية عملاً صالحاً تتوافر فيه الخصائص الربّانية:

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ [الأحزاب : ٢١]

فأصبحت سنّة رسول الله ﷺ وسيرته بلاغاً وبياناً لرسالة الله، وجزءاً لاينفصل عن هذه الرسالة، جزءاً من منهاج الله الذي أُنزل باللغة العربية، بلسان عربيّ مبين:

﴿ ... وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ [الحشر : ٧]

﴿ قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ [آل عمران : ٣١]

وعن عبيدالله بن أبي رافع عن أبيه عن النبيّ ﷺ قال: « لا أَلفِيَنَّ أحدكم مُتَّكِئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أُمرت به أو نهيتُ عنه، فيقول: لا أدري، ماوجدناه في كتاب الله اتبعناه»(١)

وجاء القرآن الكريم والسنة النبوية باللغة العربية التي نزل بها الوحي الأمين، فأصبحت اللغة العربية جزءاً من منهاج الله لاتنفصل عنه. ولم تعد لغة العرب وحدهم، ولكنها أصبحت لغة الوحي والرسالة والنبوّة الخاتمة، لغة الإسلام ولغة المسلمين لاتصح صلاتهم إلا بها، ولا تلاوتهم إلا بها، وبذلك أصبحت اللغة التي اختارها الله لتكون لغة الإنسان الأولى، ولتمتدّ مع امتداد رسالة الإسلام. وحين تعهد الله بحفظ الذكر يكون قد

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب العلم (٤٢) رقم (٢٦٦٥). وأبو داود في كتاب السنة (٣٤) رقم (٤٦٠٥). وابن ماجه في المقدمة رقم (١٣). صحيح الجامع الصغير وزيادته ج (٦) حديث (٧٠٤٩).

تعهَّد في الوقت نفسه بحفظ اللغة العربية التي اختارها سبحانه وتعالى لتكون لغة الذكر.

﴿ إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : ٩]

﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ [يوسف : ٢]

﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ [الزخرف: ٣]

﴿ ... وهذا كتاب مصدِّقٌ لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾ [الأحقاف : ١٢]

ويتوالى تأكيد هذه الحقيقة الهامّة بسور عدة في كتاب الله : الشعراء ، فُصّلت ، الرعد ، طه ، الزمر ، الشورى ، بالإضافة إلى السور التي سبق ذكرها .

من هنا يتضح لنا بصورة جليّة أَن المنهاج الرباني الذي ينهض على أَساسه الفكر والتصور ، والنهج والتخطيط ، والدعوة والبلاغ ، والتربية والبناء ، وغير ذلك من ميادين الحياة ، يضمُّ ثلاثة أَجزاء متماسكة لاينفصل بعضها عن بعض . هذه الأَجزَاء الثلاثة هي : القرآن الكريم ، السُّنّة والسيرة ، اللغة العربية .

وحين يعيش المؤمن مع كتاب الله وسنة رسوله كما جاءا باللغة العربية ، حين يعيش مع منهاج الله تتضح له حقيقة أُخرى هامّة غائبة عن واقع المسلمين قروناً عديدة . هذه الحقيقة الهامة هي دراسة الواقع وفهمه ووعيه من خلال منهاج الله .

ويدعو المنهاج الرباني لدراسة الواقع لأن دراسة الواقع حاجة ضرورية في جميع أوجه النشاط الإنساني ، ولأنها حاجة ممتدة في حياة الإنسان والشعوب لاتتوقف على مر العصور . فالله يريد من عباده ممارسة منهاج الله في الواقع البشري لا في الوهم والخيال ، وحتى تصدق الممارسة الإيمانية في الواقع فلا بدَّ من فهم هذا الواقع . والحياة الدنيا دار ابتلاء يُمَحَّص فيها الناس . فحتى ينجو المؤمن فلا يقع في فساد ، ولايُجَرَّ إلى معصية ، ولايُساقَ إلى انحراف ، ولا يُشَلَّ نشاطه ويُحْجَزَ عن خير ، لابدَّ له من دراسة الواقع من خلال منهاج الله . ولقد نزل القرآن الكريم منجماً حسب الأَحداث والوقائع ، فأَبرز بذلك قيمة الواقع البشري الممتد إلى يوم القيامة ، وربطه بمنهاج الله . ومنهاج الله يدعو المؤمن

ليتفكـر في خلق السمـوات والأَرض ومـابينهما ، وليتفكـر في خلق الإنسـان ، وليَسير في الأَرض فينظر في عاقبة الذين خلوا وينظر في واقع عصره الذي يعيشه ، ولينظر في سنن الله الماضية في الحياة الدنيا في مختلف ميادين نشاط الإنسان فيها ، فمنهاج الله الذي يدعو إلى هذا كله يدعو إذن إلى دراسة الواقع دراسة إيمانية عميقة .

ومنهاج الله الـذي يريـد الأُمة الإسـلامية أن تكـون أُمة وسطـاً ، وتكون شـاهدة على الناس ، ويكـون الرسـول عليهم شهيداً ، يـدعو بهذا كلـه إلى دراسة الـواقع . وإلا كيف تكـون هذه الأُمـة وسطاً ، وكيف يَكـونون شهـداء على الناس دون أَن يعـوا واقعهم وواقع الناس ، كيف تصح شهادة غافل أو لاهٍ؟!

ومنهـاج الله الذي يـدرس الإنسـان وطبيعته وسجـايـاه ، والـذي يقدم لنـا النماذج البشريـة ، والــذي يعـرض مصـائر الأمم وتــاريخ البشر ، ويعـرض أَسـاليب الأَعـداء ووسائلهم ، والذي يوجّـه المؤمنين ليظلُّوا أَعزاءَ أَقوياءَ ، والذي يـدعو إلى الوعي واليقظة ، والحذر والقوة ، هذا المنهاج يدعو بهذا كله أَيضاً إلى دراسة الواقع .

من هـذا العـرض الموجـز يتضح لنـا أَن هنالك ركنين أَسـاسيين يقـوم عليهما الفكـر والتصور ، والنهج والتخطيط ، والـدعوة والبلاغ ، والتربية والإعـداد ، والممارسة الإيمانية ، هذان الركنان هما : المنهاج الرباني بعناصره الثلاثة ، والواقع من خلال المنهاج الرباني .

هذان الـركنان هما الركنان الأَسـاسيان للنظرية العـامة في الدعوة الإسـلامية ، ومنهما ينطلق النشـاط كله ، وعليهما تقـوم الدعـوة الإسـلامية . وحين ينطلق الـدعاة من هـذين الركنين ، وينـزلون ميدان الواقع ليبلغـوا الناس دعوة الله ، يتبين أَن هنالك أُسسـاً تمتدّ من هذين الركنين ، وكل ركن من هذين الـركنين يدعو لهذه الأُسس لتتماسك معهما . فمنهاج الله والواقع يجعـلان من قضية الإيمان والتـوحيد أَسـاساً في الدعـوة الإسلاميـة ، ويجعلانها الهدف الثـابت الأَول من أَهـداف الـدعـوة الثـابتـة ، يـدعـوان لها بقـوة وإلحاح لأَهميتهـا وخطـورتها . وممارسـة منهاج الله في الـواقع البشري والتـدريب عليها أَسـاس آخر كـذلك يدعو لها منهاج الله ويفرضهُا الواقع البشري . فتصبح بذلك أُسس النظرية العامة للدعوة الإسلاميـة في قلب الميدان ، الأُسس التي تنطلق من الركنين الرئيسين وتـرتبط بهما ، أُسساً

أربعة ، بما فيها الركنان الرئيسان . ونوجز هذه الأسس الأَربعة بما يلي :

١ - قضية الإيمان والتوحيد والدعوة لهما وتثبيتها وتنميتها في النفوس .

٢ - دراسة منهاج الله عن إيمان ويقين ، وبتدبر كما أَمر الله .

٣ - دراسة الواقع من خلال منهاج الله .

٤ - الممارسة الإيمانية لمنهاج الله في الواقع البشري والتدريب عليها .

وعندما تمضي الدعوة الإسلامية بهذه الأُسس الأَربعة تجد نفسها بحاجة إلى أُمور عدة لتكفل نجاح مسيرتها بهذه الأُسس الأَربعة . وكل أَمر من هذه الأُمور تفرضه كذلك هذه الأُسس الأَربعة .

فالنهج والتخطيط عنصر هام رئيس في ميدان الدعوة . وهو في حقيقته عنصر يقوم به الإنسان عامة إذا أراد النجاح وبلوغ الهدف . ولكن التخطيط في الإسلام شيء أَهم وأَعظم مما هو عند غيره ، لأَنه ينبع من هذه الأُسس الأربعة ، ينبع من الإيمان والتوحيد ، ومن منهاج الله ، ليلبّي حاجة ضرورية في الواقع البشري ، حاجة تقوم بها الطاقة البشرية المؤمنة العاملة المدرّبة . وهذا العنصر -النهج والتخطيط- ضروري للدعوة الإسلامية ليساعد على بلوغ الأهداف . إنه يرسم الدرب المؤدية للهدف ، ويحَدّد الوسائل والأساليب بعد أَن حدّد الهدف والدرب . وهذا العنصر -النهج والتخطيط- ضروري للدعوة عامة وضروري لكل ميدان تخوضه الدعوة . فحين تخوض الدعوة الإسلامية ميدان البلاغ والبيان فلابد أن تحمل معها الخُطة اللازمة لهذا الميدان ، وحين تخوض ميدان التربية والبناء والإعداد فيجب أَن تحمل معها النهج والتخطيط له ، وكذلك الحال حين تخوض ميدان التدريب على الممارسة الإيمانية أو أَيّ ميدان آخر كالاقتصاد والسياسة وغير ذلك . ولو أخذنا مبدئياً ثلاثة ميادين : الدعوة والبلاغ ، والتربية والبناء ، والتدريب على الممارسة الإيمانية ، يتكوّن لدينا عناصر أَربعة هي النهج والتخطيط العام ، والنهج والتخطيط لهذه الميادين الثلاثة .

وتحتاج الدعوة الإسلامية وهي في الميدان إلى الإدارة والتنظيم ، وإلى وضع كلِّ طاقة بشرية في مكانها المناسب ، وإلى توزيع المسئوليات على الطاقات المختلفة حسب الوسع

والطاقـة ، وحسب ماهو متـوافر منها في الـواقع . ويتعذّر تحقيق ذلك إلا إذا توافـر ميزان أَمين نابع من الأُسس الأَربعـة توزن بـه الرجال والطـاقات والقدرات . ولنُسَمِّ هـذا الميزان «ميزان المؤمن» .

وستحتاج الدعوة كذلك إلى أَن تُقوِّم جُهدَهـا وسَعْيَها تقويماً أَميناً دقيقا ، حتى تعرف أَين أَخطأت فتُصَحِّح الخطأ ، وأَين أَصـابت فتنمو بـه وتتقدّم . والتقويم حاجـة للناس كلهم ، ولكن المؤمنين أَشد حـاجة إلى التقويم لأنـه يمثل صورة من صـور محاسبة النفس التي أُمـروا بها ، ولأَنهم يسعـون في حيـاتهم الـدنيـا إلى الجنـة التي تُفْتَح أَبـوابُها بـالعمل الصـالح ، ولأَنهم مكلّفون أَن يكـونـوا أَقويـاءَ يُتْقِنُـون عملهم ، واعين يتجنّبون الخطأ مـا وسعهم ذلك ، حذرين لا يُسْتَـدرَجون إلى فساد وفتنـة . والتقويـم عنصر هام يسـاعد على تحقيق ذلك كله في ميدان الدعوة الإسـلامية ، في ميدان الواقع والممارسة والتطبيق . ويجب أَن يأخذ التقـويـم صورة منهجيـة تنمو مع الأَيام مـادامت الأُسس الأربعة هي التي تـرعاه وتغذّيه .

وفي ميدان الـدعوة الإسلامية يعمل الفـرد الداعية واعياً لهذه النظـرية العامة بـركنيها وأُسسها وعنـاصرهـا. فيجـد أَن هذه العـوامل كلها : الـركنيْن والأُسس والعناصر تـدعوه وتفرض عليـه التعاون مع أَخيه الـداعية . وتدعو كـذلك إلى أَن يأخذ هذا التعـاون صورة منهجيّة قـابلة للنموّ والتطور حتى تأخـذ صورة المؤسسات الإيمانية التي ترعـى التعاون ، وتفتح أَبوابه وميادينـه ، وتوفر له الطاقات والكفاءات ، والدراسـات والأَبحاث ، وسلامة النهج والتخطيط .

وبذلك تصبح العناصر النـابعة من الركنين والأُسس الأَربعة والملبّيـة لحاجات الواقع ثمانية عنـاصر، كما عرضنـاها أعلاه ، وكما نـوجزهـا بما يلي لتكون مُتَمِّمة للنظـرية العـامة للدعوة الإسلامية :

١ - الأُسس الأَربعة التي سبق ذكرها تُمَثِّل العنصر الأَول الذي تنطلق منه سائر العناصر.

٢ - النهج والتخطيط العام للدعوة الإسلامية .

٣ - النهج والتخطيط للدعوة والبلاغ ولبيان قضية الإيمان والتوحيد .

٤ – النهج والتخطيط للبناء والتربية والإعداد .

٥ – النهج والتخطيط للتدريب على الممارسة الإيمانية في شتى ميادين الممارسة .

٦ – ميزان المؤمن .

٧ – التقويم .

٨ – المؤسسات الإيمانية .

ولكنّ هذه العناصر قابلة للزيادة والنموّ مع امتداد ميادين الدعوة واتساعها ، ونموّها وتطورها .

«وكتبُ الدعوة» التي صدرت حتى الآن تشرح النظرِيّة العامة وتشرح تفصيلات الركنين والأُسس الأربعة والعناصر الثمانية . إنها تشرح دور المنهاج الرباني وهو الركن الأول ، وتشرح نظرية الواقع وهو الركن الثاني . وهي تشرح تفصيلات الإيمان والتوحيد والدعوة لهما وتفصيلات الممارسة الإيمانيّة والتدريب عليها ، وبذلك تكون قد عرضت تفصيلات الأُسس الأربعة . وهي تشرح النهج والتخطيط وتفصيلاته ، ونهج الدعوة ، وخطة البناء والتربية ، وخطة التدريب ، وميزان المؤمن ، والتقويم ، والمؤسسات الإيمانية .

«وكتبُ الدعوة» لا تنحصر في ميدان واحد ، ولكنها تمتد إلى ميادين الدعوة المختلفة : البيان والبلاغ ، التربية والبناء ، التدريب ، الأَدب الإسلامي ، الشعر والملاحم ، الواقع وقضايا العالم الإسلامي وغير ذلك . وهي تعرض النظريّة العامة ، والنظريّة في كلّ ميدان ، ونماذج عملية تطبيقية فيه . وبذلك فهي تمثل منهجاً مترابطاً متماسكاً ، محدد المعالم ، واضح التفصيلات .

وهذا النهج ، في جميع «كتب الدعوة» ، يحمل معه حجته من القرآن والسنة ، والبيّنة على حاجة الواقع إليه . وهو بذلك يحمل القدرة على النموّ ليظلّ يلبّي حاجات الواقع المتجددة ، محتفظاً بنظريته وأَهدافه وأُسسه التي يقوم عليها ، مادامت الطاقة البشرية العاملة تتوافر فيها الشروط الرئيسة :

١ – صدق النيّة والإخلاص لله سبحانه وتعالى .

٢ – سلامة الزاد من العلم والخبرة والمران .

٣ - صدق العزيمة في البذل والعطاء دون عجز أو تراخ .

٤ - توافر الكفاءات الخاصة لكل ميدان، ووضع الخطة اللازمة لذلك .

٥ - التزام النهج وممارسته عن إيمان ويقين ووعي .

بهذه الخصائص والشروط تستطيع الطاقة البشرية المؤمنة أن تمضي في دربها حاملة أمانة الدعوة، قادرة على فتح ميادين جديدة، وبانية طاقات مؤمنة جديدة، لتظلّ مصنعاً تتدفّق منه الرجال والطاقات والمواهب لميادين البذل والعطاء والجهاد .

لماذا النظرية العامة؟!

بإيجاز! لأنها ضرورية وحاجة ماسة للدعوة الإسلامية، وخاصة في واقعنا المعاصر. فهي التي تبيّن الميادين وحاجاتها واتساعها . وهي التي تبيّن دور كل ميدان وأهميته وخطورته، فتنتظم الأولويات في ساحة العمل الإسلامي، ويصبح كل عمل أو جهد مبنياً على الجهد الذي سبقه، مرتبطاً به، ماضياً معه لجهد آخر جديد .

وهي ضرورية لتنسيق الجهود والطاقات البشَريَّة . وكلُّ ركن أو أَساس أو عنصر يساعد على هذا التنسيق، ويساعد على حسن الإدارة والتنظيم .

وهي ضرورية لأَنها تضبط الجهود وتدفعها كلها في مجرى واحد واضح محدّد، بدل أَن تتبعثر هنا وهناك، وتتناثر فتضيع ويضيع أَثرها وخيرها . ذلك لأنها تُحدّد الدربَ والنهج والأَهداف والمراحل على صراط مستقيم .

وهي ضرورية لتذكّر بالأَساس المتين للقاء المؤمنين . إنها تذكر بالقواعد الربَّانيّة التي يأمر الله بالتزامها، وتفتح المجال الواسع لتنافس المناهج والتخطيط، بدلاً من التنافس على عرض من الدنيا ولعاعة من شهواتها . إنها تفتح المجال للطاقة البشرية كي تُبدع في نطاق وسعها وموهبتها، بدلاً من أَن تتنافس حسداً وتناجشاً ومزاحمة على مغانم في الدنيا رخيصة .

إنها تنطلق من النيّة والإيمان والتوحيد، وترسم تفصيلات الدرب على ضوء منهاج الله والواقع، وتحدّد الأهداف الربّانية التي يَقود إليها الدرب، وتبيّن الوسائل والأساليب المتوافرة في الواقع .

لهذا كله كانت النظرية العامة للدعوة الإسلامية ضرورية وهامة، وحاجة ماسّة في واقعنا اليوم خاصة. وتزداد هذه الضرورة والحاجة عندما نستعرض تفصيلات الركنين والأُسس والعناصر في «كتب الدعوة». فهذه التفصيلات تزيد الصُّورة وضوحاً وهي تحمل أدلتها من القرآن والسنة، وتكشف تناسق النهج وترابطه.

وهذه التفصيلات تساعد كذلك على فهم منهاج الله -قرآنا وسنّة ولغة عربية- إنها تساعد على تدبّر كتاب الله وتوفّر العوامل المساعدة لذلك.

إنها توفّر كذلك العوامل الضرورية، ليس للتدبّر فحسب، وإنما للممارسة والتطبيق، وتوفّر الفرصة المناسبة لذلك.

ولكنَّ هذا كلّه لايتحقق إلا إذا توافر لدى المسلم شرطان أساسيان هما: صدق النيّة وإخلاصها لله سبحانه وتعالى، والعزيمة الجادة الباذلة للجهد الحقيقي الأمين المطلوب. فبالنيّة الصادقة والجهد الصادق يطرق المؤمن أبواب الجنة.

نعرض هنا هذه القواعد الرئيسة لتكون المنطلق لتدبّر منهاج الله، ولفهم الآيات والأحاديث التي نعرضها في هذا الكتاب قبساتٍ تضيء لنا الدرب في واقعنا اليوم، وتعين على إزاحة الظلمات.

الفصل الثاني

منهاج الله

بين التدبّر والتطبيق

إنه القـرآن الكريم : هـو حبل الله المتين والذكـر الحكيم والصراط المستقيم. لا يخلق على كثـرة الردّ، ولاتنقضي عجـائبه. هـو شفاء ونـور وبرهـان، ورحمة وهدى. إنـه الحق المطلق الـذي لايأتيه البـاطل من بين يـديه ولا من خلفـه. إنـه تام كـامل، مفصّل بيّن، محكم متناسق. إنه موعظة وبشرى وتذكـرة، معجز كل الإعجاز، أنزله الله على نبيه محمد ﷺ ليبلغه ويبيّنه للناس كافّة. وهو ميسّر للذكر بلسان عربيّ مبين. تعهَّد الله بحفظه.

إن الإيمان والتوحيد، حين يمـلأ قلب المؤمن بنوره، يدفعه دفعـاً إلى كتاب الله ليتلوه ويدرسه ويتدبره، وليحفظه ويتعهّده على قدر وسعه.

وعند تـلاوة كتاب الله أو دراستـه أو حفظه لابدّ أن تظـل هناك قاعـدتان أسـاسيتان يعيهما المؤمن ويتمسّك بهما :

القاعدة الأُولى هي التدبُّر والفهم. إنها القاعدة التي توفّـر الفائدة الأُولى من التلاوة والدراسة والحفظ، حتى يعي المؤمن مـايتلو، وحتى يدرك مع الأيام عظمـة القرآن وعظمة الفائدة التي يجنيها :

﴿ كتابٌ أنزلناه إليـك مبارك ليدَّبَّروا آياته وليتـذكر أولوا الألباب ﴾

[ص : ٢٩]

﴿ أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ [محمد : ٢٤]

﴿ أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان مـن عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾

[النساء : ٨٢]

والقاعدة الثانية هي تطبيق مايتلوه المسلم ويتعلمه في واقع الحياة. إنها ممارسة منهاج الله في الواقع البشري. إنها الممارسة الإيمانيّة :

﴿ اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ﴾ [الأعراف : ٣]

﴿ اتلُ ما أوحي إليك من الكتـاب وأقم الصلاة إن الصـلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون﴾ [العنكبوت : ٤٥]

﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبّار فـذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ [ق : ٤٥]

وعن أبي عبدالرحمن السلمي قال : «**حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب رسول الله ﷺ أنه كانـوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخـذون في العشر الأُخرى حتى يعلموا مافي هذه من العلم والعمل، قالوا فعلمنا العلم والعمل**» . [أخرجه أحمد][(١)]

وعن عبدالله بن مسعـود : قال : «**كنا إذا تعلمنـا من النبيّ عشر آيات لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعلم مافيه. فقيل لشريك : «من العمل؟» قال «نعم!»** » . [أخرجه ابن عساكر][(٢)]

هاتان هما القاعدتان الرئيستان في تلاوة كتاب الله : التدبّر والفهم، والممارسة والتطبيق.

فمن مسئوليـة الدعوة الإسـلامية إذن، ومن مسئـولية الأُمة المسلمـة كلها، أن تضع الخطة العملية التـي تساعد المسلم على تدبّر كتـاب الله من ناحية، والخطة التـي تساعده على الممارسة والتطبيـق في واقع الحياة، والتي تسـاعده على النهـوض لمسئوليـاته، دون أن تُشَلَّ قدراته وتموت مواهبه. وأساس التدبُّـر والتطبيق هو صدق الإيمان والتوحيد، ومعرفة اللغة العـربية وإتقانها. إن كتـاب الله يتفتَّحُ للقلوب المؤمنـة، وأما الكافـرون فهو عليهم عمى. واللغة العربية هي لغة القرآن وباب إعجازه. فكيف يتدبّر المسلم آيات كتاب الله وهو يجهل اللغة العربية :

﴿ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلت آياته ءَأعجميٌّ وعربيّ قل هو للـذين آمنوا هـدى وشفاء والـذين لايؤمنـون في آذانهم وقرٌ وهـو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ [فصلت : ٤٤]

---

(١) حياة الصحابة للكندهلوي : (ح : ٣)، (ص : ٦٦٤)، وقال أخـرجه أحمد : (٥ : ٤١٠) الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد ابن حنبل – أحمد عبدالرحمن البنا : (ح : ١٨)، (ص : ٩)، (رقم ٢٣).
(٢) حياة الصحابة : وقال كذا في الكنز: (١ : ٢٣٢).

﴿ومن أظلم ممن ذُكِر بآيات ربه فأعرض عنها ونسِي ماقدّمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعُهمْ إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً﴾
[الكهف : ٥٧]

وإذا كان الإيمان يفتح للمؤمن آيات الله ليتدبّرها ، فإن القرآن الكريم يزيد إيمان المؤمن وينميه .

﴿وإذا ما أُنزلت سُورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون* وأما الذين في قلوبهم مرضٌ فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ [التوبة : ١٢٤ , ١٢٥]

ومما يعين على التدبُّر والممارسة في واقعنا اليوم دراسة القرآن الكريم دراسة منهجيّة تضمّ التلاوة والتفسير الميسّر والحفظ ، ليعين كل عنصر من هذه العناصر العنصرين الآخرين . وكذلك التعهّد والمراجعة ليظل صحبة عمر وحياة .

ومما يعين كذلك على التدبّر والممارسة دراسة السنّة مصاحبة لكتاب الله لاتنفصل عنه ، ليكون القرآن الكريم والسنة واللغة العربية حقيقة منهاج الله .

ومما يعين على الدراسة والممارسة كذلك دراسة الواقع من خلال منهاج الله حتى تسهل الممارسة فيه عند فهمه ووعيه ، فيزداد بذلك التدبّر والوعي .

ويمكن إيجاز هذه العوامل التي تقوم عليها الخطة اللازمة لتدبّر منهاج الله وممارسته في الواقع بالنقاط التالية :

١ - أن يأخذ كل مسلم من منهاج الله قدر وسعه الصادق وطاقته الحقيقية دون تزييفها بالأعذار .
٢ - أن يكون الأخذ بنيّة صادقة يصوغها الإيمان والتوحيد ، وأن يكون بعزيمة وجدّ .
٣ - أن يكون الأخذ صحبة عمر وحياة لاتتوقّف حتى يلقى المؤمن ربّه على ذلك .
٤ - أن يكون الأَخذ منهجيّاً خاضعاً إلى خُطة ميسَّرة تقوم على الأُسس الأربعة التي سبق ذكرها والركنين اللذين سبق ذكرهما .
٥ - أن يصاحب دراسة كتاب الله ، دراسة السُّنَّة واللغة العربية والواقع ، لتتكامل عوامل التدبّر وسلامة الممارسة في الواقع ، وأن تكون هذه الدراسة من خلال نهج وخطة حسب ماذكرنا في البند السابق .

بهذه الشروط يصبح كتاب الله في حياة المسلم الصادق هو حبل الله المتين ونوره المبين. يصبح إيماناً وتوحيداً، وعلماً صادقاً لاباطل معه، وعملاً صالحاً في واقع الناس، ينشر الخير والصلاح، ويحارب الفتنة والشرّ، ويظل الخير والشرّ يقاسان بميزان الله، لا بميزان الأهواء والمصالح.

ويصبح منهاج الله هو ميزان المؤمن الأوفى يزن به الناسَ ويزن به الأحداثَ، ويردُّ الأمور كلها إليه. وتمضي الدعوة الإسلامية على ذلك، على نظرية عامة شاملة، ونهج دقيق مفصّل، وتدريب وبناء وإعداد، لتدفع أجيال المؤمنين على مرّ العصور، تحملُ رسالة الله إلى عباده، تحمل إليهم دعوة الإيمان والتوحيد، دعوة ماضية أبد الدهر.

من أجل ذلك، ومن أجل تيسير تدبّر منهاج الله تدبّر وعي وخشوع، وعلى ضوء واقعنا اليوم، ومن خلال مايتبيّن لنا من الآيات والأحاديث، نستطيع أن نضع خطوات أساسية لتدبّر القرآن الكريم نوجزها بأربع: التلاوة بشروطها، الدراسة والتدبّر والتفسير، الحفظ مع التدبر، المراجعة.

وقد فصلنا هذه الخطوات الأربع وشروط كل منها في كتابنا: «منهج المؤمن بين العلم والتطبيق». ويأخذ المسلم هذه الخطوات الأربع معاً وفق خطة يوميّة وأُسبوعية كما هي مشروحة في موضعها من الكتاب المذكور. ومع نمو الدراسة والعلم والممارسة يمكن أن تتحول هذه الخطوات الأربع إلى اثنتين، كأن تصبح التلاوة والحفظ والمراجعة بنداً واحداً لمن حفظ القرآن الكريم وأتقنه، ويمكن أن تتحول كلها إلى بند واحد هو التلاوة اليومية والمراجعة في آن واحد، لمن اكتفى من دراسة كتب التفسير بالقدر اللازم له.

ولكننا لاننسى أن هذه الخطوات الأربع أو الثلاث أو الاثنتين أو الواحدة يجب أن يرافقها دراسة السُّنة ومراجعتها ودراسة اللغة العربية، وأن تكون جميع هذه الدراسات خاضعة لنهج واع محدّد مدروس، وخطة عملية مرنة تناسب الوسع والطاقة.

وكذلك يجب أن لاننسى أن هذا كله يجب أن يصاحبه التدريب في مدرسة الإسلام، على أن يخضع التدريب كذلك إلى نهج وخطة. وأن يخضع هذا كله للنظرية العامة للدعوة الإسلامية.

الفصل الثالث

أسس تدبر منهاج الله وممارسته
والنهج والتخطيط لذلك

عند تلاوة كتاب الله تـلاوة تدبّر وخشـوع، وعند دراسته، وحفظه كذلك، بتـدبّر وخشوع، يأخـذ المؤمن زاداً غنياً عظيماً على درب الحيـاة ليصدق الله في عهـده وولائه له، ويصدق في بذله وجهاده، على درب مشرق بالأهـداف الجليّة، وهو مطمئنّ أن دربه يقود إلى الجنّة، يطرق أبوابها بصدق النيّة وصدق العمل المنهجيّ الواضح.

من أجل هذا التدبّـر والخُشوع عند دراسة كتاب الله بالشروط التي سبق ذكـرها، لابدّ للمـؤمن من أن يعي بعض القواعـد الأسـاسية التي تعينـه على التدبُّـر والفهم، والـوعي والاطمئنان، وطـرد وسوسـات الشيطان، حتى لايتَّبع مـا تشابـه من الآيات ابتغـاء الفتنة وابتغاء تأويله. ونوجز هنا أهم القواعد التي تعين على ذلك:

١ - أن يكـون الإيمان والتوحيـد هما أسـاس التدبّـر والفهم: ويقتضي ذلك أن يدرك المؤمن أن قضيـة الإيمان والتوحيـد هي أخطـر قضية في حيـاته، وأنها الحقيقـة الكبرى في الكـون كله، وأنها كـانت بفضل الله ورحمته قضيـة غـرسها الله في فطـرة بني آدم، وجعل الآيات البيّنـات في الكون شـاهدة عليها مـذكرة بها، وأن الـرسل والأنبياء بعثهـم الله رحمة منه ليذكّروا ويبلّغـوا ويبيّنوا. ويقتضي هذا كله أن يعي المؤمن حقيقة الأُلوهيـة والربوبية، وأن يعيَ حقيقة عبوديتـه لله رب العالمين، حتى لايوسوس له الشيطـان فيتناقض في فكره وسلوكه، ولا يـأخذه الغرور فيستكبر، فتغلق الآيات أمامـه بكبره وظلمه. ويقتضي ذلك أيضاً أن يعي حقيقـة ولائه الأول لله سبحانـه وتعالى وعهـده الأول مع الله سبحانـه وتعالى وحبّه الأكبر لله ولرسوله، حتى لايكون لـه ولاء ولا عهد ولا حب إلا ما كان نابعاً من ولائه الأول لله وعهـده الأول مع الله وحبه الأكبر لله ولـرسولـه. ويقتضي ذلك أن يدرك عظمـة كتـاب الله، وأن كتـاب الله مع سنـة رسـول الله ﷺ هما المصـدر الـذي يحدّد لـلإنسـان مسئوليـاته التي سيحاسب عليها بين يـدي الله يوم القيامة، فيقبل على منهـاج الله إقبال

المؤمن العابد الخاشع لينهل ويتزوّد، عسى أن ينجو في الدنيا والآخرة، وليقوّم نفسه ويؤدبها على منهاج الله، ولينهض إلى مسئولياته الحقيقية في الحياة الدنيا، مسئولياته التي يبحث عنها ويتعلمها من منهاج الله، مسئولياته التي من أهمها حمل رسالة الله إلى الناس وتبليغهم إياها. فيتلو كتاب الله ليتعلّم ويتزوّد ويطبّق علمه في واقع الحياة.

٢ – دراسة اللغة العربية جزءٌ من دراسة منهاج الله: على ضوء واقعنا اليوم لابد أن تكون دراسة اللغة العربية جزءاً لايتجزأ عن دراسة منهاج الله. إن اللغة العربية والإيمان والتوحيد يكونان معاً المفتاح الأول لتدبّر منهاج الله. وماذا كان لدى صحابة رسول الله ﷺ غير صفاء الإيمان ومعرفة اللغة العربية وأساليبها وأبواب بلاغتها وصحبة النبوة الخاتمة؟! وأما صحبة النبوّة فقد منّ الله علينا بفضله أن يسّر لنا سيرة النبوة والأحاديث الشريفة. وكيف يرجو المسلم اليوم أن يتدبّر منهاج الله دون أن يتقن اللغة العربية، وكيف تكمل عبادته إذا جهلها؟!

٣ – القرآن يفسّر بعضه بعضاً: ولذلك كانت الدراسة المنهجية واعتماد التلاوة اليومية، واعتماد التفسير المبسّط، واعتماد الحفظ، كل هذا يعين على الاستفادة من أن القرآن يفسّر بعضه بعضاً.

٤ – السنة تفسر القرآن الكريم: فقد جاءت أحاديث شريفة تنصّ على تفسير بعض الآيات والأحاديث، مما يوفّر للمسلم المصدر اليقيني لفهم هذه البيانات.

٥ – عدم تطبيق قوانين عالم المشهد وتصوراته على عالم الغيب: فالمؤمن يجد في كتاب الله آيات بيّنات تتحدث عن الغيب ونبئه، وعن الموت وما وراءه، والساعة وأهوالها، والبعث والحساب، والجنة والنار، والملائكة والشياطين، وغير ذلك من نبأ الغيب. ويقع المسلم في خطأ كبير حين يحاول أن يفهم هذا الغيب من خلال تطبيق قوانين الحياة الدنيا وتصوراتها على نبأ الغيب.

إن الله سبحانه وتعالى يُقرّب لنا نبأ الغيب بألفاظ قريبة لنا، حتى نستطيع إدراك طرف من معالمها قدر مايعلم الله سبحانه وتعالى أنه كاف لنا. ولكنّ الغيب عالم آخر لايخضع لقوانين الحياة الدنيا. فيوم القيامة تُبدَّل السموات والأرض غير الأرض، ويعيش

المؤمنون في الجنة حياة أخرى لاتخضع لقوانين حياتنا الدنيا. فهم لايتغوّطون ولايتمخطون ولايتبوّلون، ولا جوع هناك ولاظمأ، ولاهمّ ولاغمّ. إنها نعيم كامل في الجنة، وعذاب شديد في النار.

لذلك نقرأ آيات الغيب لنعتبر ونتعظ، ونخشع وننيب، دون أن ندخل في أي تأويل لها، أو تفسير نخرج به من تصوّرات عقولنا وأوهامنا. إن محاولة إخضاع الغيب لتصوّراتنا الدنيوية أمر مخالف للعقل، متناقض مع سلامة المنطق، مخالف لحقيقة الدين وجلال الحق.

إن القوانين العلمية التي يكتشفها الإنسان في الحياة الدنيا منها ما ينطبق على نطاق محدود من مجال الأرض في الفضاء، حتى إذا ابتعدنا عن هذا المجال أخذت هذه القوانين تضطرب وتفشل. هذا كان حال قوانين نيوتن، حتى جاءت النظرية النسبية لأنشتاين لِتُطبَّقَ على مجالات أبعد في الفضاء. وربما تعود هي إلى الفشل كلما ذهبنا إلى أعماق أبعد وأبعد في كون لانَعْلم عنه إلا بمقدار حبة الرمل بالنسبة لرمال الأرض كلها، فكيف إذا ذهبنا إلى أقصى بعد في الزمان والمكان، وانتقلنا من الدنيا إلى الآخرة.

والغيب لايعلمه إلا الله وحده. ونحن لانعلم منه إلا ما يعلمنا الله بالوحي المنزل على رسله، وما يعلم الله أنه كاف لنا:

﴿ قل لايعلم من في السموات والأرض الغيبَ إلا الله وما يشعرون أيان يُبعثون ﴾ [النمل: ٦٥]

﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً* إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً* ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٨]

﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ [البقرة : ٣٢]

نؤكد على أهمية هذه القاعدة الربانية من أجل فهم كتاب الله وتدبره، لأنها تكشف لنا عظمة التيسير الذي يسّره الله لنا، ولأنها تزيل كثيراً من الشبهات الباطلة من صدور الناس، وتزيل كثيراً من الخلافات بين بعض المذاهب التي أُغرقت بالتأويل، وتقطع حجة أهل التأويل الباطل ومذاهب الفتنة والضلال، وتُيسِّر للمؤمن الفهم المطمئن الأمين لمنهاج الله وتدبّره.

٦ - الدراسة المنهجية : إن الدراسة المنهجيـة للكتاب والسنة واللغة العـربية والواقع وغير ذلك من الموضوعات، هي التي تساعـد المسلم على حسن التدبّر، وتساعده على أن يكتشف التكامل والتناسق في كتاب الله، ويكتشـف بعض نواحي الإعجاز، وقوة الترابط مع مـا صحَّ من حديـث رسول الله ﷺ. فـالقرآن الكـريم يفسّر بعضـه بعضاً، والسنـة تفسّر كـذلك وتفصل وتبيّن. فالـدراسة المنهجيـة تـوفر الفـرصة الأكبر لفهم منهـاج الله وتدبره، وتوفّر الفهم الأوسع والأعمق، وتيسّر كثيراً من الصعوبات.

إن عملية بناء الجيل المؤمن الـذي يحسن تدبّر منهاج الله، ويحسن ممـارسته في الواقع تتطلّبُ هذه الـدراسة المنهجية، وتتطلَّب كذلك تكـامل الدراسة بالعنـاصر التي يشملها المنهاج الفردي، والتي عددنا بعضها فيما سبق من صفحات[١]

٧ - ترك الروايـات الإسرائيلية : فقد ورد في كثير من كتب التفسير روايـات اسرائيلية لاتتناسب وجلال الإيمان والتـوحيد والنبوة الممتدة مع الزمن، دون أن تجد مـا يسندها من الكتـاب والسنـة. وسنشير في هـذا الكتاب إلى بعـض من ذلك، لننقّي التفسير من مثل هذه الروايات.

وعلى هـذا الأسـاس نفهم أحـاديث رسـول الله ﷺ عـن بني إسرائيل. ونأخـذ هنـا قبسات من ذلك :

فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «حدثوا عن بني اسرائيل ولاحرج»

[أخرجه أبو داود][٢]

وعن عبدالله بن عمـر قال : «كان نبيّ الله ﷺ يحدّثنا عن بني إسرائيل حتى يصبح، مايقوم إلا إلى عظم صلاة» [أخرجه أبو داود][٣]

وعنه أيضاً أن رسول الله قال : « بلّغوا عنّي ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولاحرج ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ». [أخرجه البخاري والترمذي][٤]

(١) يراجع كتاب : « منهج المؤمن بين العلم والتطبيق »، وكتـاب : « دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسـلامية » وكتاب « منهج لقاء المؤمنين »، وكتاب « نهج الدعوة وخطة التربية والبناء » للمؤلف.
(٢) أبـو داود : ١٩/ ١١/ ٣٦٦٢. (٣) أبـو داود : نفس الكتـاب والبـاب حـديث رقم (٣٦٦٣).
(٤) البخاري : كتاب (٦)، باب (٥٠) الترمذي : ٤٢/ ١٣/ ٢٦٧١.

فلا نفهم من هذه الأحاديث أن ننزل « الإسرائيليات » منزلة التصديق . ولكن هذه الأحاديث الشريفة تعني أن نحدث بما صحّ من أخبار بني اسرائيل ، وما ابتلاهم به الله مما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ، ليكون في ذلك عبرة وتذكير .

ويؤيد هذا الذي نذهب إليه مارواه الإمام أحمد عن أبي نملة عن رسول الله ﷺ :

« **إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدِّقوهم ولاتكذّبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله . فإن كان حقاً لم تكذّبوهم وإن كان باطلاً لم تصدّقوهم**» . [رواه أحمد] (١)

وكذلك مارواه الإمام أحمد عن جابر عن الرسول ﷺ أنه قال « **لاتسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا . فإنكم إما أن تصدّقوا بباطل أو تكذبوا بحق فإنه لو كان موسى بين أظهركم ماحلّ له إلا أن يتبعني** » . [رواه أحمد] (٢)

وقد ثبت لنا بالقرآن والسنة أن مصادرهم محرّفة ، وثبت بالتاريخ أن التوراة والإنجيل كتبا في عصور متأخرة ، وثبت التضارب بين النصوص لديهم . ولكن لاحرج برواية ماصح من أخبارهم في الكتاب والسنة ، وإنما الإثم والمعصية برواية الكذب والجهل وما لايعلم الإنسان صدقه .

٨ - **التحرّر من الأفكار المادية التي تسللت إلى واقعنا اليوم** : فقد تسللت مع زخارف حضارة الغرب أفكار مادية تصطدم مع حقائق الإيمان والغيب ، مما يثير شبهات في قلوب بعض المسلمين . تسللت هذه الأفكار المادية مع الزخارف والجيوش الزاحفة والعلم المادي والإعلام الواسع وسائر وسائل الفتنة في الأرض ، والانحلال الجنسيّ الملتهب ، والخمر والمخدرات ، حتى سادت في المجتمعات الإسلامية عادات وأعراف ظنها بعضهم جهلاً وغواية أنها حق ، وما هي بحق ! إنها باطل مدمر وطوفان كاسح ابتلاء من الله ، وتمحيصاً للقلوب ، ولتقوم الحجة على هذا وذاك يوم القيامة ! .

لابد أن نقبل على دراسة منهاج الله مؤمنين مصدّقين أنه حق من عند الله ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، نقبل عليه وقد تحرّرنا من ضلال حضارة الغرب وفتنتها ، ومن أهوائنا وشهواتنا ووسوسات شياطين الإنس والجن .

---

(١) أحمد : المسند : ٤/ ١٣٦ ، الفتح : ١/ ١٧٦ .
(٢) أحمد : المسند ٣/ ٢٩٦ ، الفتح : ١/ ١٧٤ ، ٢٠/ ١٤٦ .

لقد أصبح بعض المسلمين اليوم وبعض دعاتهم إذا تحدَّثوا عن الحريّة أو العدل نسبوها إلى الديمقراطية فمجّدوها كأنه ليس في الإسلام حرّية ولا عدل ، وإذا تحدّثوا عن الاقتصاد عزوا الفضائل للاشتراكية لا للإسلام ، وإذا تحدّثوا عن الفكر نقلوا فلسفات الغرب كأن منهاج الله لايحمل فكراً ، وإذا تحدّثوا عن الأَدب والنقد والنثر والشعر نقلوا الحداثة وغيرها من نظريات الغرب وحاولوا طلاءها بطلاء إسلامي ، فماذا بقي من الإسلام؟! وربما كان ذلك كله ردّ فعل لواقع المسلمين المظلم ، وللجهل الواسع الممتد ، حتى أصبح بعضهم ، إذا أراد أن يثبت أنه مثقف متعلم يأتي بأسماء كُتّاب الغرب وفلاسفتهم وأدبائهم ، متجرِّداً من تاريخه وزاده ودينه .

لابأس من الاستفادة من تجارب الأمم ، وبخاصة في مجال العلوم التطبيقية والصناعة . ولكن يظلّ هنالك فرق كبير بين التسوّل والاستجداء والاستخذاء وبين الاستفادة الواعية التي لاتضيّع جواهر الأُمة المسلمة ونعمة الله العظيمة عليها ، وما أمرها على أساس ذلك أن تكون شهيدة على الناس .

أما في مجال الفكر والنظرة إلى الكون والحياة ، فنحن الذين يجب علينا أن نقدم رسالتنا لشعوب الأرض كلها ، لندعوهم إلى الدين الحق ، إلى دين الله ، إلى الإسلام ، إلى التصوّر الصادق الحق للدنيا والآخرة ، والحياة والموت ، والبعث والحساب ، والجنة والنار ، والملائكة والشياطين ، وإلى فهم عالم المشهد وسنن الله فيه ، وعالم الغيب وما أنبأنا الله عنه .

ولا بأس من الاطلاع والمعرفة بما هو ضروري معرفته ، ولكن الاطلاع شيء والاتباع شيء آخر.

لابد أن تظل ثقتنا بأنفسنا قوية ثابتة نابعة من يقيننا بالله ، ويقيننا بصدق دين الله وعظمة رسالة الإسلام التي يجب أن تقود العالم كله ، لأن فيها وحدها نجاته وسعادته فهي حاجة البشرية ومصدر سعادتها وقوتها ، ومصدر تعاون الشعوب على الحق .

٩ - **الجماعة المؤمنة والأُمة المسلمة الواحدة :** التي تربّي أَجيالها على صدق الولاء الأول لله . والعهد الأول مع الله ، والحب الأَكبر لله ولرسوله ، وليكون كل ولاء وعهد وحب نابعاً من الولاء الأول والعهد الأول والحب الأكبر. هذه الجماعة أو الأُمة الواحدة تربط أبناءها مع ربّهم وخالقهم ، وتربطهم كذلك مع منهاج الله ، وتوفّر وسائل الإشراف والرعاية ،

والإدارة والنظام، والتعهّد والبناء، مما يوفر ظروفاً أفضل للفهم والتدبر، والممارسة والتطبيق.

١٠ - **دراسة السيرة النبوية وحياة الصحابة والتاريخ الإسلامي**: إن دراسة هذا كله دراسة هادئة منهجية توفّر فرصة أوسع لتدبُّر منهاج الله، حين يرى المسلم النموذج الأمثل لتطبيق منهاج الله في سيرة النبيّ الخاتم محمد ﷺ، ونموذجاً أقرب إلى النموذج الأمثل في حياة الصحابة والخلفاء الراشدين. إن نموذج الممارسة والتطبيق يعطي فرصة أوسع للفهم والتدبّر.

١١ - **أئمة الإسلام الأعلام على مدى العصور**: سيظل التاريخ الإسلاميّ يقدّم للبشرية كلها نماذج رائعة من عبقريات المسلمين تتمثل في الأئمة الأعلام. وسيظل الصحابة هم النموذج الأول لهذه العبقريات، ويظل رسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة للمؤمنين كلهم. وجهود العلماء الأئمة تُرَدُّ إلى كتاب الله وسنة رسوله، كما بيّن لنا هؤلاء الأئمة أنفسهم، وكما بين لنا منهاج الله. وتظل هذه النماذج الرائعة في حياة الأُمة المسلمة نماذج متصلة مترابطة في التاريخ. وسيكون اختلاف هؤلاء الأعلام اختلافاً مباحاً، فيه سعة للمؤمنين ورحمة يسّرها الله بفضله. فاختلافهم لم يكن مصدر شقاق وافتراق بينهم، ولكن كان صورة عظيمة لامتداد عظمة الإسلام في الواقع البشري، ولتناسق الجهود وتكاملها، كما سنعرض فى صفحات مقبلة.

١٢ - **الممارسة الإيمانية والعمل**: ذلك لأن ممارسة منهاج الله في واقع الحياة، ورد الأُمور إلى منهاج الله تُكسب المسلم سَعَة في الزاد والخبرة مما يفتح له آفاقاً أوسع في فهم كتاب الله وممارسته وتطبيقه.

نهدف من هذا كله إلى أن يصبح منهاج الله هو الذي يصوغ فكر المؤمن وتصوراته وعاطفته، ويغذي إيمانه، ويرويه بالريّ الطاهر الغني، حتى تطمئنّ نفس المسلم وتخشع في روحانية صادقة.

سألتُ أحدهم لماذا تقرأ هذا الكتاب أو ذاك وتلحُّ في قراءته أكثر مما تتعهّد تلاوة كتاب الله ودراسته وتدبّره؟! فأجاب أقرأ هذا الكتاب لآخذ منه «الروحانيّة»! فسألته: عندما تتلو كتاب الله ألا تشعر بالروحانية التي تريدها؟! فصمت وأطرق يتفكّر.

وحدّثني شاب آخر أنه كان يُكثر من قراءة الكتب الفكرية، ليأخذ منها الفكر

والتصوّر و«الروحانية». وإذا مرّ في هذه الكتب على آيات أو أحاديث قفز عنها ولم يقرأها ولم يتدبّرْها، كأنها لاتمثل له شيئاً يجب أن يقف عنده، وكأن كلام الكاتب أو المؤلف أصبح عنده أهمّ من كلام الله.

كنت في مؤتمر. وكانت محاضرتي حول هذا النهج الذي يقوم على الركنين الأساسيين: المنهاج الرباني والواقع. وبعد انتهاء المحاضرة، جلست مع بعض الشباب الحاضرين أُجيب على بعض القضايا التي تثور في أذهانهم. وكان هنالك قضايا مهمة حقاً. ولكنّي فوجئت بشاب اقتحم المجلس وقال: يافلان! أأنت تطلب منّي أنا أن أقرأ القرآن؟! قلت: لا! لستُ أنا الذي يطلب منك هذا. أنا أُذكّرك فقط وأُبيّن لك ما أمر الله به ورسوله مع الأدلة من منهاج الله. ولكن لماذا سؤالك هذا؟! فقال: لأنه لايجوز لمثلي أن يقرأ القرآن فأنا من عامة الناس ولستُ من العلماء، وكتاب الله لايقرأه ولايفهمه إلا العلماء. فسألته: هل خلقك الله لتكون جاهلاً مع الجهلة، أليس بإمكانك أن تنهض بنفسك وترفع من قدرك بالعلم، لتبلغ الدرجة التي يسمح لك وسعك ببلوغها؟ ثم سألته: هل أنت تصلي؟ قال: «نعم»! قلت: أليس من الضروري أن تخشع في صلاتك؟! قال: نعم! قلت: ماذا تقرأ في الصلاة؟! قال: القرآن! قلت: أليس من الخشوع أن تتدبّر ماتقرأ من القرآن في الصلاة؟! فصمت وأطرق ثمّ ولّى وأدبر!

في دراستنا لواقعنا اليوم نجد أن علاقة المسلم بكتاب الله وسنة رسوله علاقة مضطربة. وأن هنالك نماذج شتى من الناس هجروا كتاب الله وسنة رسوله، وامتدت هذه النماذج حتى أصبحت تضم قطاعاً واسعاً من الأمة يلفّها الجهل القاتل.

وبعض الدعاة لايقدرون خطورة هذا الأمر في ميدان الدعوة الإسلامية، في كل ساحاتها: البلاغ والدعوة والتبيين، البناء والتربية، الجهاد في سبيل الله...!

كنت في مجلس يضمّ عدداً من الدُّعاة. وظهر لي أن أحدهم، وهو يحمل شهادة جامعية عالية، ضعيف الصلة بكتاب الله. فسألته على انفراد عن ذلك، فقال: إن الدعوة وأعباءها لاتترك لنا وقتاً لنقرأ في كتاب الله. سألته: هل تقرأ كتباً أُخرى؟! قال: أقرأ بعض الكتب الفكرية! سألته كذلك: عندما كنت تحضر لشهادتك الجامعية هل

منعتك أَعباء الـدعوة من الدراسـة للدكتوراة؟! أجـاب: طبعاً لا، وإلا كيف أَنجح؟!.
ثمّ حدثته ونصحت له وبيّنت أن دراسـة كتاب الله أهم من دراسته الجامعية، وأن النجاح عند الله أهم مـن النجاح في امتحانـات الجامعة، وأن الـدراسة الجامعيـة تصبح عبادة في ميزان الإسـلام عندما تـرتبط هذه الدراسـة الجامعية بدراسـة منهاج الله وبالـدعوة إلى الله ورسولـه وبالاهداف الثابتـة للدعوة الإسـلامية، ودراسة الكتب الفكـرية ليست أَهم من دراسـة كتاب الله، وكتـاب الله وسنـة رسولـه هما الزاد الأَول للـداعيـة في درب الدعـوة.
«والكتب الفكرية»، حين تنمو في بحثها، يجب أن تقدم نهجاً محدَّد المعالم واضح النظرية ينير السبيل. فلايصلح أن تبقى الكتب الفكـرية في ميـدان الدعوة الإسـلامية فكراً عـاماً فحسب. لا بـد للدراسـات المنهجية أَن تظهـر وتأخذ دورهـا العادل في ميـدان الدعـوة الإسلاميـة، وأن يكون من أهم مسئـوليات هذه الكتب المنهجيـة أن تلحَّ على المسلم بأن يعود إلى منهاج الله، كما كان يفعل أئمة المسلمين.

هـذه بعض التصـوّرات الخاطئة التي تتسلّـل إلى أذهان المسلمين من خـلال الهجـر الطويل لمنهـاج الله، ومن خلال الجهل الممتـد، ومن خلال مـا يطرحـه شياطين الإنس والجنّ من تصورات وأسئلة وجدل مريض.

يسأل بعضهم: هل حفظ كتـاب الله واستظهـاره، أو حفظ بعضه واستظهـاره، أو محاولة ذلك وبذل الجهد من أجله هو واجب فرض على كل مسلم؟!

لقد وضعنـا كتاباً كامـلاً هو: «دور المنهاج الربـاني في الدعوة الإسلاميـة» عن هذه القضايا وأَمثالها مما يتعلق بمسئوليات المسلم في الحيـاة الدنيا نحو كتاب الله وسنة رسوله، وبدور منهـاج الله في الدعوة الإسـلامية. ولقـد هدفنا بهذا الكتـاب وغيره إلى أَمرين: أَن يعود منهـاج الله ليؤدي اليوم الـدور الذي كان يؤديـه في مدرسة النبـوّة، وأَن نزيل اللبس والغموض اللذين يكتنفان أَسئلة كالاسئلة السابقة.

ولكثرة مايجادل بعضهم بهذا الأمر فلا بد من توضيح نقاط سريعة حول هذا الموضوع:

١ - كـان المسلمون في مـدرسـة النبـوّة لايسألون مثـل هذه الأَسئلـة التي تـوحي بأن صاحبهـا يريد أَن يتفلّتَ من الحفظ، ولكنهـم كانوا يتسـابقون إلى ذلك ويتنافسـون فيه،

دون أن يسألوا هل هو فرض أم واجب أم سنة أم غير ذلك .

٢ - إن الإجابة على الأسئلة السابقة لايعقل أن تكون بكلمة «نعم» أو «لا» . فإن الإجابة بهذه الكلمة أو تلك لا تقدم فقهاً حقيقيّاً ، ولاتساعد المسلم على معرفة حقيقة مسئولياته التي سيحاسبه الله عليها . ولقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتابنا «ذور المنهاج الرباني . . . » في الفصل الثاني من الباب الثاني : «الوسع والطاقة» . وذكرنا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن أعرابيا أتى النبي ﷺ فقال : «يارسول الله دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنّة» . قال : « تعبد الله ولاتشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان» . قال : «والذي نفسي بيده لاأزيد على هذا شيئاً أبداً ولا أُنقص منه» . فلما ولّى ، قال النبيّ ﷺ : «من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا» . [متفق عليه][1]

٣ - لايختلف اثنان بأن حفظ الكتاب واستظهاره قد يجد بعضهم فيه صعوبة . فقد وجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه صعوبة في ذلك . ولكن هذه الصعوبة لم تصدّه عن متابعة المحاولة ، ولم تدفعه ليسأل أيّاً من الأسئلة السابقة . لقد عرف مسئولياته في دين الله من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، فنهض لها ، وشكا الأمر إلى رسول الله ﷺ ، فعلمه دعاء حفظ القرآن الكريم ، ولم يقل له : مادمت تجد صعوبة فالأمر ليس بفرض فدعك منه . كلا! لم يقل له ذلك ، ولكن أعانه على متابعة المحاولة لحفظ كتاب الله في حدود وسعه وطاقته التي يحاسبه الله عليها .

٤ - فالقضية إذن من حيث المبدأ هي قضية «الوسع الصادق» الذي وهبه الله للإنسان ، لا «الوسع الكاذب» الذي يدّعيه المسلم أو يتوهمه من خلال أهوائه وجهله ، والذي يحاول أن يسوّغه بالجدل والنقاش الذي لن يفيده عند الله شيئاً . هي قضية الوسع الصادق الذي تبنى عليه التكاليف والمسئوليات ، والذي يحاسب الله عليه عبده يوم القيامة . إذن هي قضية الوسع الصادق ، وفي الوقت نفسه قضية المسئوليات التي يتصدّى لها المسلم . فالرسول ﷺ أجاب الأعرابي على أساس من هاتين القضيتين فكلفه :

---

(١) البخاري : كتاب (٢٤) ، باب(١) ، حديث (١٣٩٧) . مسلم : كتاب (١) ، باب (٤) ، حديث (١٤) .

بصـدق الإيمان ، وبأداء الشعـائر ، وهـو في قلب الصحراء بعيـداً عن المدينـة مع إبلـه أو غنمه . لم يكلفه في تلك المرحلة حتى بالجهاد ، ولابحفظ القرآن ، ولكن لم ينهه أيضاً ، فلو شاء فعل . وأجاب عليّ بن أبي طالب على أسـاس من هاتين القضيتين وعلّمه كيف يحفظ كتاب الله ، لا كيف يبحث عن الأعذار ليتفلّت من هذه المسئولية .

٥ - نحن نتحـدث إلى الدعـاة ، إلى جنـود الدعـوة الإسلاميـة ، إلى أبنـائها ، الـذين يعرفون مسئـولياتهم كلها ويتدرّبـون على النهوض لها والوفاء بها ، ولايسعـون إلى النكوص عنها . وكـذلك نتحدّث إلى كل مسلم يريد أن يصـدق الله ويعرف مسئولياتـه من خلال منهاج الله ، يسعى بذلك إلى النجاة في الدنيا والنجاة في الآخرة ، ولا يريد التفلّت منها ولا النكوص عنها . إنه يسير على درب ممدود إلى الجنّة ، فيأخذ بكل مايعينه على بلوغها .

٦ - إن الإقبال على كتـاب الله وسنة رسوله ﷺ ، الإقبـال على منهاج الله ، يهدف إلى تحقيق أمرين عظيمين مرتبطين أحدهما بالآخر هما :

أولاً : تدبّر منهاج الله ووعيه إيماناً وتصديقاً وعلماً .

ثانياً : ممارسة منهاج الله في الواقع .

وممارسـة منها ج الله ، وهي الهدف الأخير والغـاية الكبيرة ، تعتمـد في جملة مـاتعتمد عليه ، على التـدبُّر والفهم ، والوعي والعلم . يجب أن يصبح منهـاج الله في صدر المؤمن وعياً وعلماً ، لا ثقافة لنقاط مبعثرة وقضايـا مشتتة . ولتحقيق هذا النوع من التدبّر لابد من التزام النقـاط التي سبق ذكرهـا : يأخذ كل مسلم قـدر وسعه وطاقتـه ومسئوليتـه ، يأخذ أخذاً متكامـلاً لا أجزاء متفرّقة ، يأخـذ أخذاً منهجياً بعزيمـة وجهد ، أن يصاحب ذلك دراسة اللغة العربية والسنة ، ودراسة الواقع .

٧ - ولأجل تحقيق هذه الأهداف لابد من وضـع خُطة ونهج يساعد المسلم على تحقيق تلك الأهـداف . ولا بد من الاستفادة مـن إمكانات الـواقع ، على أن يكون ذلك كلـه من خلال منهاج الله .

٨- من أجل هذه الخطـة ، وعلى ضوء واقع المسلم اليـوم ، وما يعـانيه من ضعف في اللغة العربية ، وهجر طويل لمنهاج الله ، فلابدّ أن تكون الخطة ذات مراحل تنتقل بالمسلم

من مستوى إلى مستوى، على ضوء وسعه وطاقته وواقعه، ولابد أن تكون الخطة مرنة تطابق مختلف الطاقات والظروف. وأهم مايجب أن تشمله الخطة اعتماد التلاوة لكتاب الله بكامل شروطها، لتكون التلاوة أساساً لتيسير دراسة التفسير، ثم التفسير المبسط أولاً لتكون التلاوة والتفسير ممهّدين للحفظ والاستظهار وعاملاً رئيساً يساعد على التدبّر والوعي وحمل العلم، كل قدر وسعه وطاقته ومسئوليته. وفي كل خطوة من هذه الخطوات أجر عظيم عندالله. وعسى أن يتضاعف الأجر عندما تحقق كل خطوة هدفها. وتمشي خطوات التلاوة والتفسير والحفظ معاً في وقت واحد، وفق خُطة مقرّرة. فيصبح الحفظ اذن ضرورة للفهم الأوسع والتدبّر الأوعي والعلم الأدق. وهذه شروط لابد منها للداعية وكذلك لكل مسلم يطرق أَبواب الجنة، ويحمل زادها الحق على الدرب إليها. ولاننسى أَن مع الحفظ والاستظهار وخُطته، خطةً كذلك للتعهُّد والمراجعة. فإن كتاب الله يتفلت من ابن آدم، كتفلت الإبل من عقلها، كما جاء في الحديث الشريف.

٩ – ومن جملة ما يجب أن تهدف إليه الخطة كذلك هو تدريب المسلم على أن يتحمّل قسطه من المسئولية، وأن يعتمد على نفسه، لا أن يكون دائماً عالة على غيره، يحتاج أَن يُصَبَّ العلم في جوفه، كما يُصبّ الحليب في فم الرضيع.

يجب أَن لانقتل شخصية المسلم بشَلّ قدراته وعدم تدريبه على تحمل المسئولية، وفي الوقت نفسه يجب أَن ندرّبه على الانضباط بالنهج والخطة، وعدم التفلّت بالأهواء هنا وهناك، على أن يستفيد من إمكانات الأُمة.

١٠ – إن للعلماء دوراً يجب أَن يؤدوه، وللدعاة كذلك دورهم، ولجنود الدعوة أيضاً دورهم. ويجب أَن لايَشُلَّ دورُ إحدى هذه الفئات دورَ فئة أُخرى. فكلهم مسئولون. ويجب أَن تترابط هذه المسئوليات وتتناسق من خلال خُطة واعية تقوم على منهاج الله والواقع، وأَن تُعرَف هذه الخطة وتُقرَّ النظرية.

لقد يسّر الله القرآن للذكر، ويسّره لعباده المؤمنين كلهم على قدر مايصدق إيمانهم، وتجود لغتهم العربيّة وتقوى. لذلك يجب أَن لانضع العقبات والعثرات أمام مايسّره الله. فإذا وفّرنا للمسلم إمكانات عصرنا الحديث، فإنه سيجد اليسر كلّ اليسر بتدبّر منهاج الله، حاملاً قسطه من المسئولية، متناسقة مع مسئوليات غيره.

وفي جميع الحالات ستظل الإدارة والنظـام، والإشراف والمراقبة، والتـوجيـه والمتابعـة ضروريات هامة لنجاح أي خطة، والوفاء بأي مسئولية.

إن هذه الأمور كلها فصلنـاها بصورة واسعة في كتابي: دور المنهاج الـرباني في الدعوة الإسـلامية، ومنهج المؤمن بين العلم والتطبيق، مـع الأدلة الشرعيـة من الكتاب والسنـة على كل قضية نطرحها، ومع تفصيل النهج والخطة لذلك.

١١ – ولا بدّ أن نتذكـر أن من أهم أُسس التربية، بالإضافة لما ذكرنـاه، هو التدريب الواعي المنهجـي، التدريب الذي يقـوم كذلك على خطـة ونهج. وهذا التـدريب يحتاج أيضاً إلى إدارة ونظـام، وإشراف ومراقبة، وتوجيـه ومتابعة. وبغير ذلك يمـوت التدريب وتتفلّت التربية وينهار البناء.

١٢ – ومع هـذا وذاك يظلّ «التقــويم الـدوري» حـاجـة مـاســة لتطـويـر العمل والأسـاليب والـوسـائل، ولمراجعـة الأخطـاء وعـلاجهـا، وبنـاء النفـوس في عمل إيماني متواصل لايهدأ، حتى تظلّ الدعـوة الإسلامية تقدّم للساحة الأجيـال المؤمنة بعد الأجيال المؤمنة، الأجيال المؤمنة التي تعرف مسئولياتها وتنهض لها.

ونحاول الآن إيجاز القواعد والأسس في نقاط محددة:

١ – المجموعة الأولى:

أ – أن يأخذ كل مسلم من منهاج الله قدر وسعه ومسئوليته بنية صادقة وعزيمة وجد.

ب – أن يكون الأخذ صحبة عمر وحياة، صحبة منهجية.

جـ – أن يصاحب هذه الدراسة دراسة السنة واللغة العربية والواقع دراسة منهجية.

٢ – المجموعة الثانية:

تتألف دراسة منهـاج الله من حيث المبدأ حسب واقعنـا اليوم من التلاوة، والـدراسة والتدبر والتفسير، والحفظ، والمراجعـة، على أساس الالتزام بالمجمـوعة الأولى وشروطها. ثم تتغير حسب النمو والتطور في زاد المسلم وعلمه.

٣ - المجموعة الثالثة :

أ - صفاء الإيمان والتوحيد، وإتقان اللغـة العربية، وتفسير القرآن بعضه لبعض، وتفسير السنة والسيرة للقرآن.

ب - عدم تطبيق قوانين المشهد في الحياة الدنيا على نبأ الغيب.

جـ - الدراسة المنهجية.

د - ترك الروايات الإسرائيلية.

هـ - التحرر من أفكار الفلسفات المادية والمثالية الغربية والوثنية.

و - الجماعة المؤمنة والأُمة المسلمة الواحـدة التي تربي أجيالها على صدق الولاء الأول لله، والعهد الأول مع الله، والحب الأكبر لله ولرسـوله، وعلى أن يكون كل ولاء وعهدوحب في الحياة الدنيا نابعاً من الولاء الأول والعهد الأول والحب الأكبر.

ز - دراسة السيرة والصحابة والتاريخ الإسلامي.

ح - أئمة الإسلام الأَعلام.

ط - الاستفادة مـن إمكانـات الأُمة للمساعـدة في تحقيق سلامـة التدبّـر والتطبيق، وقيام المسلم بمسئولياته دون التفلت بالأعذار والأهواء.

الفصل الرابع

منهاج الله
والدعوة إلى الله ورسوله
إلى الإيمان والتوحيد

لهذه القضية العظيمة بعث الله الأنبياء والمرسلين، وهي الحقيقة التي فطر الله الناسَ عليها، وعليها يقوم صلاح الإنسان والشعوب والبشرية كلها. وبمقدار ماينحرف الناس عنها تضطرب أمورهم بما كسبته أيديهم، ويمتدّ الفساد في الأرض، وتنتشر الحروب والمجازر، ويعظم الخوف والقلق، ويذهب الأمن، ويغيب العدل، وينزل عذاب الله وعقابه.

لأجل هذه القضية جاء المنهاج الربّاني أولاً. جاء المنهاج الربّاني وحياً من عند الله ليعرض هذه القضية، وليوضح للناس كافّة أنها هي أخطر قضية في حياة كلّ إنسان، وأنها هي الحقيقة الكبرى في الكون، منها تنبثق أي حقائق أُخرى، وبها ترتبط، لتكون هذه الحقائق خيراً وصلاحاً فإذا انفصلت عنها انقلبت فتنة وفساداً وشرّاً عظيماً.

لقد أَوضحنا هذه القضية وما يرتبط بها من قضايا أُخرى: كالولاء، والعهد، والنيّة، والحوافز الإيمانية والخشوع، وغير ذلك من القضايا، في كتب الدعوة. ربما يظنّ بعضهم أن كلّ كتاب من كتب الدعوة يجب أن يعرض كلّ شيء. فلو قرأ كتاب: «منهج المؤمن بين العلم والتطبيق»، وقرأ ما ورد في بعض صفحات منه عن الإيمان والتوحيد والدعوة لهما، لتعجّل وقال: صفحات قليلة عن هذا الموضوع الخطير لاتكفي. أو قال: أَيُتْرَك للداعية أن يختار الآيات والأحاديث وحده. وغاب عن بال من يقول ذلك أن هذه الصفحات هنا وردت لتُحدِّد مرحلةً يمضي بها الداعية أو خطوة يقوم بها. إنها تُحدِّد الخطوط العامة لهذه المرحلة أو الخطوة، مع تحديد المراحل الأُخرى قبلها وبعدها. وهذه الخطوات والمراحل هي للداعية الذي يمرّ في دعوته بمراحل الإعداد والتدريب، ليحمل من خلال ذلك الزّادَ الذي يحتاجه في طريقه وهو يبلّغ الناس دعوة الله ورسالته لعباده.

فهذه الصفحة والصفحات لاتتحدّث عن تفصيل قضية التوحيد، ولا عن تفصيل الزاد الذي يجب أن يحمله في طريقه، ولا مناهج التدريب التي يمرّ بها الداعية قبل أن يدعو ويبلغ، وقبل أن يتعهّد ويربي. هذه القضايا كلها معروضة في مكانها المناسب في كتب الدعوة، وكلّ قضيّة تأخذ قدرها العادل في مكانها العادل، مع محاولة الإعادة والتكرار والتذكير بالقضايا المهمة هنا وهناك بين حين وآخر، ليساعد هذا التذكير والتكرار على ربط القضايا المطروحة وتناسقها. ولذلك تجد في الكتاب نفسه في فصل: منازل المؤمنين بين الحقوق والواجبات عرضاً موجزاً لقضية الإيمان كوسيلة لمعالجة النفس البشرية، ثم نجد كلمة أوسع في الفصل نفسه تحت عنوان الإيمان والتقوى كأساس رئيس لميزان أمين في تحديد منازل المؤمنين، مع سائر الأُسس كالعلم والقرآن، والفطرة والمعدن، والخبرة والمران، والحكمة والحجة، والبذل والجهاد، والسنّ والشيبة، والقوة والعزيمة، وغير ذلك.

لذلك نعرض قضية الإيمان والتوحيد والدعوة لهما بالقدر المناسب مع كل موضوع مطروح، لنبيّن أَن هذه القضية هي أَساس القضايا الأُخرى كلها، وأَن كل قضية نطرحها يجب أن ترتبط بقضية الإيمان والتوحيد. ففي كتاب دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية نعرض قضية الإيمان والتوحيد في أَكثر من موضع، ولكننا جعلنا باباً خاصّاً كاملاً، هو الباب الثالث بعنوان: في ميدان الدعوة إلى الله ورسوله، ليحقق هذا الباب تكامل بحث دور المنهاج الرباني.

وفي كتاب لقاء المؤمنين الجزء الثاني، حيث نعرض أَهداف الدعوة الإسلامية، الهدف الأَكبر والأسمى، والأَهداف الثابتة، والأهداف المرحلية، كان الهدف الثابت الأول هو: الدعوة إلى الله ورسوله، استغرق الباب الثاني كله. وكذلك كانت ترد قضية الإيمان والتوحيد مع سائر الأهداف الأُخرى لنبيّن أهمية ارتباط الأهداف كلها بالهدف الأَكبر والأَسمى وبقضية الإيمان والتوحيد. وهكذا يمضي عرض هذه القضية في معظم كتب الدعوة.

ولم نَقِفْ عند هذا الحدّ في دراسة هذه القضية. فقد جعلنا كتاباً خاصاً تُدرس فيه هذه القضيَّة بعنوان: «التوحيد وواقعنا المعاصر». ثمّ أَخذنا قضايا التوحيد المضطربة في واقعنا المعاصر، وجعلنا لكل قضية كتاباً مستقلاً مثل: الولاء، العهد والبيعة، النيّة،

الحوافز الإيمانية، الخشوع، وغير ذلك. وكان هدف هذه الكتب أو أحد أهدافها الرئيسة وضع أُسس الإعداد والتدريب ومناهجها من خلال منهج عام متكامل ونظرية عامة متكاملة. فالتدريب والإعداد جزء رئيس من منهج الدعوة وخطتها، ولابدّ أن تُوضَع له مناهج ودراسات وأبحاث لتلبّي حاجات واقعنا اليوم.

فلم نقصد من كتابنا «التوحيد وواقعنا المعاصر» أن نعرض قضية الإيمان والتوحيد عرضاً كاملاً ليصبح هذا الكتاب أو غيره المرجع الأوّل لدراسة قضية التوحيد. كلاّ! لم نقصد هذا، لأن هذا التصوّر يخالف النظرية والمنهج الذي ندعو له. إذن ماهو القصد من هذا الكتاب، أو من كتاب العهد والبيعة، أو الولاء، أو النيّة، أو غير ذلك؟!

القصد الذي نهدف إليه هو أن نبيّن فيه أنَّ المصدر الحقَّ الأوفى الذي يعرض هذه القضية عرضاً كاملاً مفصّلاً من جميع جوانبها، وبالقدر الذي تحتاجه البشرية، هو منهاج الله -قرآناً وسنة- كما جاءا باللغة العربية. وأن هذا العرض هو عرض معجز لايستطيع أَحد من البشر أن يبلغه أبداً. وهو معجز ببيانه وأسلوبه وحقائقه التي لايأتيها الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهو معجز كذلك بتناسقه وترابط موضوعاته وتكاملها لتمثّل كلها جلال المنهاج الربّاني، وارتباط جميع القضايا فيه بقضية الإيمان والتوحيد، سواء في ذلك الأحكام والحدود والتشريع كله، والقصص، والأخلاق، والمعاملات وغير ذلك. وهو معجز كذلك بأنه المصدر الحق المتكامل المتناسق الوحيد الذي يصلح لكل زمان ومكان.

ولذلك يصبح من أهداف هذا الكتاب - «التوحيد وواقعنا المعاصر» - دفع النّاس إلى دراسة منهاج الله للأسباب المذكورة أعلاه، وكذلك لأنّ الله أمر بذلك، ولأن منهاج الله أنزله الله ربّ العالمين لأجل هذه القضية الأُولى!.

ويصبح من أهداف الكتاب أيضاً أن نقدّم قبسات من منهاج الله لتبيّن طرفاً من الإعجاز الذي ذكرناه، للتذكير وإعادة التذكير.

ويصبح من أهدافه أيضاً دراسة أهم الانحرافات عن الإيمان والتوحيد في واقعنا اليوم، من خلال منهاج الله، ووضع أهم الوسائل لمعالجة هذه الانحرافات، الوسائل

النابعة من منهاج الله والتي يتطلبها واقعنا اليوم.

ويصبح من أهدافه وضع النهج والخطة العملية اللازمة للداعية ليبلّغ دعوة الله ورسالته للناس، ولتقوم هذه الخطة على الركنين الأساسيين من النظرية العامة، أو على الأُسس الأربعة منها. ونذكر هنا بالركنين المعنيّين وهما: المنهاج الرّباني والواقع. فعليهما معاً يقوم كل نهج وتخطيط.

لهذا كله نريد أن نؤكد أن الدعوة إلى قضية الإيمان والتوحيد يجب أن تعتمد أولاً على الكتاب والسنة، وأن يكون أي مصدر آخر مهمته أن يعين على اعتماد الكتاب والسنة لا أن يكون بديلاً عنهما، وأن يُوفر العناصر اللازمة لذلك، وأن يذكر بما أمر الله به، وأن يضع النهج والخطة العملية للدعوة والبلاغ والتربية والبناء في واقعنا اليوم.

فمصدرنا إذن لدعوة الناس إلى الله ورسوله، إلى الإيمان والتوحيد هو منهاج الله-قرآناً وسنة-، وعلى ذلك نعِدُّ الدعاة وندرّبهم، ليستفيدو من أجل هذا الهدف من جهود العلماء والسلف الصالح بما يفيد هذه القضية، دون أن نجعل أيّ مصدر بديلاً عن منهاج الله. نريد أن ندرّب المسلم كيف يتلو ويدرس ويحفظ الكتاب والسنة، لا لمجرد التلاوة والدراسة والحفظ، ولكن ليتحول هذا الجهد كله إلى إيمان وتوحيد ويقين بإذن الله، وإلى ممارسة وتطبيق لقواعد منهاج الله في الواقع، من خلال: نهج وخطة، وتدريب وإعداد، ومراقبة وإشراف، وإدارة وتنظيم، وجهد متواصل لايكل وإلى دعوة منهجية واعية إلى الله ورسوله، إلى الإيمان والتوحيد. هكذا نفهم الدعوة الإسلامية. !

لقد هجر بعض الناس عامة، وبعض الدعاة خاصة، منهاج الله، واعتمدوا بدلاً من ذلك مصادر بشرية، حتى لو حفظ أحدهم القرآن كله، يظل مصدر حجته ودليله هذا المصدر وذاك، وليس الكتاب والسنة. ويظلّ ولاؤه الأول لهذا أو ذاك، وليس لله ولرسوله، وليس لمنهاج الله. نقول بعضهم وليس جميعهم!

حين يَتَحدث بعض الناس عن قضايا الإسلام والمسلمين، يقولون هذه قضية سياسية لاعلاقة لمنهاج الله فيها، أو اقتصادية، أو اجتماعية، ولذلك ندرسها على ضوء أبحاث العلماء ودراساتهم فقط. فيعزلون بذلك منهاج الله ويهجرونه، أو يعزلون القضايا

عن منهاج الله ويفصلونها . وهم بذلك مخطئون خطأً فادحاً كبيراً . ولكن الخطأ أكبر حين يُريد بعضهم عزل قضيّة الإيمان والتوحيد عن منهاج الله ، واستبدال مصادر بشرية أُخرى به ، ليصبح منهاج الله للتبرك والإذاعات والمآتم والمؤتمرات وافتتاح الجلسات وغير ذلك . وما جاء منهاج الله إلا لهذه القضية الأساسية .

إننا نؤمن كذلك أن أُسلوب مخاطبة الناس وأنت تدعوهم إلى الإيمان والتوحيد ، يجب أن يختلف من واقع لواقع ، ومن زمن لزمن . ولا يوجد لدى البشرية مصدر يصلح لمخاطبة الناس في جميع العصور وفي جميع الظروف وفي جميع المواقع إلا مصدر واحد هو منهاج الله -قرآنا وسنة- .

إن أُسلوب منهاج الله أُسلوب معجز يصلح لجميع الأماكن والأزمنة والشعوب . وما عدا ذلك فهو جهد بشري يخاطب واقعاً محدوداً في زمن محدود ، ولا يستطيع أن يرقى من حيث التكامل والتناسق والأُسلوب إلى منهاج الله ليخاطب العصور كلها والشعوب كلها .

لقد وضع بعض علمائنا وأئمتنا دراسات حول الإيمان والتوحيد ، خاطبوا بها قومهم وعصرهم من خلال ما كان يشكو ذلك العصر. والخطاب كان يخضع لأُسلوب ذلك العصر. ولكن تظل الجهود الصادقة من علمائنا وأئمتنا خيراً ممتداً يستفيد منه العاملون ، لتتواصل الجهود البشريّة المؤمنة الصادقة ، ولتنمو وتتطور ، دون أن تجمد وتموت .

حين ندعو نحن اليوم إلى هذا النهج الذي عرضناه نكون قد اتبعنا سنة رسول الله ﷺ. فقد دعا النبيّ الخاتم «الأُميين» ، الذي كان معظمهم لايحسن القراءة والكتابة ، دعاهم إلى الإيمان والتوحيد بمنهاج الله ، ولم يكن هنالك مصدر آخر لدى الناس . وكانت الدعوة تتمُّ بمنهاج الله ، في المساجد والبيوت وفي لقاءات المؤمنين وجهادهم وتنقلهم .

وهكذا كانت سنة صحابة رسول الله ﷺ ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، وكذلك كانت سنة السلف الصالح وعلماء الإسلام وأئمته مدى القرون كلها ، ولنسمع إلى مايقوله السلف الصالح :

يقول الإمام أبو حنيفة : «إذا صح الحديث فهو مذهبي . لايحلّ لأحد أن يأخذ بقولنا الا أن يعلم من أين أخذناه» ، «حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي . فإننا بشر

نقول اليوم ونرجع غداً . » «إذا قلت قولاً يخالف كتاب الله وخبر الرسول فاتركوا قولي» .

ويقول الامام مالك بن أنس : « إنما أنا بشر أُخطيء وأُصيب . فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه ، وكلّ مالم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه» .

ويقول الإمام الشافعي : «ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة رسول الله ﷺ وتعزب عنه . فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله خلاف ماقلت ، فالقول ما قال رسول الله ﷺ وهو قولي : «إذا صح الحديث فهو مذهبي» إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا ماقلت» .

ويقول الإمام أحمد : «لاتقلّدني ولا تقلّد مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري ، وخذ من حيث أَخذوا» .

وقبل ذلك كله قال الله سبحانه وتعالى :

﴿اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكّرون﴾ [الأعراف : ٣]

وقال رسول الله ﷺ :

«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسوله ﷺ» .

[رواه مالك][1]

هذا هو أمر الله ، وأمر رسوله ، ومنهج السلف الصالح على مدى القرون كلها وخلاصة ذلك كله أَننا ندعو اليوم دعوة واضحة صريحة ليعود منهاج الله –قرآناً وسنة– كما جاءا باللغة العربية ، ليؤدّي الدور الذي كان يؤديه في مدرسة النبوة ، وأَن تكون جميع المصادر البشرية الأُخرى خادمة لمنهاج الله ، ومساعدة على تحقيق هذا الأمر ، وأن يخضع ذلك كله إلى عمل منهجيّ مدروس ، وخطة عملية ، وأن يقوم هذا كله على الركنين الأساسيين : منهاج الله والواقع ، وعلى الأسس الأربعة : الإيمان والتوحيد ، منهاج الله ، الواقع ، الممارسة الإيمانية . وذلك لبناء الأَجيال المؤمنة التي تلتقي في أُمة واحدة ، في لقاء المؤمنين الصادقين ، موكباً ممتداً مع الدهر .

---

(١) موطأ مالك . حديث رقم (١٦١٩) .

الفصل الخامس

السلف الصالح
مع آيات كريمة وأحاديث شريفة

﴿ والسابقون الأوّلون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنّات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ [التوبة : ١٠٠]

وعن عمران بن حصين قال، قال رسول الله ﷺ : «**خير أُمتي القرن الذي بُعثتُ فيهم ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم والله أعلم ذكر الثالث أم لا، ثم يظهر قوم يشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويخونون ولا يؤتمنون، ويفشو بينهم السمن**». [رواه أبو داود][1]

لقد كان من فضل الله تعالى على الأمة المسلمة أَن جعل منها أئمة أعلاماً في تاريخها الطويل. لاتكاد تخلو فترة إلا ويُخرج الله منها عالم، سواء في فترات العزّة والنصر، أم في فترات الهزيمة والهوان. ويكون من أَجَلِّ مايقوم به هؤلاء العلماء أنهم يدعون الناس إلى الله ورسوله، إلى الإيمان والتوحيد، ويتعهّدون المؤمنين، ويقودونهم في ميادين العلم والجهاد، ليكونوا القدوة الصالحة للناس، والشعلة التي تضيء الظلمات، ولتظل أمة الإسلام خير أُمة أُخرجت للناس تؤمن بالله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر :

﴿ كنتم خير أُمة أُخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم .... ﴾ [آل عمران : ١١٠]

لن تكون هذه الأُمة خير أُمة أُخرجت للناس بجنسها أَو دمها، ولكنها تكون خير أُمة أُخرجت للنَّاس برسالة الله التي تحملها للناس كافة، بعد أن خُتمت النبّوة بمحمد ﷺ . هي أُمة التوحيد ورسالته الخاتمة، تجدد الدعوة على مرّ الزمان بتجدد الأئمة الأعلام والمؤمنين الصالحين والطائفة الظاهرة التي لاتغيب عن الأرض أبداً .

---

(١) أبو داود : كتاب (٣٤)، باب (١٠) حديث (٤٦٥٧)

هؤلاء الأئمة الأعـلام ، من أهم حقائقهم أنهم يتمسكون بكتاب الله وسنة رسـوله إيماناً وعلماً وممـارسـة ، يَـرُدّون إليهما كل أمـور النـاس ، وتظل وصيَّتهم للنـاس خـذوا من حيث أخـذنـا ، ولا تأخذوا بـرأينـا حتى تعـرفوا دليلنـا ، وإذا وجـد الحديث فـدعوا رأينـا وخـذوا بالحديث .

وهـؤلاء الأئمة الأعـلام يبتدئون بـالخلفاء الـراشدين وبصحـابة رسـول الله ﷺ ، ثم بالأئمة التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

﴿ والسابقـون الأولون من المهاجـرين والأنصار والذين اتبعـوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضـوا عنه وأعـدّ لهم جَنّات تجري من تحتهـا الأنهار خالـدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ [التوبة : ١٠٠]

ويستعرض القرآن الكريم امتداد الأجيال المؤمنة في الواقع البشريّ مع الزمن في سورة الحشر .

﴿ للفقراء المهاجـرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأمـوالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسـوله أولئك هم الصادقون* والـذين تبوّأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبّـون من هاجـر إليهم ولايجدون في صدورهم حـاجة ممـا أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كـان بهم خصاصة ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون *والـذين جاءوا من بعدهم يقولـون ربنا اغفر لنا ولإخواننـا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾

[الحشر : ٨ - ١٠]

هذه الآيات الكـريمة نزلت بمنـاسبة بيان حقوق الـرسول ﷺ والمسلمين فيما أفاء الله على رسوله . ولكنها في الوقت نفسه تمثل امتداد الأجيال المؤمنة مع الزمن كله .

ويأتي حديث رسول الله ﷺ يبيّن لنـا امتداد الطائفة الظاهرة في الـزمن كله حتى تقوم الساعة . وأهم خصـائص هذه الطائفة كما هي واردة في الروايـات الصحيحة للحديث : ظاهرة بـالحق متمسكة به ، قوّامة على أمـر الله وما أمر الله إلا كتابـه وسنة نبيه ، لايضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم ، يقاتلون على الحق ، لايساومون ولايتنازلون عنه .

ويذكـر الألباني هذا الحديث في صحيح الجامع الصغير وزيادتـه في عشر روايات ، كل رواية تضيف ظلاً جديداً تتماسك به الأحـاديث كلها ، لتؤكد هذه الحقيقة . ونكتفي هنا بذكر روايتين لهذا الحديث نفسه :

فعن أبي هريرة عن الرسول قال : « **لاتزال طائفة من أُمتي قوامة على أمر الله لايضرّها من خالفها** . » [رواه ابن ماجه] [1]

وعن جابر عن الرسول ﷺ قال : «**لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يـوم القيامـة ، فينـزل عيسى بن مـريم فيقـول أميرهم : تعالى صـل لنا فيقـول : لا إن بعضكم على بعض أمير تكرمه لهذه الأمة** » [رواه أحمد ومسلم] [2]

ونلاحظ هنا من الخصائص أموراً مهمـة : قوّامة على أمر الله أي متمسكة بكتاب الله وسنـة رسولـه إيمانـاً وعلماً وتطبيقاً ودعـوة النـاس إليه ، لتتعهـدهم عليـه ، ولتمضي مع الـزمن : دعوة وتعهـداً وأجيالاً تتـوالى بهذه الخصائص ، ثم هي تقـاتل على الحق ، لنشر دين الله ودعوة الناس إلى الإيمان والتـوحيد . إنه قتال متميّز في تاريخ البشريـة كلها . إنه ليس لأجل النهب والعدوان والظلم . كلا ! إنه قتال على الحق ! .

في هذه الأجيال المؤمنـة الممتدة على مدار التاريخ يظهـر الأئمة الأعلام يدعـون إلى الله ورسوله ، يذكرون الناس بالحق ، يتمسكون بمنهاج الله وبالدعوة إليه ، ويقودون الناس إلى صراط مستقيم .

فهل الخير وظهـور الأئمـة الأعلام مقصـور على زمن محدد ، أو قـرن محدود ؟ ! وهل التفاضل بين هؤلاء الأعـلام يكون على أساس القرن الذي ظهروا فيـه ، وكلّما تقدّم الزمان والقرون هبط مستوى الأئمة الأعلام لسبب واحد أنهم تأخّروا في الظهور ؟ !

لانعتقـد ذلك إلا بحق صحـابـة رسـول الله ﷺ . ذلك لأن النصّ ورد في تفضيلهم لصحبتهم لرسول الله ﷺ .

فعن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال : « **لاتسبوا أصحابي فوالـذي نفسي بيده لو أن أحدكم انفق مثل أُحد ذهباً ، مابلغ مدّ أحدهم ولانصيفه** » [3]

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني : (رقم : ٧٢٩١) .
(٢) المرجع السابق حديث (رقم : ٧٢٩٣) .
(٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته : حديث (رقم : ٧٣١٠) وقال الألباني : رواه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد ، ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة .

ونعتقد أن كلمة «الصحابة» في هذا الحديث الشريف تعني الطبقة الأولى من الصحابة الذين حملوا أعباء الدعوة بذلوا لها وثبتوا على الحق، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وسائر من بشرهم رسول الله ﷺ بالجنّة أو ذكر فضلهم في أحاديثه الشريفة، فثبت بذلك لهم الفضل.

فقد حسم هذا الحديث الشريف هذه القضية بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم. ولكن بالنسبة لسائر أئمة المسلمين بعد ذلك لايقوم التفاضل بينهم على أساس القرن الذي ظهروا فيه. ولذلك جاءت الآية الكريمة في سورة التوبة لتجعل للصحابة الذين سبقوا بصُحبة النبوة الخاتمة من المهاجرين والأنصار مرتبة خاصة، ثم جعلت للتابعين على مر الزمان مرتبة أُخرى، دون أن تفرّق بينهم حسب الزمان أو المكان.

وقد يثور لدى بعض الناس لبس وإشكال في هذا المعنى الذي قدّمناه، حين يدرسون الأحاديث الشريفة التي وردت حول خير القرون وأنها قرن النبوة، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وهكذا. ولا نرى أن هنالك لبساً أو تعارضاً بين هذه الأحاديث الشريفة الصحيحة وبين ماذكرناه. ولنوضح الأمر نورد بعض هذه الأحاديث المتعلقة بتفضيل قرن على قرن:

فعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: **« خير أُمتي القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، والله أعلم ذكر الثالث أو لا، ثم يظهر قوم يشهدون ولايستَشهدون، وينذرون ولايوفون، ويخونون ولا يؤتمنون، ويفشو بينهم السمن »**
[رواه أبو داود] [١]

وعند مسلم عن عمران بن حصين يأتي الحديث هكذا: **« إن خيركم قرني ثم الذين يلونهم . . . . »**[٢] وفي رواية أخرى عنده: **« خير هذه الأُمة . . . . »**[٣]

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت سأل رجل النبي ﷺ: **« أي الناس خير؟! قال: القرن الذي أنا فيه ثم الثاني ثم الثالث »**[٤]

وعند الترمذي عن عبدالله بن مسعود: **« خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم يأتي**

---

(١) أبوداود : كتاب (٣٤)، باب (١٠) حديث (٤٦٥٧).
(٢، ٣، ٤) : عند مسلم: كتاب فضائل الصحابة (٤٤) حديث (٣٥٣٥)، وحديث (٢٥٣٥).

قوم بعد ذلك تسبق أيمانهم شهادتهم أو شهادتهم أيمانهم »[1] وعنده أيضاً عن عمران بن حصين : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . . »[2]

وعنده عن هلال بن يساف عن عمران بن حصين كذلك : « خير أمتي القرن الذي بُعثت فيهم . . . »[3] وعنده كذلك عن عمران بن حصين : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثلاثاً ثم يجيء قوم يتسمّنون ويحبّون السمن ، يعطون الشهادة قبل أن يُسألوها »[4]. وعنده أيضاً عن عمر بن الخطاب : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل ولايستشهد ويحلف ولا يستحلف »[5].

فمن هذه الأحاديث نرى أن موضوع الأحاديث ليس المقارنة بين علماء الإسلام وأئمتهم ، وانما هي مقارنة بين الناس عامة في كل قرن بين أوضاعهم وسلوكهم . فلقد جاء مطلع هذه الأحاديث : خير أُمتي . . . ، إن خيركم . . ، خير هذه الأُمة ، أي الناس خير ؟ قال : القرن الذي أنا فيه ثم الثاني ثم الثالث ، خير الناس . . ، خير أُمتي ، خير الناس ، خير الناس !

فالحديث كما نفهمه من مطلعه يتحدث عن الناس عامة ، عن الأمة المسلمة بعامة ، عن أُمة محمد ﷺ . ويؤيد هذا أن تتمة الأحاديث لاتتكلم عن العلماء بل عن سلوك عامة الناس : يشهدون ولا يُستشهدون ، وينذرون ولايوفون ، ويخونون ولايؤتمنون ، ويفشو بينهم السمن ، ويحلفون ولا يُستحلفون ، تسبق أيمانهم شهادتهم ، يتسمنون ويحبون السمن ، ثم يفشو الكذب . . . ! هذه القضايا والموضوعات تمس واقع الناس ، تمس عامة المسلمين ، ولاتتعلق بالعلماء .

فالاستشهاد بهذه الأحاديث على أن خير العلماء والأئمة هم أولئك الذين كانوا في عصر النبوة ، ثم يليهم مرتبة التابعون ، ثم يليهم تابعو التابعين ، هذا الاستشهاد بهذه الأحاديث الشريفة لايصح . أما تفضيل أئمة الصحابة على غيرهم من أئمة الإسلام فهذا ثابت بنصّ الحديث الشريف الذي ذكرناه قبل قليل .

ونعيد هنا ماذكرناه قبل قليل من سورة التوبة الآية : ﴿ والسابقون الأولون من

(١ ، ٢ ، ٣) : الترمذي : أحاديث رقم : ٣٨٥٨ ، ٢٢٢٢ ، ٢٢٢٣ .
(٤ ، ٥) الترمذي : أحاديث رقم : ٢٣٠٣ ، ٢٣٠٤ .

المهاجرين والأنصار ... ﴾ فهؤلاء الـذين سبقوا بالإيمان ، وبصحبة النبي ﷺ يكـوّنون المرتبة الأُولى . ثم تأتي المرتبة الثانية : ﴿ **والذين اتبعوهم بإحسان ...** ﴾ دون أن تحدد الآية تفضيل قرن على قرن .

وكذلك نذكّر هنـا بالآيات من سورة الحشر التي ذكرناهـا قبل قليل ، ومنها يتبيّن لنا كيف أن المهـاجرين والأنصـار كانـوا هم السابقين . ثم تجمع الآيـة من تلاهم في أجيـال مؤمنـة مترابطة ، لاتجعل الأية بينهم تفـاضلاً : ﴿ **والذين جاءوا من بعـدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ...** ﴾ .

فبين أَئمة الصحابة وبين من تبعهم بإحسان تظل مـرتبة أئمة الصحابة أعلى لسبقهم بـالإيمان ومـاتبع ذلك من صحبـة للنبيّ ﷺ والـوحي يتنـزل ، ولمشـاهـداتهم الأحـداث والوقائع ومعاناتهم فيها وبذلهم لها ، وبفضل من الله خصَّهم به بالآيات والأحاديث !

لذلك لانرى أن الأئمـة الاعلام في القرنين الثاني والثالث يُفَضَّلـون بسبب هذا الزمن السـابق أو ذاك ، ولكن يبقى التفـاضل ميـدان تنـافس بين المؤمنين في طـاعـة الله ، وبما وهب الله لهذا أو ذاك من فضل ومـوهبة ونعمة لم يقصرهـا سبحانه وتعـالى بعد قـرن النبوة على عصر دون عصر .

ولكن يظل واقع النـاس عـامة يسـوء على أسـاس من ميزان الله ، من ميـزان الإيمان والتقوى والعمل الصـالح ، حتى تقوم الساعـة على شرار الخلق . يتخلل كل عصر أئمة أعلام ، وطـائفة ظاهرة ، وبـذل وجهاد ، يقلّ في عصر ، وينمو في عصر آخـر ، ولكنه يظل ممتدّا متصـلاً إلى يوم القيـامة ، لتظل الحياة الـدنيا دار ابتـلاء وتمحيص ، وسباق إلى الخير ، وتنافس في التقوى والبذل ، والعلم الصادق ، والوعي والممارسة والتطبيق .

فإذا قصـدنا بـالسلف الصـالح الأئمـة الأَعلام ، فإنهم أولاً الأئمـة زمن النبـوة من صحابـة رسول الله على منـازلهم التي ينزلهم إيـاها الله ورسـوله ، ثم بعـد ذلك الأئمة على مـدى العصور والأجيـال ممن سبقـونـا ، لاتفاضل بينهم بـالسبق الـزمني إذ لا دليل على ذلك ، ولكن يظل التفـاضل الحقّ بـالتقـوى والعلم والعمل ، على أساس ميـزان منهـاج الله ، ميزان المؤمنين الذي يوزن به الناس في جميع العصور والأجيال .

لابد للناس من مرجع يعودون إليه عند اضطراب الفكر واختلاف الرأي . فأول مرجع حدّدَه الله لنا هو منهاج الله - قرآناً وسنة ولغة عربية :

﴿ يـاأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ [النساء : ٥٩]

ويتأكد هذا المعنى بآية أخرى من سورة النساء :

﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا ﴾ [النساء : ٨٢]

إنه منهاج الله ، الوحي الذي أوحى الله به إلى رسوله ، والذي يقوم أولو الأمر بتنفيذه وتطبيقه . إنهم **﴿ أولو الأمر منهم ﴾** ، أي من المؤمنين الذين يخضعون لمنهاج الله ، فيسمعون على ضوء ذلك ويطيعون الله ورسوله وأولي الأمر من المؤمنين .

ويتأكد هذا كذلك بآية أخرى من سورة النساء :

﴿ فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ [النساء : ٦٥]

ويؤكد هذا كله الآية من سورة الأعراف :

﴿ اتبعوا ماأنزل إليكم من ربكم ولاتتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون ﴾

[الأعراف : ٣]

ويظل الصحابة رضي الله عنهم وأئمة الإسلام الأعلام يؤكدون للناس هذه الحقيقة العظيمة على مدار الزمان . فمنهم من يقول : « لايحل لأحد أن يأخذ بقولنا إلا أن يعلم من أين أخذناه » إمام يقول : «حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي فإننا بشر نقول اليوم ونرجع غداً » وآخر يقول : « إنما أنا بشر أخطىء وأصيب . فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه وكل مالم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه » وما كان

لإمام عالم أن يقول في الإسلام غير ذلك .

ولكن بعض الناس ينحرفون ليجعلوا من العلماء مايزاحم مرتبة الأنبياء ، ولقولهم منزلة كمنزلة الكتاب والسنة . وذلك مافعله اليهود والنصارى مع رهبانهم وأحبارهم :

﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وماأمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله الا هو سبحانه عما يُشركون ﴾ [التوبة : ٣١]

فإذا كان منهاج الله هو مرجع الناس جميعا فلا بد أن يكون الله قد يسّره للمؤمنين الصادقين ليأخذ كل منهم قدر وسعه الذي وهبه الله إياه ، والذي سيحاسبه عليه ، قدر وسعه الصادق .

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ [القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠]

وسيظل منهاج الله ميسّراً للذكر على مدى الزمن كله لمن أراد أن ينهض لمسئولياته التي كلفه الله بها . وكان من رحمة الله أن جعل تيسير القرآن للذكر نابعاً برحمة الله من قضايا نصّ عليها القرآن الكريم والسنة النبوية نوجزها هنا بنقاط محدودة :

١ - الإيمان وصفاؤه .

٢ - اللغة العربية وإتقانها .

٣ - القرآن يفسر بعضه بعضاً .

٤ - السنة تفسر القرآن وتبيّنه ، وكذلك سيرة النبوة الخاتمة .

٥ - الاستعانة بامكانات كل عصر للتغلب على نواحي الضعف ، من ضعف من اللغة أو ضعف الإيمان كالاستعانة بالعلماء ، والاستفادة من المعاهد والمساجد والكتب وغير ذلك .

٦ - المداومة على مصاحبة منهاج الله صحبة عمر وحياة ، صحبة منهجية ترافقها الممارسة اوالتدريب عليها في الواقع .

٧ - اتباع سنة الرسول ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، ومن هذه السنة جميع

النقاط التي سبق ذكرها .

أما اتباع هذه السنة فهي أمر رسول الله ﷺ في حديثه الشريف :

فعن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب . فقال رجل : إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يارسول الله ؟ قال : « **أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبد حبشي . فإنه من يعش منكم يرَ اختلافاً كثيراً . وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة فمن أدركَ ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ** »

[رواه أبوداود والترمذي وابن ماجه] (١)

إذن هذا هو النهج ، هذه هي سنة الرسول ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين ولقد كانت هذه السنة مبيّنة في كتاب الله وفي نصوص الحديث الشريف ، ثم في الممارسة والتطبيق .

ومنهاج الله هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وبعث الله محمداً ﷺ ليبلغ هذا الدين . وكان من أبواب البلاغ سيرة الرسول ﷺ ، وممارسة منهاج الله في رعاية الوحي ، حتى إذا أخطأ نزل الوحي يصوّب ويوجّه بأمر من الله سبحانه وتعالى .

مثل ذلك ، ولله المثل الأعلى ، مدرس يشرح لتلامذته نظرية أو قانوناً ثم يتبع ذلك بقضية يحلها أمامهم المدرس تطبيقاً للنظرية وتثبيتاً للفهم . فكانت سيرة الرسول ﷺ هي النموذج الأمثل لتطبيق منهاج الله في الواقع البشري في رعاية الوحي .

وكما يعطي المدّرس بعد ذلك لطلابه مسائل يحلونها وحدهم في البيت على ضوء النظرية التي تعلموها ، والمثل أو الأمثلة التي شرحها المدرس تطبيقاً للنظرية ، فكذلك تأتي مشكلات الحياة في شتى الميادين قضايا على كل جيل أن يوجد لها حلاً بردّ الأُمور إلى منهاج الله وإلى رسوله ﷺ. وتمضي الحياة والمشكلات والقضايا تتجدد ويظل المؤمنون يردّونها إلى منهاج الله ، إلى الله ورسوله ، يستفيد كل جيل من خبرة الجيل السابق بعد أن

---

(١) أبو داود : كتاب (٣٤) ، باب (٦) حديث (٤٦٠٧) ، الترمذي : كتاب (٤٢) ، باب (١٦) ، حديث (٢٦٧٦) . ابن ماجه : المقدمة ، حديث (٣٥) .

يردّها هي أيضاً إلى منهاج الله ، إلى الله ورسوله . وتتواصل الأجيال المؤمنة كلها ترتبط برباط الإيمان أُمة واحدة على مر الزمن حتى تقوم الساعة .

ولا بُد هنا أن نؤكد أَن القواعد السبع التي ذكرناها توجب أن نقبل على منهاج الله بإيمان ويقين على أنه هو وحده الحق المطلق ، وأن ماعداه من جهود البشر ففيها اختلاف :

﴿ أفلا يتدّبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾

[النساء : ٨٢]

لابد أَن يثبت هذا التصور في القلوب ونحن نقبل على تدبر منهاج الله .

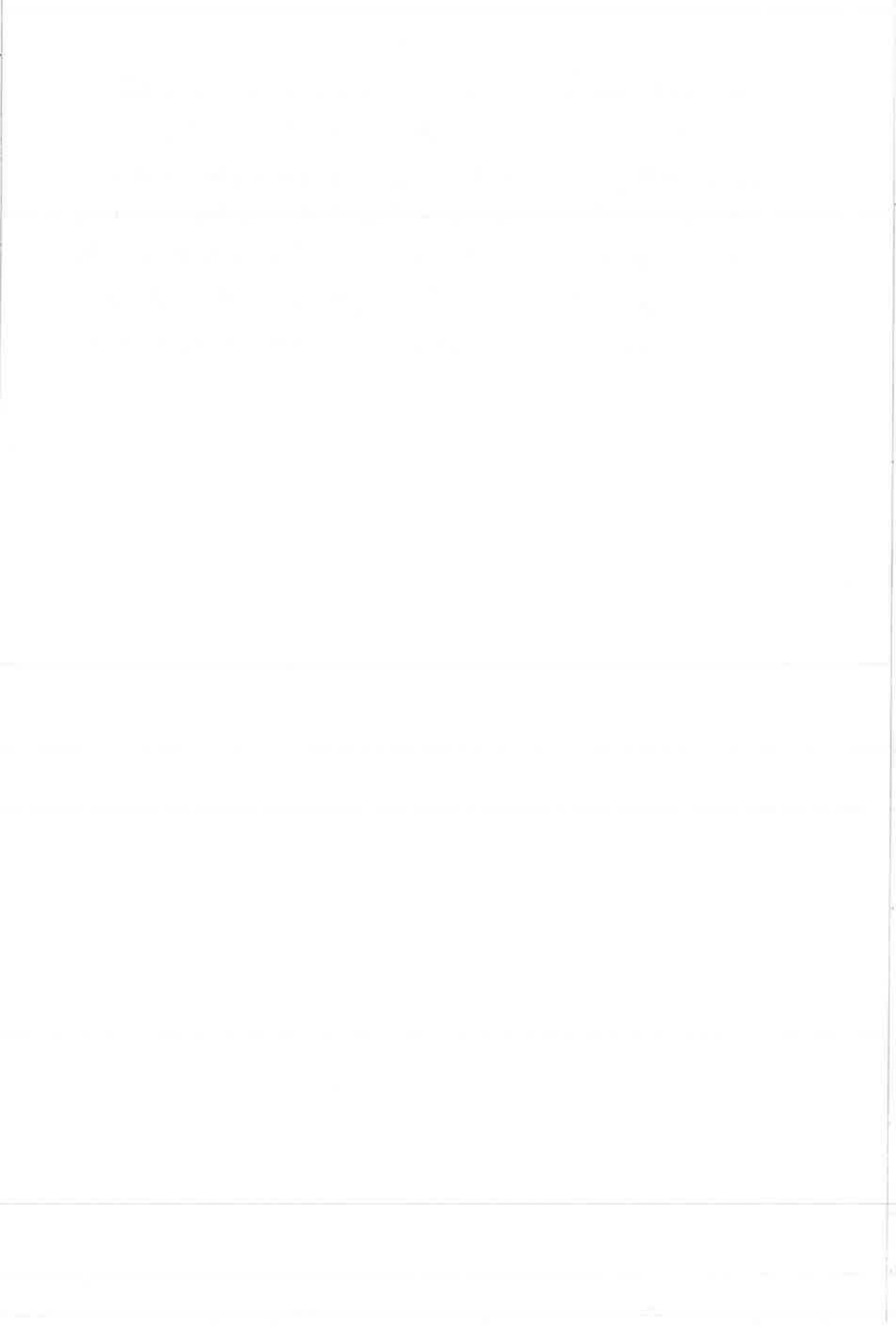
وهذه القاعدة توجب على المؤمن كذلك أَن يتحرّر في نفسه مما يكون قد تسرّب إليه من الإسرائيليات مما هو مُنتشر في كتب التفسير وعلى ألسنة الناس . وأن يتحرر كذلك مما يكون قد تسرّب إليه من فتنة الحضارة المادية المسيطرة اليوم ابتلاء منه سبحانه وتعالى لعباده وتمحيصاً لهم ، حتى تقوم الحجة لهم أو عليهم . وإن خطر هذه الحضارة اليوم واسع وشديد على واقع المسلمين وتصوراتهم . لقد امتدت عادات من هذه الحضارة حتى أصبحت أعرافاً يقبلها الناس ويفتنون بها ، فإذا صدّقوا بها أفسدت كثيراً من أُسس الإسلام ، وأغلقت أبواباً كثيرة لفهم منهاج الله .

ولقد سبّبت مخالفة هذه القواعد في التاريخ الإسلامي نشوء فرق كثيرة وشيع متنابذة، أَثر فيهم الفكر اليوناني في مرحلة ، وأثرت فيهم الاسرائيليات ، ثمَّ أَثّرت اليوم الحضارة المادية بزخارف وثنيَّتها وفتنتها .

فلا بد إذن أن نراعي هذه القواعد كلها ونحن نضع المناهج والوسائل والأساليب لدراسة منهاج الله وتدبّره وممارسته في الواقع البشري ، وكذلك ونحن نتدبّر منهاج الله .

ولا نعني بذلك أن لانأخذ الصناعة أو التقنية في مختلف العلوم عن أي أُمة من الأُمم. فالتجارب المادية ملك للإنسان ، يمكن للشعوب أن تتبادل الخبرات فيها ، ثم يصوغها المؤمنون صياغة إيمانية ، ويستخدمونها استخداماً إيمانياً في الخير والصلاح والدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، ونشر الإسلام في الأرض ، لافي الفتنة والفساد والعدوان والظلم .

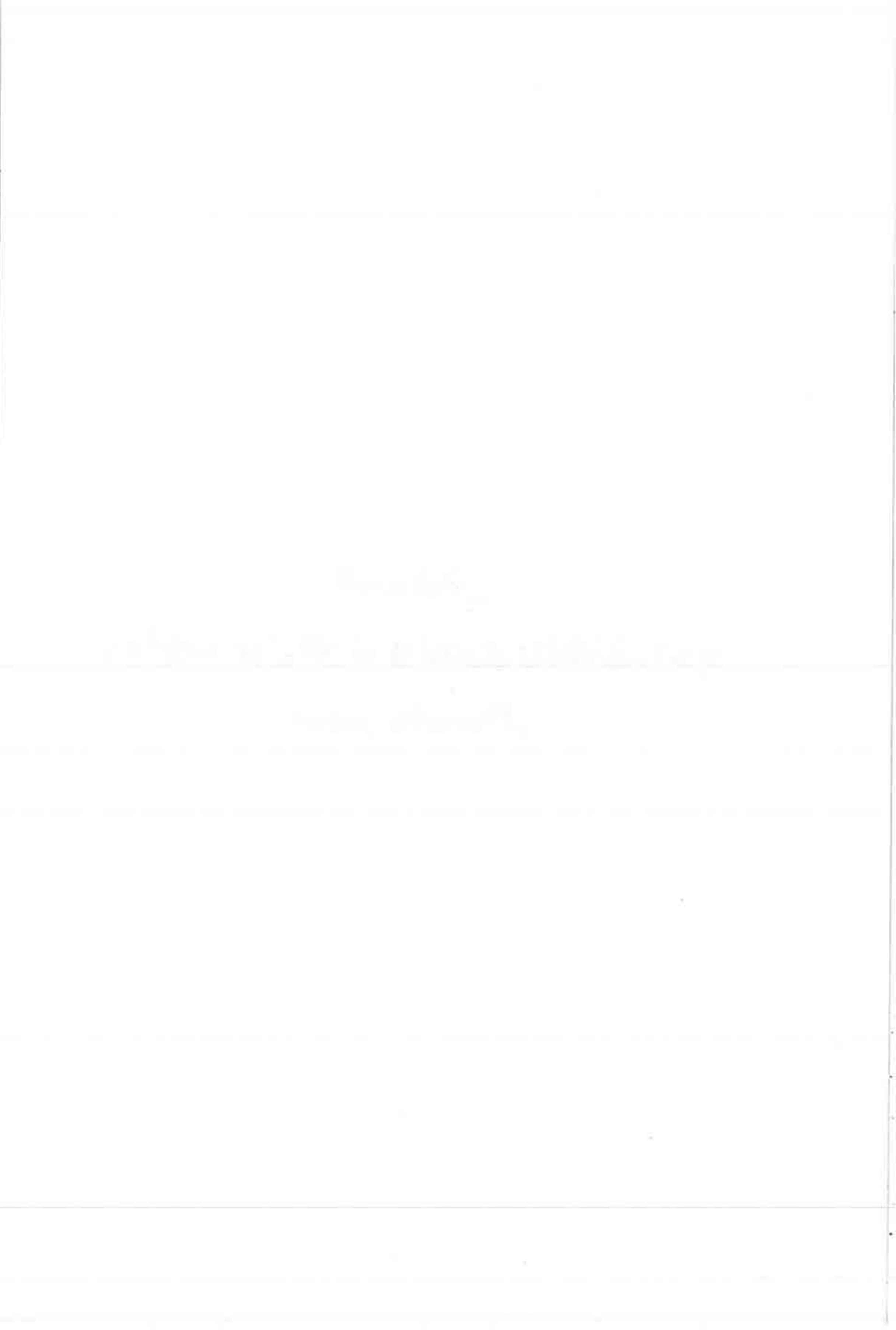
إننا نعني أن لا نأخذ الفكر الإنساني ونظرياته ومايسمونه علوما في هذا الباب أو فلسفة إلا من منهاج الله فمنهاج الله أعلى وأغنى وأقوم . ومنه يستطيع المسلمون حين يُفيقون أن يضعوا النظريات الإيمانية في التربية وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم السكان والاقتصاد والسياسة ، مما تحتاجه البشرية كلها ، لتنجو من فتنة الحضارة المادية ، وظلامها الواسع الممتد ، ولننطلق ، نحن المسلمين ، ندعو البشرية إلى هذا الدين العظيم ، دين الإسلام ، فكراً وتصوّراً ، وسياسة واقتصاداً وأدباً ، وغير ذلك .



الباب الثاني

مع آيات حول الولاء والتقوى والانفاق والربا

تدبّر وظلال



الفصل الأول

الــولاء [1]

مع آيات من سورة المائدة

﴿ يـاأيها الذين آمنـوا لاتتخذوا اليهـود والنصـارى أولياء بعضهم أوليـاء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدي القوم الظالمين * فترى الذين في قلوبهم مـرض يسارعـون فيهم يقولـون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين ﴾

[المائدة : ٥١ ، ٥٢]

﴿ لتجدنّ أشـدَّ النـاس عـداوة للذين آمنـوا اليهود والـذين أشركـوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون * وإذا سمعـوا ماأنـزل إلى الـرسول تـرى أعينهم تفيض من الدمع ممـا عرفوا من الحق يقـولون ربنا آمنـا فاكتبنـا مع الشاهدين * ومـالنا لانؤمن بـالله وما جاءنا من الحق ونطمـع أن يدخلناربنا مع القـوم الصالحين* فأثابهم الله بما قـالوا جنـات تجري من تحتها الأنهار خـالدين فيهـا وذلك جزاء المحسنين * والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾

[المائدة : ٨٢ - ٨٦]

من أهم القضـايـا التي ترتبـط بالتـوحيـد ، وتـرتبط بممارسته عمليـا في واقع حيـاة الإنسـان، الولاء . والـولاء من القضـايا التي فصّلهـا القـرآن الكريم ، وتنـاولها من جميع جوانبها الفكرية والتطبيقية في أكثـر من ثلاثين سورة مثل : البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، الأنعـام ، الأعراف ، الأنفـال ، التوبـة ، يـونس ، هود ، يـوسف ، الرعـد ، النحل ، الإسراء ، الكهف ، مـريم ، الحج ، الفرقـان ، السجدة ، الزمـر ، فصلت ، الأحقاف ، الجاثيـة ، الدخـان ، الشورى ، الممتحنـة ، التحريم، وغيرهـا . يضاف إلى

---

(١) يراجع كتاب : « الولاء بين منهاج الله والواقع » للمؤلف .

ذلك مايعرضه كتاب الله عن « الولاء » بصورة غير مباشرة ، وماتعرضه سنة رسول الله ﷺ. هذا كله يؤلف عرضاً ربانياً معجزاً لقضية « الولاء » عرضاً متناسقاً متكاملاً فيما بينه ، ومتكاملاً مترابطاً مع منهاج الله كله . وهذا الإلحاح في حد ذاته يبرز خطورة القضية ومنزلتها العظيمة في ميزان الإيمان والتوحيد ، وفي ميزان الممارسة والتطبيق .

وفي كلمتنا هنا نود أن نعرض موقفين فقط ، موقفين يتعلقان بالولاء يردان في سورة المائدة ، لنقارن ذلك مع واقعنا الذي نعيش فيه .

في سورة المائدة آيات كريمة تتعلق بالولاء من بعض جوانبه ، تبدو للوهلة الأُولى على شيء من التعارض ، وما هنالك تعارض أبداً ، ولكنْ هناك تناسق وترابط :

﴿ يـاأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدي القوم الظالمين * فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴾

[المائدة : ٥١ ، ٥٢]

ففي هاتين الآيتين يقترن اليهود والنَصارى معاً ، وينظر الإسلام إليهما نظرة واحدة : **﴿ لاتتخذو اليهود والنصارى أولياء ... ﴾** وينهى الله سبحانه وتعالى عن موالاة أيٍّ منهما ، ويعتبر أن من يفعل ذلك ظالمٌ أولاً وفي قلبه مرض ثانياً .

وتؤكد سورة المائدة نفسها هذا المعنى وهذه الظلال بقوة وإلحاح في آيات أُخرى تالية :

﴿ يـاأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ [المائدة : ٥٧]

فهذه الآية تجمع أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، مع الكفار في صف واحد ، وتعود لتؤكد نهي المؤمنين عن اتخاذهم أولياء .

وبين هذه الآيات يأتي التحديد الحاسم الفاصل لدائرة الولاء ، لدائرة محدودة معينة واضحة ، لامجال للخطأ أو اللبس فيها ، بعد أن تحددت معالمها ومساحتها وشروطها وخصائصها :

﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ [المائدة : ٥٥ ، ٥٦]

هذه هي دائرة الولاء وهذه مساحتها وهذه خصائصها . دائرتها ومساحتها الإيمان والتوحيد ، وخصائصها أن يظهر الإيمان والتوحيد في واقع الممارسة والعمل : **﴿والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾**

فتشمل الممارسة الإيمانية هنا ساحة الحياة كلها بهذه الإشارات الربانية عن الصلاة والزكاة ، حين يقوم بهما المؤمن موحّداً لله ، خاشعاً لله ، قانتاً لله : **﴿ .. وهم راكعون ﴾**

وأساس الولاء كله هو الولاء لله سبحانه وتعالى : **﴿ إنما وليكم الله .. ﴾** إنه الولاء النابع من التوحيد الصادق ومن هذا الولاء ينشأ الولاء للنبوة المرسلة : **﴿ ورسوله ﴾** ولاء تصديق بالرسالة الخاتمة . ومن هذا الولاء ينبع الولاء بين المؤمنين ولاء أُخوة صادقة **﴿والذين آمنوا ﴾** وهكذا تتحدد مساحة الولاء وتحدد خصائصه ، ويأتي العرض في سائر سور القرآن الكريم ليفصل طبيعة الولاء وارتباطه بالتوحيد ، والتصديق بالنبوة كلها والنبوة الخاتمة ، وقيام الولاء والموالاة بين المؤمنين في أُخوة إيمانية تحمل واجبات وحقوقاً تؤدَّى .

ولا يمكن أن تتحقّق الأُخوّة في الله والموالاة بين المؤمنين إلا إذا تحقّق الشرط الرئيس لذلك وهو أن يكون ولاء المؤمن الأول هو لله سبحانه وتعالى وحده في واقع التصور والفكر والعاطفة والشعور والممارسة والتطبيق ، ومنه تنبثق الموالاة بين المؤمنين ، وعلى أساس ذلك تقوم الدعوة الإسلامية .

إذن تنفي الآياتُ الولاءَ بين المؤمنين والكافرين ، والمؤمنين وأَهل الكتاب ، وتنهى عنه نهيا مؤكداً حاسماً .

وفي سورة المائدة تأتي آيات أُخرى :

﴿ لتجدنَّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً

وأنهم لايستكبرون * وإذا سمعوا ماأنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربّنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين * ومالنا لانؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين * فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين ﴾ [المائدة : ٨٢ - ٨٥]

تفصل هذه الآيات بين ﴿ **اليهود والذين أشركوا** ﴾ وبين ﴿ **النصارى** ﴾ ، خلافاً لما ورد في الآيات التي عرضناها قبل قليل ، والتي جمعتهم كلهم : اليهود والنصارى والكفار في جبهة واحدة .

يقول القاضي أبو محمد بن عطية في تفسيره لهذه الآيات الكريمة : « وهذا خبر منسحب على الزمن كله ، وهكذا هو الأمر حتى الآن . وذلك أن اليهود مرنوا على تكذيب الأنبياء وقتلهم ، ودَرِبُوا العتوَّ والمعاصي ، ومَرَدوا على استشعار اللعنة وضرب الذلة والمسكنة عليهم، فهم قد اشتدت عداوتهم ، وكثر حسدهم ، فهم أشدُّ عداوة للمؤمنين، وكذلك المشركون عبدة الأوثان من العرب ، والنيران من المجوس . . . . والنصارى أهل كتاب يقضي لهم شرعنا بأن أول أمرهم صحيح لولا أنهم ضلّوا ، فهم يعتقدون أنهم لم يضلّوا . . . . » ثم يقول ابن عطية كذلك : « ولم يصف الله تعالى النصارى بأنهم أهل ود ، وإنما وصفهم بأنهم أقرب من اليهود والمشركين مودة . . »

وذكر سعيد بن جبير ومجاهد وابن عباس « أن هذه الآية نزلت بسبب وفد بعثه النجاشي إلى رسول الله ﷺ ليروه ويعرفوا حاله ، فقرأ النبيّ ﷺ القرآن فبكوا وآمنوا ورجعوا إلى النجاشي فآمن ولم يزل مؤمناً حتى مات فصلى عليه النبي ﷺ »[1] ناقش ابن كثير هذه الرواية عن النجاشي ووفده ، فضعّف الرواية عن ابن عباس ، وعن سعيد بن جبير والسّدي ، وقال : واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أو غيرها[2] . ويذكر الطبريّ في تفسيره مختلف الروايات ، ويخرج في النهاية بأنها غير مخصوصة في فئة معينة[3]

(١) تفسير ابن عطية . ج : ٥ ، (ص : ١ - ٩) .
(٢) تفسير ابن كثير ج : ٢ ، (ص : ٨٥ ، ٨٦) طبعة دار المعرفة (١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) .
(٣) تفسير الطبري . ج٧ (ص : ١ - ٧) الطبعة الثالثة (١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م) بابي الحلبي - مصر .

والوقفة التي نحبّ أن نقفها هنا ، متجاوزين الروايات المختلفة لأسباب النزول ، هي أن المجموعة الأولى من الآيات في سورة المائدة تضع اليهود والنصارى والكفار في صفٍّ واحد بنصّ صريح حاسم . والمجموعة الثانية تستثني ﴿ **الذين قالوا إنا نصارى** ﴾ ومهما كانت أسباب النزول التي تذكرها كتب التفسير فلن تتعارض مع الوقفة التي نحبُّ أن نقفها هنا ، لنربط هذه الآيات الكريمة أو ظلالها بما يساعدنا على فهم واقعنا اليوم ، وعلى حسن ممارسة هذه الآيات الكريمة ممارسة لا توقعنا في تناقض واضطراب .

والذي نراه أن سبب هذا التعارض الظاهري هو أن كلَّ مجموعة من الآيات تعرض قضية تختلف عن الأُخرى ، وأن ميدان ممارسة كل مجموعة هو ميدان مختلف عن ميدان المجموعة الأُخرى في واقع حياة المسلمين.

فالمجموعة الأُولى تتحدث عن قضية «الولاء » ، « الولاء » بكل معانيه وظلاله النابعة من التوحيد . ولذلك حددت الآيات دائرة الولاء تحديداً دقيقاً ، كما عرضنا قبل قليل ، حتى لايكون هناك لبس ولا خطأ ولا إبهام . نفت الآيات نفيا حاسماً جواز موالاة الكافرين واليهود والنصارى . والولاء والموالاة هو أعلى درجات المودة والارتباط والتعاون . الولاء يجمع الناس على نهج واحد جليٍّ ، ويربطهم بمسيرة واحدة وأهداف واحدة وعهد واحد مع الله . وبذلك يظل الولاء الأول في الإسلام هو الولاء لله سبحانه وتعالى ، ولاء عبودية وتوحيد وحبٍّ وإخلاص . ولاء تضرّع وخشية ورجاء . ولاء خشوع وقنوت ودعاء . ومن هذا الولاء ينشأ كل ولاء آخر في حياة المسلم . فلا يصحّ إذن أن يكون الولاء إلا في دائرة الإيمان والتوحيد : تصديقاً بالنبوة والرسالات ، بالنبوة الخاتمة وأُخوة وموالاة بين المؤمنين . وتعرض الآيات الكريمة مواقف هذه الفئات الثلاث وهم يستهزئون بدين الإسلام ويلهون به : ﴿ **.... الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعبا..** ﴾ وهذه حقيقة مطلقة ماضية على جميع العصور والأجيال، حيث لاتحلُّ هذه الموالاة أبداً . فإن في الموالاة نهجاً يُتّبع ، وأهدافاً يُسعى إليها ، وعقيدة تجمع ذلك كله ، فأنّى تصحُّ إذن موالاة الكافرين وأهل الكتاب .

وأعظم ميدان يكشف حقيقة الولاء هو الحرب ، الحرب التي تكشف نارُها حقيقة

المعادن ، وجوهر المناهج ، وجلاء الأهداف . إنها الحرب التي يدخلها المؤمن مجاهداً في سبيل الله ، له نهجه المتميز ، وأهدافه المتميزة ، ليصلح في الأرض لا ليفسد ، فأنى يلتقي منهج الإصلاح مع منهج الإفساد . ولذلك جاءت الآيات الكريمة لتكشف موقف الضُعفاء المنافقين الذين كشفتهم الحرب وجلادها : ﴿ **فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين** ﴾

إذن هذه القضية التي تعرضها الآيات الكريمة وهذا هو أهم ميادين ممارستها . والحقيقة أن ميادين الحياة كلها مفتحة لممارسة الولاء ، ولكن ميدان القتال يحّرك في النفوس ماكانت تخفيه ، فتنفلت الكلمات يدفعها الخوف من الموت وحب الدنيا ، وتنكشف المواقف وما تخفيه الصدور .

أما المجموعة الثانية من الآيات فتتحدث عن قضية أُخرى وعن ميدان آخر من ميادين الممارسة . إنها تتحدث عن ميدان الدعوة والبلاغ ، عن ميدان تبليغ رسالة الله إلى الناس . فإذا كانت ظلال الكلمات في المجموعة الأولى : ﴿ **نخشى أن تصيبنا دائرة** ﴾ ، ﴿ **فعسى الله أن يأتي بالفتح** ﴾ ، تشير إلى ميدان الصدام والقتال والحرب فإن ظلال الكلمات أيضاً في المجموعة الثانية من الآيات تشير إلى ميدانها ، إلى ميدان البلاغ والبيان ، ميدان الدعوة والرسالة : ﴿ **وإذا سمعوا ماأُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ....** ﴾ إنها صورة واضحة للدّعوة وأُسلوبها ونهجها وميدانها . إنه ميدان غير ميدان القتال الذي تدور فيه الدائرة على فريق ، ويأتي الله بالفتح على فريق آخر . إنه ميدان الدعوة والرسالة ، ميدان البلاغ والبيان ، حيث تتلى آياتُ الله فيستجيب فريق ويصد عنها فريق . وفي هذا الميدان لاتدرس قضية الولاء ، فالولاء قضيّة محسومة مقررة بكل خصائصها ومساحتها في حياة المؤمن كلها وبكل ممارساتها . فلا مجال للمؤمن الداعية أن يرتبط هنا بولاء مع أي فئة من الفئات المذكورة ، وقد حسمت الآيات السابقة هذه القضية . ولكن الذي يمكن أن يثور هنا وُدٌّ أو عداوة ، استجابة أو صدود ، فغالب مايظهر من اليهود والمشركين هو العداوة

والصدود ، حتى قلَّ أن تجد منهم من استجـاب إلى دعوة الإسلام . ولايتعـارض هذا مع استجابـة عدد قليل من هؤلاء أو هـؤلاء ، فذلك العدد لايغيّر شمـول القاعدة واتسـاعها وصـدقها . والمشركـون الـذين تعنيهم الآيـة هم المشركـون الذيـن حملوا الشرك نهج حيـاة يصدون به عن سبيل الله ، ويحاربون الله ورسوله . أما بين ﴿ **الذين قالوا إنا نصارى** ﴾ فقد تجد أعداداً أكبر تستجيب لنـداء الإيمان والتوحيد . وهذه الحقيقة يكشفهـا لنا تاريخ الدعوة الإسلاميـة . ووجود فئات من ﴿ **الذين قالـوا إنا نصارى** ﴾ لاتستجيب لنداء الإيمان والتـوحيد ، فتقف حتى في هـذا الميـدان موقف عـداء وصدود ، لا يغيّر الحقيقـة الكبيرة التي تستعرض الزمن كله .

ولابدّ من أن نلاحظ هنا نقـاطاً أساسية : فالمودة التي تتحدث عنهـا الآيات الكريمة هي مودة ﴿ **الذين قـالوا إنـا نصارى** ﴾ للمـؤمنين أي عن مودتهم هم ، لاعن مـودة المؤمنين لهم . فالمؤمن ملتزم بنهج متكامل في علاقتـه مع الناس كلهم ، ولايلتزم بموقف آني ارتجالي يتبدل مـع الحالات النفسية . فهو حين لايعطـي ولاءه إلا في دائرة الإيمان الذي تبرزه الممارسـة والتطبيق ، فقـد يقابل الـودَّ بـودٍّ دون أن يُخدَع ودون أن يَخدع ، ويظل ودُّه جزءاً من نهج يبلّغ به رسالـة الله ، ويتألف القلوب عليها . يظلُّ ودُّه ينبع من صفاء إيمان وتـوحيد ، وصـدق علم ووعي ، وسـلامة فطـرة وحسٍّ ، ليَبْلُغَ أهـدافاً ربّـانيّة جليّـة في صدره . وحين يقـوم ودُّه على هذا النحو ، فلا يتحـوّل ودّه إلى علاقات شخصيـة تزلُّ بها قدمـه ، ليؤمِّن عرضـاً من الدنيـا ، أو كسباً رخيصاً ، أو تجارة زائلـة . ولا يتحوّل ودّه إلى عهود ومـواثيق تتعارض مع قواعـد الإيمان والتوحيد والـولاء . إنّ الودَّ الذي تتحـدَّث عنه هذه الآيـات الكريمـة هو الـودُّ الذي يـدفع إقبال ﴿ **الذين قـالوا إنـا نصارى** ﴾ على الإسلام ، على الإيمان والتوحيد ، استجابة لـدعوة المؤمن لهم . إن أساس هذه العلاقة ، وأساس هذا الودّ ، هو وجـود تبليغ جلي لدين الله ، ووجود دعوة صريحة يسمع بها هؤلاء آيات الله ، عسى أن تفيض أعينهم من الدمع مما عـرفوا من الحق ، فيؤمنوا وتخبت قلوبهم لذكر الله ولآياته . فإذا انتفت الدعـوة وانتفى البلاغ معهم ، فما هي العلاقة إذن ؟ وماهو الود الذي يقوم ؟! إذا سكت الداعية المؤمن عن تبليغ دعـوته إلى هؤلاء الذين يقولون عن

أنفسهم إنا نصارى ، فماذا يبقى للعلاقة معهم ،إلا أن يكون عرضاً من الدنيا زائلاً ، أو مصلحة عابرة ، أو هوى غالباً متَّبعاً، وهذه الحالات كلها خارجة عن دائرة الآيات التي ذكرناها . فإذا نشأ ودّ عن ذلك بين الطرفين ، وكان الطرف من أهل الكتاب يحارب الله ورسوله ، ولايسمع لآيات الله تتلى ، فلعل هذه الحالة هي ماتشرحه الآيات في سورة المجادلة ، الآيات التي تختتم بقوله سبحانه وتعالى :

﴿ لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءَهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ [المجادلة : ٢٢]

وكذلك في سورة التوبة تأتي الآية الجامعة التي توازن بين حبٍّ وحبٍّ على أساس من العقيدة والإيمان :

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى ياتي الله بأمره والله لايهدي القوم الفاسقين ﴾ [التوبة : ٢٤]

فهنا في هذه الآية الجامعة يتحدَّد ظلال الحب ، وتحدد دوائره ومساحاته ، لتظل في إطار الموازنة الدقيقة ، الموازنة التي يظل المؤمن مطالباً بها ليقيمها على أساس من دين وعقيدة ، وإيمان وتوحيد ، وعلم صادق لايعصف به الهوى ، مع اليهود والنصارى والمشركين .

وقضية أخرى كذلك **﴿ الذين قالوا إنا نصارى ﴾** جاء هنا هذا التعبير معجزاً في امتداده الزمني ، معجزاً في صياغته وظلاله . **﴿ الذين قالوا ﴾** فهم الذين يقولون عن أنفسهم إنا نصارى ، وهم الذين يعلنون ذلك إعلاناً يُعرَف عنهم ، حتى يتميّزوا عن غيرهم ، وحتى تظل الرؤية أمام المؤمن واضحة ، وفي آيات أُخرى يسميهم القرآن الكريم

﴿**النصارى**﴾. أما هنا ، في هذا الموقف فلا بد من أن يحددوا هم هويتهم ليتميّزوا بها ، ولتتحدد بذلك مناهج مخاطبتهم ، وأُسلوب دعوتهم ، وإقامة الحجة عليهم وأنت تدعوهم وتبلغهم رسالة الله .

ففي واقعنا اليوم تلتبس الأُمور . ذلك أن دولاً كثيرة من التي نحسبها دولاً نصرانية تعلن هي نفسها براءتها من الدين النصراني وغيره ، وتعلن أنها دولة علمانية ، حتى أصبحت العلمانية منهجاً أخذ يتسرب إلى مجتمعاتنا الإسلامية . وحين صدَّق المغفلون مناهج العلمانية فتفلّتوا من دينهم الإسلامي العظيم ، تقليداً للغرب ، ظل الغرب ، دوله وشعوبه يتمسّك بنَصرانيّته لاستغلالها في الغزو والعدوان ، والظلم والإفساد في الأرض ، خفيةً أو جهراً ، ويظل مع ذلك يعلن في القانون والدساتير أنهم دول علمانية ، مع خطأ هذا التعبير ، وأصح منه : « لادينية » .

فهذه الدول التي أعلنت عن نفسها صراحة أنها علمانيّة ، لم تعد تخضع لهذه الآية الكريمة وأحكامها : ﴿ **الذين قالوا إنا نصارى** ﴾ ولايخضعون لها كذلك ، لأنهم في واقع حياتهم وفي داخل بلادهم تفلّتوا حقيقة من النصرانية حين أباحوا كل حرام : الزنا ، الخمر ، اللواط ، وحين بدلوا أحكام الإنجيل في واقعهم ، وفي مناهجهم . ولم يعد الدين يظهر إلا مخنوقاً بين جدران الكنيسة ، أو مستغلاً مع الرهبان والقسيسين بالغزو والعدوان والظلم ، حين لم يعد الرهبان والقسيسون يحملون الصفات التي عرضها القرآن الكريم عنهم ، وحين أصبحوا أداة طيعة في يد أصحاب المصالح والمطامع الدنيوية ، وحين أصبح الدين لديهم أداة استغلال لتهييج عداء هنا وهناك ، وعصبية جاهلية هنا وهناك ، عداء وعصبية وعدوان وظلم وإفساد وجرائم تتبرّأ منها النصْرانيّة ، ويتبرأُ منها كل دين .

هؤلاء لايمكن أن يكونوا أقرب مودة أبداً . إنهم أشدُّ عداء وعدواناً ، وأكثر توغُّلاً في استباحة أموال المسلمين وأوطانهم وأعراضهم وما عرف التاريخ البشريُّ جَرائم في مستوى بشاعة جرائم محاكم التفتيش في إسبانيا ، وجرائم الحروب الصليبية ، وجرائم احتلال فلسطين وسائر البلاد الإسلامية ، المذابح التي أدارها الإنجليز في الهند ، والفرنسيون في

الجزائر ، وبعض دول إفريقيا الأُخرى ، وإيطاليا في ليبيا ، وروسيا في الأَقطار الإسلامية المجاورة ، والصرب ومايفعلونه اليوم في البوسنة والهرسك ، وكشمير والفلبين وغيرهم .

إن فهم هذه الآيات الكريمة ، وفهم حدود الولاء ومعانيه وخصائصه ، والمودة وجوانب انطلاقها ومداها ، إن فهم كل هذا ضروريٌ في حياتنا اليوم ونحن نجابه عدواناً متعدِّد الأَشكال والأَساليب ، عدواناً سافراً كشَّر عن أَنيابه ، أَو عدواناً خفياً يتسلل في عتمة الليل ومسارب الظلام ، عدواناً بالقتل ، وعدواناً بالفكر والأَدب ، والقصة والشعر، والكلمة الطائرة في الآفاق ، الكلمة التي تفعل أَكثر من فعل القنابل .

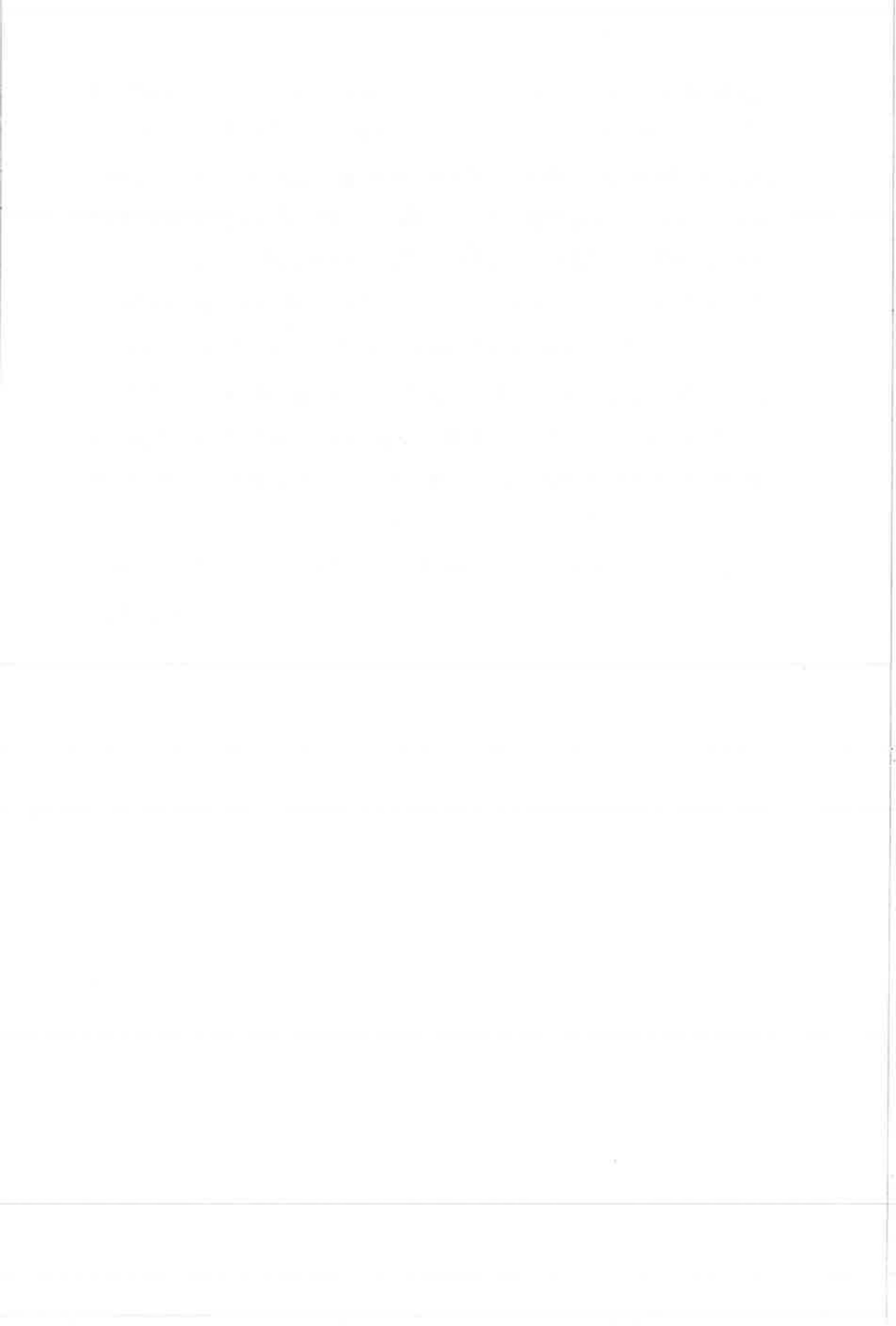
وقضية أُخرى لابد من الوقوف عندها مع هذه الآيات الكريمة ليسهل علينا الوصول إلى أَنقى أَشكال الممارسة الإيمانية . ففي الآيات الكريمة التي تحدد دائرة الولاء ومساحته وخصائصه جاء التعبير القرآني : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ .

إن الولاء محدد بساحة الإيمان . ولكن الآية الكريمة فصّلت بعض معاني الإيمان اللازمة لقيام الولاء الصادق ﴿ **... الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ فالإيمان الذي تعنيه الآية الكريمة هو الإيمان البيّن الواضح للناس ، الإيمان الذي تؤكده الممارسة الإيمانية في واقع الحياة ، الممارسة الإيمانية التي تبتدىء بالشعائر كلها، وإن لم تذكرها صراحة الآية ، ثمَّ تمتدُّ الممارسة الإيمانية في جميع ميادين الحياة التي يخوضها المؤمن عملاً صالحاً ، وعبادة ، وأَمانة ، وخلافة . ويأتي التعبير : ﴿ **.. وهم راكعون** ﴾ تحمل ظلال العبادة الممتدة على خشوع وقنوت . هؤلاء المؤمنون ، بهذه الخصائص ، تقوم بينهم الموالاة ويرتبطون على ولاء صادق نابع من ولائهم لله ، مرتبط به .

وفي واقعنا اليوم اختلطت الأَوراق ، واضطربت الصورة . وربما وهب المسلم ولاءه لقريب أو رحم هجر الصلاة وقطع الزكاة ، أو وهبها لصديق لايجمعه به إلا فسحة الأَرض ، أَو امتداد الهوى ، أَو غلبة المصالح ، أَو التصور الخاطىء للتوحيد والولاء النابع منه . وفي واقعنا اليوم أَمواج هائلة من المنتسبين إلى الإسلام ، تدخلهم الإحصاءات كلها في تعداد المسلمين هنا وهناك ، ولكنهم لم يزيدوا في حقيقة الأَمر عن أَكثر من حمل

«الهوية» ، مبتوتي العلاقة مع الصلاة أو غيرها ، يؤدون شيئاً ويتركون شيئاً ، حتى نشأت طبقة في المجتمع الإسلاميّ أسميها اصطلاحاً « الطبقة العائمة » من هذه الطبقة يتوزع الولاء فترى الرجل مسلماً في الصلاة ، فإذا جاء الأدب نزع نزعة بعيدة ، واذا جاءت السياسة تفلت من الإسلام وأعطى ولاءه يميناً وشمالاً ، فإذا جاء الاقتصاد كان الاضطراب أكثر . هذه «الطبقة العائمة » ، من أهم خصائصها ضعف زادها من منهاج الله ضعفاً لايسمح لها بردِّ أمورها إليه ، وربما اشتدَّ الضعْف فصار جهلاً .

إن تدبّر منهاج الله ، وصحبته صحبة عمر وحياة ، صحبة منهجية ، هذا كله هو من أهم الضوابط للولاء ولتوجيهه ، ولضبط المودة وتوجيهها ، ولضبط الممارسة الإيمانية كلها في واقع حياتنا اليوم ! إن تدبّر منهاج الله يعلمنا أن الولاء الصادق هو ارتباط على نهج ، وعهد على أهداف ، وبذل في مسيرة ، إنه نهج واحد وأهداف واحدة ومسيرة واحدة على جلاء ينفي الريبة ووضوح يجمع الجهود ، وممارسة مطابقة لشعار ، على درب طويل إلى الجنة .



الفصل الثاني

التقوى

بين حدود الاستطاعة والتزام الحق

مع آيات من سورتي آل عمران والتغابن

﴿ يـاأيها الـذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكـم عدواً لكم فـاحـذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفـور رحيم * إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنـده أجـر عظيم * فـاتقوا الله مـاستطعتم واسمعـوا وأطيعـوا وأنفقـوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [التغابن : ١٤ - ١٦]

﴿ياأيها الـذين آمنوا إن تطيعوا فريقـاً من الذين أُوتوا الكتاب يـردوكم بعد إيمانكم كافـرين * وكيف تكفرون وأنتم تُتلى عليكم آيات الله وفيكم رسـوله ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم * ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون * واعتصمـوا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقـوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألَّف بين قلوبكـم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حُفرة من النـار فأنقذكم منها كذلك يبيِّن الله لكم آيـاته لعلكم تهتدون ﴾ [آل عمران : ١٠٠ - ١٠٣]

﴿ فاتقوا الله ماستطعتم ﴾ ! لقد جاء هذا النصّ الكريم بمناسبة عرض مايلقاه الإنسان من فتنـة المال والأولاد والأزواج . فقد ذُكِرَ أن هذه الآيـات نزلت في قوم كـانوا إذا أرادوا الإسـلام أو الهجـرة أو الجهـاد ، ثبطهم عن ذلك أزواجهـم وأولادهم . فعن ابن عباس أنـه قال : « هؤلاء رجـال أسلموا ، فأرادوا أن يأتـوا رسول الله ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعُـوهم »[١] وفي رواية أُخـرى ذكرت رجـالاً أرادوا الهجرة فثبَّطهم أزواجهم وأولادهم .[٢] وعن عطـاء بن يسار أنها نـزلت في عـوف بن مالك الأشجعي ، فكـان إذا أراد الغزو بكى إليه أهله وولده ورقَّقـوه وقالوا : إلى من تدعنا ؟ ! فيرقُّ ويقيم[٣] . روايات

---

(١) ، (٢) ، (٣) تفسير الطبري . ط٣/ ١٣٨٨هـ . ح ٢٨ . (ص : ١٢٤ ، ١٢٥) .

متعددة وردت في كتب التفسير حول سبب نزول هذه الآيات . وكلها تدور حول قضية محددة واضحة ، يعرفها الناس في واقع حياتهم ، مما يلقونه من فتنة الزوجات والأولاد والمال ، فتنة تصدّهم عن الدعوة والجهاد ، أو تثبطهم ، أو تضعف من عزيمتهم . إنه ابتلاء يمرُّ به المسلم اليوم وغداً ، كما مرَّ به سابقاً ، وكما مَرَّ به في عصر النبوة .

وتأتي هذه الآيات الكريمة لتعالج هذه القضية المحدَّدة ، القضية الممتدة في واقع الإنسان ، في واقع الإنسان المسلم حين يريد أن ينطلق في دينه وجهاده ، ودعوته وبلاغه . إنها تُصوِّر بعض الأَزواج والأولاد أعداءً للمؤمنين ، حين يصدُّون عن أداء حق الدعوة والجهاد . ويأتي التوجيه هنا ليضع القواعد المتناسقة مع طاقة الإنسان ووسعه كما خلقه الله سبحانه وتعالى ، وهو أعلم بخلقه . فجاء التوجيه يحمل القاعدة الأُولى : ﴿**فاحذروهم**﴾ ، ليثير بذلك وعي المؤمن وقدراته ، حتى تتأهب ، وتستعدَّ أمام عدوٍّ ظاهر يمكن أن يَصُدَّ عن العمل الصالح ، ويغري بالكسل والقعود . وخشية أن ينتقل بعض المؤمنين إلى لحظات من ردود الفعل العنيفة جاء التوجيه يراعي عواطف الأُبوة والبنوّة ، وروابط الزوجية ، وحقوق الأُسرة المتماسكة ، وتوفير منهج عملي للبناء والتربية ، ومراعاة أصل التطور إلى مستوى إيماني أعلى . فجاء التوجيه : ﴿ **وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا** ﴾ ! توجيه ربّاني لعباده المؤمنين يطلب منهم أن يقاوموا بعض النوازع الداخلية في النفوس ، يطلب منهم أن يعفوا وقد يجدون العفو قاسياً عليهم ، أو أن يصفحوا ويغفروا . ويطلب منهم أن ينفقوا والمال عزيز على النفس ، والأنفس قد أُحضرت الشحّ ! إنها معاناة النفوس ، ومغالبتها لبعض ما جُبلت عليه . ومع هذا التوجيه الرباني وهذه النداءات ، جاءت القاعدة العظيمة : ﴿**...فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ...** ﴾ ذلك لأن النفوس تتفاوت في هذه الميادين ، والقدرات تتباين والوسع يختلف . إن الناس يتفاوتون في كظم الغيظ والعفو والمغفرة والصَّفح ، ويتفاوتون في المواهب والقدرات ، وردود الفعل والاستجابات ، والطاقة على معالجة المشكلات والمواقف ، ومغالبة الهوى ، ولجم الشهوات والمصالح . فجاء النداء الرباني منسجماً كل الانسجام مع هذا الجو من التكاليف ، ومع هذا الاتساع من الميادين ، ومع تباين وسع الإنسان وتفاوت طاقاته ،

والله أعلم بذلك كله ، جاء النداء رحيماً ندياً ، يحمل معه الرحمة والحنان ، جاء ليقول : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ ! جاء رحيماً ندياً حتى تنطلق الطاقات المختلفة في ميادين الإيمان واثقة مطمئنة ، تضع صدق النية والعزيمة فتبلغ كلُّ نفس ماشاء الله لها أن تبلغ حسب وسعها وطاقاتها .

وينسجم هذا النداء مع الآيات السابقة ، ومع سائر أحكام منهاج الله ، وسائر القواعد الإيمانية ، لايتعارض أبداً مع أي منها . وجاء هذا النداء لينسجم مع فطرة الإنسان ، ومع سنن الله في هذه الحياة الدنيا ، ومع سنة الله في الابتلاء والتمحيص .

ولكن بعض كتب التفسير تورد رأياً يقول إن هذه الآية الكريمة ناسخة للآية الكريمة من سورة آل عمران التي يجيء فيها قوله سبحانه وتعالى ﴿ **اتقوا الله حق تقاته...** ﴾ وكذلك اعتبر بعضهم أن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **لايكلّف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ هي أيضاً ناسخة للآية من سورة آل عمران . ويقولون إن الآية الكريمة التي فيها ﴿ **اتقوا الله حق تقاته ...** ﴾ نزلت على عموم لفظها وألزمت الأُمة أن تتقي الله غاية التقوى حتى لايقع إخلال في شيء من الأشياء ، ثم إن الله نسخ ذلك عن الأُمة بقوله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله مااستطعتم** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **لايكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ . قال ذلك قتادة والسُدّي والربيع بن أنس وابن زيد وغيرهم ، كما قال ابن عطية في تفسيره . ويقول ابن عطية أيضا : « وقالت جماعة من أهل العلم : لانسخ في شيء من هذا . وهذه الآيات متفقات ذلك أن ﴿ **حق تقاته** ﴾ هو بحسب أوامره ونواهيه . وقد جعل الله الدين يسراً . وعبّر بعضهم في تفسير ﴿ **حق تقاته** ﴾ بقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : **«هو أن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى »** (١)

ولكننا نرى أن الأمر يختلف عن ذلك ، وأن هنالك وجهاً آخر لفهم هذه الآيات الكريمة . فالآيات من سورة التغابن تتحدث عن قضية محدَّدة ، وعن معاناة قد يتعرَّض لها الكثيرون من المؤمنين ، فوضعت الآيات الكريمة توجيها ربانياً لمعالجة ذلك . كان من بين هذا التوجيه أو من أُسسه أن ﴿ **فاتقوا الله مااستطعتم** ﴾ ، توجيها منسجماً مع الآيات السابقة وجَوّها ، منسجماً مع منهاج الله ، مع فطرة الإنسان وطبيعته ، مع سنن

(١) تفسير ابن عطية . ط١ / ١٤٠٢هـ - الدوحة . ج ٣ . (ص : ٢٤٥ - ٢٤٦) . وتفسير الطبري . ج٢٨ (ص : ١٢٧)

الله في الحياة الدنيا عامة ومع سنة الابتلاء والتمحيص بصورة خاصة ، كما ذكرنا قبل قليل .

فلماً تغيّر الموقف والجوّ ، وتغيّرت المناسبة والتكاليف ، وتغيّرت القضيَّة المعروضة تغيّراً كلياً ، لماً حدث هذا كله انتقل التوجيه الرباني إلى الحزم والمفاصلة ، بما يناسب القضيَّة الجديدة المطروحة . لقد أصبحت القضية المعروضة في الآيات من سورة آل عمران هي قضية الكفر والإيمان ، قضية موالاة وعداء ، قضية العقيدة والتوحيد . لم تعد القضية هنا قضية جزئية في ممارسة إيمانية تموج فيها نوازع الضعف والقوة ، كما كانت القضية في سورة التغابن . فهنا ، في سورة آل عمران ، حيث يعرض القرآن الكريم عقيدة وتوحيداً ، ويرسم خُطة وموقفا ونهجاً ، يلتزمه الناس كلهم ، مهما اختلفت قدراتهم وتباينت أهواؤهم ، هنا تأتي القضية جلية في عرضها ، غنيّة في قوتها ، لاتترك مجالاً لاضطراب أو غموض أو إبهام :

﴿ قل ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون * قل ياأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون * ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أُوتو الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾

[آل عمران : ٩٨ - ١٠١]

هذه هي القضية الجديدة التي تعرضها الآيات من سورة آل عمران . ولعلها تبتدىء مع الآية (٨٦) : **﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾** وتمضي الآيات تعرض هنا قضية الإيمان والكفر ، قضية الولاء والعداء ، قضية العقيدة والتوحيد . إنه أمر جلل : **﴿ إن تطيعوا فريقاً من الذين أُوتوا الكتاب يَردُّوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾** ، وكذلك **﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله .. ﴾** ! تحذير شديد ، وتساؤل وإنكار ، وتوعية وإيقاظ . آيات بينات تعرض قضية الإيمان والكفر ، لا أي قضية أُخرى ، وتستنهض معها عزائم المؤمنين ، وضمائر الصادقين ، ووفاء العاملين

تمهيداً لتوجيه الأمر القاطع والنداء الحاسم والمفاصلة النهائية والتكليف العظيم :

﴿ يــاأيها الــذين آمنــوا اتقــوا الله حق تقــاتــه ولاتموتـن إلا وأنتم مسلمـون*واعتصموا بحبل الله جميعـاً ولا تفرّقـوا واذكروا نعمـة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾

[آل عمران : ١٠٢ ، ١٠٣]

تكليف حاسم : **﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾** ، ومفاصلة نهائية : **﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾** ، وأمر قاطع : **﴿ واعتصموا بحبل الله جميعـا ولاتفرّقوا ..﴾** . إنها كلها نداءات في حـدود وسع الإنسان ، في نطاق طبيعته وفطرته ومـا جبله الله عليه . فلا مجال هنـا لجزء من التقوى ، ولا لبعـض الإيمان : فإمّـا إيمان فهو حق التقـوى ، وإما كفـر ، ولا وسط بينهما . إنها قضيـة العهـد مـع الله ، حيث لامجال فيـه للمسـاومـة على الإيمان ، أو المهادنـة مع الكفر ، أو التراخي عن فرض ، ولا مجال هنـا لوسع يهبط فيقبل هبوطه ، ولاميـدان هنا يشترك فيه الكفر والإيمان بشيء أبداً . إنها المفـاصلة ، إنها التقوى حق التقوى .

من هنـا ، من هذا التمايـز بين القضية المطـروحـة في هذه المجمـوعة من الآيـات من سـورة التغابن ، والقضيـة المطروحـة في مجموعـة الآيات من سـورة آل عمران ، من هـذا التمايز فقط نقول إنـه لانسخ في هذه الآيات . فقوله سبحـانه وتعالى **﴿ ... اتقوا الله حق تقاته ... ﴾** ثابتـة حقاً مطلقاً وتـوجيهاً ربانياً مـاضياً إلى يوم القيـامة ، لتعالج مـوضوع المفاصلـة الكاملة بين الإيمان والكفـر ، لتكون المفاصلة هـذه تقوى حقّ التقوى . وقـوله سبحانه وتعالى : **﴿ ... فاتقوا الله ماستطعتم .. ﴾** تمثل كذلك حقّاً مطلقـاً ماضياً إلى يوم القيامـة ، لتعالج قضية المعانـاة البشرية في الممارسة الإيمانية من خـلال رحم وقربى ، ورغبة وفطرة ، وروابط وصلات ، حيث يقوم التكليف على أساس تفاوت الوسع والطاقة إننـا نحتاج إلى أن نحمل هـذا التصـور الإيماني مع هذه الآيـات الكـريمة ، حتى نعـرف واجباتنا الإيمانية في مسيرة الدعوة الإسلامية مع الزمن ، وفي واقعنا اليوم بصورة خاصة .

وحين نتدبـر هذه الآيـات الكريمـة من سورة التغـابن أو سورة آل عمـران ، وحين ننظر معهـا في واقعنا اليـوم ، ندرك أننـا نخطىء كثيراً حين نأخذ كلَّ صـورة من صور التقـوى التي تعرضها هذه الآيات أو تلك معزولة أو مفصـولة عن جو الآيات المحيطة بها ، وعن جوّ السورة كلها . فالصورة التي تعـرضها الآية هنا أو هناك لاتأتي مجملة عامّـة مبهمة ، وإنما ترد في سياق تفصيلات متناسقة تُحدِّد كامل الصورة والقضية والنهج بجلاء . فمع قوله سبحانه وتعالى :

﴿ **فاتقوا الله مااستطعتم** ﴾ جاء التوجيه الرباني بتكامله وتناسقه ﴿ **فاحذروهم** ﴾ ﴿ **وانفقوا خيراً لأنفسكم** ﴾ . فتكاملت هنا الصورة لترسم ميـدانا تتفاوت فيه القدرات ويختلف الـوسع : فمن حـذر ووعي ، إلى عفـو وصفح ومغفـرة ، إلى إنفـاق ، إلى سمع وطاعـة لله ولرسـوله في ميـادين الحياة كلهـا ، حتى يضبط السمع والطاعـة الحذر والعفو والإنفاق ، ويوجهها وجهة الخير والإصلاح .

وكذلك يأتي قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته** ﴾ . فجاءت التقـوى هنا مـرتبطة بصـورة متكاملـة وتوجيـه رباني متكامل متنـاسق ﴿ **وكيف تكفـرون ..** ﴾ ، ﴿ **ومن يعتصم بـالله ...** ﴾ ، ﴿ **ولا تموتن إلا وأنتم مسلمـون** ﴾ ﴿ **واعتصموا بحبـل الله جميعاً** ﴾ ، ﴿ **ولاتفرَّقـوا ...** ﴾ ، ﴿ **واذكروا نعمـة الله عليكم** ﴾ . إنها صورة جـديدة وقضية جديـدة وجوّ جديـد . والصورة متكاملة متنـاسقة مترابطة تـرسم كل ملامحهـا حتى ترى أنـه لايعقل أن يقبل هنا إلا التقـوى حق التقوى . وترتبط هذه التقوى حق التقوى بجميع العناصر التي رسمتها الآيات الكريمة : من عدم الكفـر والموت على الإسـلام والاعتصـام بحبـل الله ، وعـدم التفـرق ، ونعمـة الله على المؤمنين. كل عنصر من هـذه العناصر يـؤكـد التقـوى حق التقوى ، حيث لامجال فيهـا لمساومة ، أو لاستطاعة تهبط ، أو وسع يسِفّ . كل الناس مكلَّفون فيها تكليفا واحداً : ﴿ **ولاتموتنّ إلا وأنتم مسلمون** ﴾ كلّ الناس مكلفون بممارسة هـذه الآيات الكريمة في واقعهم البشري . ولاتكون الممارسـة إيمانية إلا إذا التـزمت شروط الإيمان والتوحيـد وقامت على أساس من فهم منهاج الله والواقع .

لقد اضطـرب التصور الإيماني في واقعنا اليوم اضطـراباً دفع خلطاً عجيبـاً في الممارسة

والتطبيق ، خلطاً برز أكثر مابرز في ميدان المفاصلة والحسم ، وميدان التكاليف التي تقوم على أساس تباين الوسع والطاقة ، وتمايز المواهب والقدرات فحيث تجب المفاصلة والحسم نأخذ بالاستطاعة والوسع العاجز . وحيث يبيح الإسلام تفاوت الوسع نتشدّد على غير بيّنة من إيمان وعلم . لقد امتد اضطراب التصور حتى مسَّ حقيقة الولاء لله سبحانه وتعالى . فحين نرفع الولاء شعاراً ، نهبط في ممارستنا هبوطاً يتناقض مع الشعار . وربما طغت القومية والإقليمية حتى رسمت هي النهج وحدَّدت الموقف ونشرت الكلمة ، بصورة متناقضة مع الولاء الخالص لله سبحانه وتعالى ، وبصورة تفتح ثغرات في حياة المسلمين ، أو في ديارهم أوسياستهم ، أو في اقتصادهم .

إن التوحيد الخالص والولاء الصادق لله سبحانه وتعالى هو وحده الذي يحدِّد للمؤمن علاقاته وروابطه ، وهو وحده الذي يصوغها صياغة إيمانية ، تحفظ للمؤمنين طاقاتهم وجهودهم ، وتمايزها عن غيرها .

حين لاتتضح هذه الصورة الإيمانية من المفاصلة ، ينجرف المسلمون عندئذ في صياغة آنيّة أو وطنية ، أو مصلحية ، لاتنسجم مع حقيقة التوحيد وجوهر الإيمان ، ولكن تحمل من زخرف الشعارات مايسمح لها بالمرور في الواقع والرأي العام ، تحت ضغط لحظات معيَّنة من تاريخ الأُمة ، أو فترات محدَّدة ، لاتكون في حقيقتها أكثر من لحظة ابتلاء وتمحيص ، وفترة اختبار وتدقيق .

إذا لم يشرق التوحيد في النفوس بصفائه ونقائه ، وإذا لم يقم الولاء الخالص لله في واقع الممارسة والتطبيق نهجاً إيمانياً ربانياً ، نهجاً قرآنياً غنيّاً ، نهجاً يعرف صدق المفاصلة ، وعزيمة الحسم ، وعظمة البذل والعطاء من أجل ذلك ، إذا لم يقم هذه كله ممارسةً حيّة غنية في التصور والتطبيق ، فسيظلّ أمام المسلمين عقبات كثيرة في مسيرة طويلة تهدف إلى أن تطرق أبواب الجنّة ، إلا أَن الوهن وقلة الزاد واختلاط الصورة يجعل من هذه العقبات مايحول بين العزيمة والهدف .

نسأل الله الهداية والعفو والعافية ، وثبات اليقين وقوة العزيمة ، وحسن الإنابة ، والسداد والرشاد ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث

الإنفاق

في سبيل الله

قوة للمسلمين وصلاح للإنسان

مع آيات من سورة محمد

﴿ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولاتبطلوا أعمالكم * إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ثمّ ماتوا وهم كفّار فلن يغفر الله لهم * فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم * إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أُجوركم ولا يسألكم أموالكم * إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم * ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنيّ وأنتم الفقراء و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونوا أمثالكم﴾

[محمد : ٣٣ - ٣٨]

تمضي الدعوة الإسلامية في الأَرض خطاً ممتداً لايتوقف ولايتعطل . ويمضي الجهاد معها بذلاً وعطاء ، بذل جهد ومال ونفس ، ويظل الجهاد على هذا النحو من البذل هو الريَّ الثَّر للدعوة الإسلامية ، فهو ماؤها وغذاؤها وجوهرها ، حتى يرث الله الأَرض ومن عليها .

وقد تمرُّ بالمسلمين فترات من الابتلاء الشديد ، والتمحيص الدقيق ، وقد تختلط الأُمور وتلتبس الأَوجه وتشتد الحيرة ويمتد الظلام . وفي مثل هذه الحالات لن يجد المسلمون خيراً من كتاب الله وسنّة رسوله يعودون إليهما يتلمسون فيهما النّور والضياء والجلاء ، يتلمسون فيهما الكلمة الصادقة والنهج الصادق ، ما صدقوا الله في عودتهم ، وما أنابوا وأَخبتوا وأَسلموا ! يتلمسون الدرب الحقَّ والصراط المستقيم إذا غلبوا أولاً هواهم ، وتركوا وسوسات شياطينهم ، وأَخلصوا النيَّةَ والولاءَ والعهدَ لله سبحانه وتعالى ،

لايعطل ذلك أوثان ولا مصالح ولا شهوات الدنيا .

ولا أظنّ أن المسلمين عرفوا في تاريخهم بلاء أشد مما نعانيه اليوم ، حيث أصبح الخطر والشرك والمعصية قريباً من المسلم ، قريباً جداً ، يلقاه حوله في قُربى ورحم ، وصديق وجوار، ووطن ودار، على شتات وتمزّق ، حتى اختلطت الرايات . فنحن اليوم إذن أشد ما نكون حاجة إلى عودة صادقة لمنهاج الله ، ينبثق عنها النور ، وينطلق منها الضياء وفي هذه الكلمة السريعة نودُّ أن نأخذ قبسات من كتاب الله مع آيات بينات من سورة محمد ، آيات تعرض بعض جوانب البذل والعطاء ، وتصور عزة الموقف وعظمة الإباء :

﴿ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولاتبطلوا أعمالكم ﴾
[محمد : ٣٣]

هذه هي القاعدة الضخمة الأُولى في حياة المسلمين حين تكون الطاعة لله ولرسوله ، لا لأوثان وهوى ومصالح تغلفها أعذار وشعارات ، وعجز وضعف . وطاعة الله ورسوله هي عزيمة وقوة ، وعزة وإباء حق . هي طاعة خالية من لوثات الشرك وعصبيات الجاهلية .

فإن لم تكن الطاعة لله ولرسوله على هذه الدرجة من الصفاء ، فحينئذ يبطل عمل المسلم ، وتضيع الجهود ، وتموت البركة في البذل حتى كأنك لاترى بذلاً ولا عطاء .

وقد يخشى المؤمنون عادية الكافرين ، فهم مصدر العدوان والظلم ، والكيد والمكر فيُطَمئِنُ الله عباده المؤمنين في هذه السورة الكريمة مرة بعد مرة حتى تظل النفوس غنيّة بالثقة ، قوية بطاعتها لله ولرسوله . وتبتدىء هذه الطمأنينة مع أول السورة ، وتتأكد خلالها ، وتتجدَّد في آخرها ، ويضم الله المنافقين للكافرين في ثناياها :

﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾ [محمد : ١]

وهذه أول آية في سورة محمد وكذلك :

﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أُوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم * والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ [محمد : ١٦ ، ١٧]

وهذه في وسط السورة تقريباً ومع آخر السورة يأتي قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثمَّ ماتوا وهم كفّار فلن يغفر الله لهم ﴾
[محمد : ٣٤]

فإذا ثبتت طاعة الله ورسوله في قلوب المؤمنين تقيّة قوية ، وإذا تيَّقنت نفوس المؤمنين إلى أن مصير الكافرين إلى نار جهنّم ، فلا يبقى للمؤمنين عذر ليتخلّفوا عن بذل وجهاد ، ولايبقى لهم عذر عند الله إلاأن ينزلوا الميدان ويصدقوا الجولة ، وإلا أن يمضوا في الجهاد في سبيل الله بذلاً وعطاءً ، ويمضوا في الدعوة الإسلامية بلاغاً وبناءً وإعداداً ، فلا تعطّلهم أبداً دعوة إلى السَّلْم ، ولا يهبط بهم هوان ، ولا يُنقص الله أعمالهم . وتأتي آيات الله البينات جليّة ، لتكشف لنا هذه المعاني العظيمة من مواقف الإيمان :

﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾
[محمد : ٣٥]

كيف يهون المؤمنون ، بل كيف يدعون إلى السَّلم فتقف الدعوة وتتعطل ، ويقف الجهاد ، ويتوقف البذل والعطاء ، وينقطع الخير عن الإنسان في الأرض ؟! كيف يكون هذا والمؤمنون قد صدقوا الله ورسوله طاعةً ، فأخزى الله الكافرين وأبطل أعمالهم ، وأضلَّهم ، ولن يغفر الله لهم ، ولن يُضَيَّع الله جهودَ المؤمنين ولن يُنْقِصَ أجرهم ولاثواب أعمالهم ؟! ذلك لأنه إذا اطمأنت قلوب المؤمنين إلى هذا الحقّ وثبتت عليه ، عرفوا أن الحياة الدنيا لعب ولهو ، وأن كل مافيها متاع ، وأن البذل لله ورسوله من أعظم أعمال الدنيا وأكثرها بركة وخيراً وربحاً للإنسان المؤمن :

﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أُجوركم ولا يسالكم أموالكم * إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ﴾[محمد : ٣٦ ، ٣٧]

تصوير ربّاني دقيق لمعنى الإنفاق وأسسه وسبيله في دين الله . وإن كان القرطبي في تفسيره يقول في جملة مايقول : « أي لايأمركم بإخراج جميعها في الزكاة . . » ويورد أقوالا أُخرى فيها ، ويقول أبو حيان في تفسير البحر المحيط : « قال سفيان بن عينية أي كثيرا

من أموالكم إنما يسألكم ربع العشر . » ثم يورد أقوالاً أُخرى مثل ماقال القرطبي تقريبا . ويقول ابن كثير : « . . أي هو غنيّ عنكم لايطلب منكم شيئا وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء ليعود نفع ذلك عليكم وثوابه لكم . . » ويقول الكشاف « . . أي ولايسألكم جميعها إنما يقتصر منكم على ربع العشر . . » ويقول الطبري في تفسيره : « . . . ولايسألكم ربكم إنفاق جميع أموالكم ولكنه يكلفكم طاعته وتوحيده » وتكاد تدور معظم كتب التفسير حول هذه المعاني . ولكن القرطبي وأبا حيان يوردان عدة معاني أُخرى ومن أهمها : « . . . وقيل : ولا يسألكم محمد أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة . . . » ولكننا نرى أن الصورة أوسع مما سبق عرضه ، وأن أبعاد هذه الصورة تتضح حين تحمل المعاني ظلالها الممتدة ، ونورَها الفيّاض ، وحين تتأكد بالتناسق والترابط بين الآيات . ونرى أن هذه الآية الكريمة والآيات التي بعدها تقدم تصوراً دقيقا رائعاً لأُسس الإنفاق وميدانه وحوافزه . وينكشف لنا هذا التصوير الربّاني حين نلمس تناسق الآيات وترابطها : على النحو الذي نحاول عرضه فيما يلي :

فبعد أن يبيّن الله لعباده المؤمنين هوان الحياة الدنيا : ﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ...** ﴾ ، يبيّن لهم كذلك أن الإيمان والتقوى هما القيمة الحقيقية في الحياة الدنيا لمن آمن واتقى ، وعليهما من الله أجر وثواب ، وبسببهما يقوم الأجر والثواب من الله على عمل الإنسان ، على عمله الذي يقوم على الإيمان والتقوى : ﴿ **وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ...** ﴾ . ولا بد من أن نربط هذه الآيات الكريمة بسائر آيات الله في منهاج الله حتى تشرق الصورة المتناسقة المتكاملة ، فنرى عظمة الإيمان والتقوى وأثرهما في حياة الإنسان . فهما مصدر الخير والبركة ، والقوة والنجاح .

ومع أن الإيمان والتقوى يمثلان حقيقة مصلحة الإنسان نفسه ، وخيره هو ونفعه في الدنيا والآخرة ، مع هذا كله فقد جعل الله سبحانه وتعالى بفضله ورحمته أجراً وثوابا على ذلك ، أجراً وثواباً يؤتيه لعباده المؤمنين فضلاً منه ونعمة : ﴿ **يؤتكم أُجوركم ..** ﴾ ويمتدُّ الأجر والثواب مع عمل الإنسان المؤمن الصادق في حياته الدنيا ليجد ذلك كلّه خيراً ونعيماً في الآخرة .

ومع أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يهب عباده الإيمان والتقوى ، فالله يهدي من يشاء ويضل من يشاء رحمة منه وعدلاً ، ومع أن الله جعل لعباده المؤمنين الأجر والثواب ينالونه فضلاً من الله ونعمة ورحمة منه بإيمانهم وتقواهم ، فمع هذا كله فإن الله سبحانه وتعالى لايسأل الناس أموالهم كلها أو بعضها كثيراً منها أو قليلا منها ، عوضاً عن فضله ونعمته تلك عليهم بالإيمان والتقوى الذي هداهم إليه ، وبالأجر والثواب الذي كتبه هو لهم عليه : ﴿ **... ولايسالكم أموالكم** ﴾ .

ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لو أراد أن يسأل عباده المؤمنين أموالهم عوضاً عن فضله عليهم ونعمته عليهم ، أو أجراً للأنبياء والمرسلين الذين يبلغون رسالات الله ، لو أراد الله أن يسأل الناس أموالهم على ذلك : ﴿ **إن يسالكموها ...** ﴾ إذن لسأل الناس كلّ أموالهم وألح في طلبها وسؤالها ﴿ **... فيحفكم ..** ﴾ وهي كلها لاتكفي أبداً أبداً .

ولو فعل الله ذلك وسأل الناس أموالهم كلها وألح في طلبها لظهرت عندئذ أضغان الناس ، وانكشفت كراهية الإنفاق ، ووضح حب النفوس للمال وتمسكها به ، ولبخل الناس وضنّوا ، وأمسكوا وأحجموا .

إذن ليس هذا هو ميدان الإنفاق الذي يدعو الله عباده ليُنفقوا فيه من أموالهم ، ليس هذا إذن هو ميدان البذل والعطاء ، ولكن ميدان البذل والعطاء ، ميدان الإنفاق ، هو ميدان آخر فتَحه الله لعباده المؤمنين ليتسابقوا فيه ، ليتنافسوا فيه ، على إيمان وتقوى :

﴿ **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنيّ وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثمَّ لايكونوا أمثالكم** ﴾ [محمد : ٣٨]

نعم ! هذا هو ميدان الإنفاق الذي يدعو الله عباده المؤمنين لينفقوا فيه ، من أجل خيرهم وصلاح حياتهم في الدنيا ، ونجاتهم في الآخرة : ﴿ **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله ...** ﴾ هذا هو ميدان البذل والعطاء والإنفاق : ﴿ **... في سبيل الله..** ﴾ ، لا في سبيل شهوة قاتلة ، أو هوى مضل ، أو مصالح كاذبة وتجارة خاسرة ، في سبيل الله ، لا في سبيل الشيطان ، ولا في سبيل أي شيء آخر . في سبيل الله وحده ، في

سبيلٍ واحدةٍ على صراط مستقيم ، على طريق يربط الدنيا بالآخرة ، فتمتد الحياة عملاً صالحاً ، وإيماناً وتقوى ، وجهاداً وبذلاً ، وعطاءً وإنفاقاً .

في سبيل الله ! إنفاق خاضع لأحكام الله ، لدينه وشرعه . إنفاق يدفعه المؤمن بنيّة صادقة تقيّة خالصة لله سبحانه وتعالى . إنفاق يبني حياة الإنسان صالحة طاهرة ، غنية نقية ، عاملة باذلة مجاهدة . هو إنفاق على مسعى أو إنفاق على جهد ، أو إنفاق لإسعاد مؤمن ولقوته وسدّ حاجته ، حين يكون هذا كله ، وكثير غيره ، يصبُّ في هدف رئيس واحد هو : « أن تكون كلمة الله هي العليا » . هدف عظيم لأُمة عظيمة تحمل رسالة عظيمة ، فيها يجد الناس جميعهم أمنهم وأمانهم ، وسعادتهم وعزّهم . ومع عظمة هذا الإنفاق وبركته وخيره ، فمن الناس من يبخل فلا ينفق :

﴿ ... **فمنكم من يبخل** ... ﴾ وحين يبخل الإنسان يكون هو الخاسر الوحيد ، وحين ينفق يكون هو أول الرابحين . يبخل بعض الناس حين يجهل الخير العظيم الذي يناله بالإنفاق ، أو حين يضعف إيمانه أو حين يضيق نظرته فلا يدرك أنه حين يمسك يده عن الإنفاق ويبخل ، فإنما يقطع بذلك الخير عن نفسه هو ، وكأنما يكون بذلك قد بخل عن نفسه . ذلك لأنه حين يتوقف هذا الإنفاق تتعطل مصالح العباد ، وتضعف الأُمة بترك الجهاد ، فتستباح ديار وحرمات ، فتستباح داره وحرماته ، ويضيع الأمن وينتشر الفساد والضلال ، حتى يكون الممسك يده عن البذل والإنفاق هو أول الخاسرين ، يأخذه البلاء كما يأخذ غيره :

﴿ **.. ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنيّ وأنتم الفقراء ..** ﴾

نعم يكون الممسك عن الإنفاق كأنما قد بخل عن نفسه . فهو الذي يحتاج إلى هذا الإنفاق الذي يعود خيره عليه بطاعته لله ، ونواله الأجر والثواب ، وبصلاح الأُمة وامتداد قوتها . فالله غنيّ عن هذا الإنفاق ، لايحتاجه هو سبحانه وتعالى ، وهو الغنيّ عن الخلق جميعا ، ولكن الناس هم الفقراء ، هم الذين يحتاجون إلى رزق من عند الله ، فهو وحده الرزّاق ذو القوة المتين . إنه خير الإنسان ، خير البشرية كلها .

لا بدَّ من هذا الإنفاق في هذا الميدان الذي يدعونا الله إليه : ﴿ **... في سبيل الله ..** ﴾ ،

حتى تصلح حياة الناس وتستقيم ، وحتى تمتد نعمة الله وفضله على عباده ، وحتى يسود الأمن في حياة البشرية ، ويقوم العدل بين الخلق ، ذلك لأن الإسلام وحده هو الذي يستطيع أن يحقق هذا كله .

لا بُدّ من أن يستمر هذا الإنفاق حتى تستمر دعوة الله ، دعوة الإسلام ، الدعوة إلى الله ورسوله ، وحتى يستمر الجهاد في سبيل الله ماضياً إلى يوم القيامة ، يَمده المؤمنون بالوقود والطاقة : مالاً وجهداً ونفساً ، حتى يمضي بإذن الله إلى الهدف العظيم : «لتكون كلمة الله هي العليا » ، وإلى الهدف الأعظم : « إلى الجنة » !

لا بُدّ من أن يستمر هذا الإنفاق الذي ترتبط به الدعوة الإسلامية ، ويرتبط به الجهاد في سبيل الله ، ويرتبط به صلاح حياة الإنسان على الأرض ، ونجاته في الآخرة ، وترتبط به قوة المؤمنين وعزتهم أُمة واحدة متماسكة على طاعة الله ورسوله ، لابد من أن يستمر هذا الإنفاق ، فإن تولى الناس عنه ، إن تولوا عن هذا الواجب العظيم ، فإن الله يستبدل قوما غيرهم ينفقون الإنفاق الحق فلا يكونون أمثال أولئك الذين بخلوا وتولوا ، ينفقون الإنفاق الحق حتى لايهونوا ولايذلوا ، ولا تضيع ديارهم :

﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونوا أمثالكم ﴾

نعم ! يستبدل قوماً غير أولئك ، قوما ينفقون حتى لا يجروا لاهثين في ذلة وهوان يستجدون السَّلْم :

﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ... ﴾

قوماً ينفقون حتى تظل الدعوة الإسلامية ماضية ، والجهاد ماضياً ، والأُمة عزيزة قوية ، لاتستجدي السَّلْمَ ولاتستجدي الصلح ، ولا تبيع ديار المسلمين ، ولاتساوم على حق لله ، أو حق للمؤمنين .

إن هذا الإنفاق في سبيل الله ، والجهاد الذي يقوم عليه في سبيل الله ، ليس إنفاقاً يهدف لتحقيق مصالح فرد على حساب فرد آخر ، ولامصالح شعب على حساب مصالح شعب آخر . كلاّ ! إنه إنفاق لمصلحة الإنسان ، لمصلحة الناس كلهم ، لمصلحة البشرية كلها .

إن في الأرض مجرمين ينفقون أموالهم لنشر الفتنة والفساد ، والظلم والعدوان ، والجريمة الفاحشة ، حتى يذهب الأَمن ويغيب العدل ، ويمتد الخدَرُ في حياة الناس ليحسبوا شقاءهم نعيماً . فمن لهؤلاء المجرمين الظالمين ، من لهؤلاء المفسدين المستكبرين؟! ليس لهؤلاء إلا جنود الحق الصادقين ، الذين آمنوا بالله ورسله ، والذين صدق ولاؤهم الأول لله ينبع منه كل ولاء آخر ، والذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه . هؤلاء يجب أَن ينفقوا في هذه السبيل التي عرضناها ، لا في أي سبيل آخر ، لافي سبيل عصبية جاهلية ، ولا في سبيل عدوان ظالم .

هذا هو باب الإنفاق الذي يدعو الله إليه ، إنفاق في سبيل الله ، وليس إنفاقاً عوضاً عن فضل الله على الناس ، ولا أَجراً للأنبياء والمرسلين . فإن فضل الله ورحمته ، وإن أَجر الأنبياء والمرسلين لا تكفي الأَموال كلها للوفاء بها . ولو أَن الله سأل الناس أَن ينفقوا من أجل ذلك ، فإنه سيسأل الناس أموالهم كلها ، فتنكشف عندئذ حقائق النفوس وشحُّها ، وينكشف ضعفها . إن الله رحيم بعباده فسألهم أن ينفقوا من أجل خيرهم ومصلحتهم هم ، في الدنيا والآخرة ، سألهم أن ينفقوا إنفاقاً لايخسرون معه أبداً . إنه الإنفاق في سبيل الله .

وفي منهاج الله عرض مفصّل متكامل للإنفاق في سبيل الله ، ليغطي هذا المنهج جميع ميادين الإنفاق في حياة المسلم والجماعة والأُمة ، وليظلَّ الإنفاق كله إنفاقاً في سبيل الله ، إنفاقاً يهب العزّة والقوّة والغِنى للمسلمين ، ويهب الصلاح والأمن والخير للإنسان على الأرض ، للبشرية كلها .

فلا بد للمسلم أَن يعود لمنهاج الله ليجد هناك التفصيلات الوافية لمنهج الإنفاق في سبيل الله ، ليتعلّم ويتدبّر ، ثم ليلتزم ويطبّق ذلك في حياته ، ولينصح للمسلمين عامة بذلك .

لقد عرضنا هنا قبسات لنجلو بها طرَفاً من هذا المنهج الربانيّ في الإنفاق ، حيث لانستطيع ، ولا يستطيع أحد من البشر أن يعرض ما عرضه منهاج الله بإعجازه العظيم .

الفصل الرابع
الربـا
فتنة في الأرض وفساد كبير
مع آيات من سورة البقرة

﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهـار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهـم يحزنون* الذين يأكلـون الربـا لا يقومـون إلا كما يقوم الذي يتخبّطـه الشيطان من المسّ ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الـربا وأحل الله البيع وحرّم الـربا فمن جاءه مـوعظة من ربـه فانتهى فله مـاسلف وأمره إلى الله ومن عـاد فأولئك أصحـاب النار هـم فيها خـالـدون* يمحق الله الـربا ويـربي الصدقات والله لايحبّ كلّ كفار أثيم * إن الذين آمنـوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتـوا الزكـاة لهم أجرهم عنـد ربهم ولا خوف عليهم ولاهـم يحزنون * يـا أيها الذين آمنـوا اتقوا الله وذروا مـا بقي من الـربا إن كنتم مـؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله * وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون* وإن كان ذو عسرة فنظـرة إلى ميسرة وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمـون* واتقوا يـومـاً ترجعـون فيه إلى الله ثمّ تـوفّى كل نفس مـاكسبت وهم لايظلمون﴾ [البقرة : ٢٧٥ - ٢٨١]

وعن عبدالله بن مسعـود عن النبيّ ﷺ قال : « لعن الله آكل الربـا وموكله وشـاهده وكاتبه » (١)

في هذه الـوقفات التي نعرضها في هـذا الكتاب ، لانقصد أن نأخذ كل آيـة أو كلمة فنفسّرهـا . فهـذا مكـانـه كتب التفسير . ولكننـا نقف وقفـات معهـا لنـدرس بعض الاضطـراب فيما ورد لها من تفسير في بعض الكتـب ، أو فيما ورد من حيرة واضطـراب في ممارستها في الواقع البشريّ ، وخاصة في واقعنا المعاصر ، واضطراب في الفهم والتقدير .

ولقد رأينـا في الآيات الكريمـة السابقة التي عرضناهـا ، كيف أَن تفسيرها في بعض

---

(١) رواه أحمد وأبوداود والترمـذي وابن ماجـه وذكره الألبـاني في صحيح الجامع الصغير تحت رقم (٤٩٦٥) - الطبعة الثـالثة

كتب التفسير وقع فيه اضطراب بسبب ماتسلل إلينا من إسرائيليات ، أو بسبب عدم ربط الآية بغيرها من الآيات في كتاب الله مما يتعلق بموضوعها ، أو بالأحاديث الصحيحة المتعلقة بها من جانب أو أكثر ، أو بسبب ماتسرَّب إلينا من أفكار من الحضارة المادية الغربية .

مع آيات الربا هذه في سورة البقرة ، نعتقد أن معظم الاضطراب وقع في الممارسة في واقعنا المعاصر ، حين جابه المسلمون واقعا جديداً مليئاً بالأحداث والنظم والأفكار ، زاحفة إلينا من الحضارة المادية الغربية الرأسمالية ، أو الحضارة المادية الملحدة الشيوعية ، أو من الوثنيات المتعدّدة المنتشرة في الأرض اليوم .

جابه المسلمون هذا الواقع الجديد الزاحف علينا بجيوشه ودباباته وطائراته وصواريخه وسلاحه النووي ، وبشركاته ومؤسساته وإدارتها ونظمها ، وبتطوره الفنّي والعلمي المادي، وبما يدفع هذا كله من فكر وفلسفة وأدب ، واقتصاد ونظام اجتماعي متحلل إباحي ، وبالجنس الملتهب الفاجر ، والخمور والمخدرات ، واستغلال مخدِّر إجرامي في تحريف الدين وإخراجه عن نهجه الإنساني الحق ، وعن رسالة الأنبياء ، حيناً بخنقه في الكنائس ، وحينا بإطلاقه في خط منحرف ، ليحموا بهذا كله مصالح طبقة معينة جشعة بأطماعها ، مجرمة في وسائلها ، ممتدة في عدوانها وظلمها ونشرفسادها في الأرض تحت رايات وشعارات كاذبة خادعة مخدّرة .

من خلال هذا كله وكثير غيره ، خرج النظام الاقتصادي العالمي اليوم ، قوياً بسلاحه وعدده ، تحميه جيوش وجيوش ، ويسنده نظام إداري متطور ، ونظام عالمي واسع .

ويتقدم هذا النظام العالمي « **الجديد القديم** » بإمكاناته هذه ليغزو العالم كله ، والعالم الإسلامي بصورة خاصة ، وهو يحمل نهجاً محدداً وخطة مدروسة وأهدافاً إجرامية محدّدة مدروسة خفيّة أو علنية .

ويجابه المسلمون اليوم هذا كله وهم لايحملون نهجاً جلياً مفصّلاً ، ولا خُطَّة عملية تطبيقية مدروسة ، ولا أهدافاً مفصلة محدّدة ولا مراحل واعية تطبيقية . جابهوا الأحداث لذلك من خلال مواقف يغلب عليها الارتجال والعاطفة وردود الفعل من ناحية ، والتفرّق

والشتات من ناحية أُخرى . وأَصبحت كل طائفة تجابه وحدها ذلك الصف المتراص من النظام العالمي ، حتى كاد يسهل على النظام العالمي سحق هذا وحده ، وسحق ذاك وحده . وسهل عليه كذلك العمل على زيادة التمزيق والفرقة ، وإغراء الأهواء وزيادة تضاربها ، حتى يصبح العالم الإسلامي ساحات متفرّقة من اللهيب المشتعل .

وكان من أَخطر ماجابه العالم الإسلامي من هذا الغزو الواسع الغزو الاقتصاديّ بنظرياته ومؤسساته وإمكاناته الهائلة ، بالإضافة إلى القوى الأُخرى التي سبق تعدادها .

وجابه المسلمون هذا الغزو الاقتصادي وهم لايملكون تفصيلات تطبيقية عملية لنظرياتهم ، ولايملكون خطة مدروسة لمجابهة هذا الغزو ، ولايملكون صورة واعية وخطاباً واعياً يخاطبون به العالم ، ليبلِّغوا رسالة الله إلى العالم كله ، وليتقدَّموا بنظام اقتصادي بديل يحمل نظريته وخطته ومؤسساته الميدانية ، ليجابهوا نهج أولئك وخطتهم ومؤسساتهم وليكون هذا كله جزءاً من الدعوة الإسلامية التي نريد أن نبلغها للناس .

وحدث أَن لو أَقمنا مؤسسة تحمل الشعار الإسلامي ، فلا تكاد تقوم حتى تبدو كأنها خضعت لنهج أُولئك وأساليبهم ونظرياتهم ، مع جملة مانخضع له من سائر مظاهر حضارتهم وزخارفها .

إننا لانملك النظام الإداري الإيمانيّ المفصّل ، لنجابه به نظامهم الإداري المادي وتفصيلاته . والإدارة أصبحت أساساً لكل نشاط الإنسان مهما كان نوعه . ولابأس أَن نأخذ بعض مايصلح لنا دون أن نخضع لفلسفة نظامهم وفكره . ولكن الذي حدث في واقعنا أن أخذنا الفلسفةوالفكر والنظام والتفصيلات دون نظر أَو تمحيص ، تقليداً أَعمى وخضوعاً كاملاً ، واستسلام العاجز المفلس ، إلا من رحم ربك !

من هنا أَصبحت بعض أفكار المسلمين وآرائهم تصدر متأثرة بهذا الطوفان الهائل ، حتى كأن بعضهم يُصَدِّر لنا آراء أولئك من الغرب أو الشرق مغلَّفة بشعار إسلاميّ رقيق أو غليظ . فلا بد من مراجعة أفكارنا وعرضها على الكتاب والسنة ، على منهاج الله ، المنهاج الحق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، حتى نميز الحق من الباطل، وحتى تصفو أفكارنا وآراؤنا نقيّة من الهوى والفتنة ، ومما قد يتسلل إلينا من أفكار أولئك مما يخالف دين الله .

و « الربا » هو من أخطر ماحرّم الله سبحانه وتعالى كما رأينا في الآيات الخاصة بالربا في سورة البقرة والتي عرضناها في أول هذا البحث . فلم يأت في شيء حرمه الله مثل ماورد في تحريم الربا ﴿.. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ... ﴾ .

وجاءت الأحاديث الشريفة تجعل هذا التحريم أشد من أي تحريم آخر عرضته مثل تحريم الخمر وترجّل النساء وتشبه الرجال بالنساء وغير ذلك .

جاء التحريم شديداً قوياً يحمل اللعنة على كل من شارك في الربا . ولننظر في أحاديث رسول الله ﷺ ، بعد أن تدبرنا الآيات الكريمة ، لندرك شدّة التحريم ، وخطورة القضية المعروضة على ضوء منهاج الله :

فعن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه »[1]

وعن جابر عن النبي ﷺ أنه قال : « لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه هم فيه سواء »[2] .

وعن ابن مسعود أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال « لعن الله الربا ، وآكله ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهده ، وهو يعلمون ، والواصلة ، والمستوصلة ، والواشمة ، والمستوشمة والنامصة والمتنمصة[3]

لعنة من الله إثر لعنة تتبع الربا ومن يتعامل به . لعنة تكشف لنا خطورة القضية وأهميتها في حياة الإنسان على الأرض ، كما بيّنتها لنا الآيات الكريمة التي سبق عرضها . إنها قضية تمس الإنسان ، والشعوب كلها في جميع العصور والأزمان .

لقد عرفنا حتى الآن طرفاً من الواقع الذي يمس القضية التي ندرسها قضية الربا ، وعرفنا خطورة هذه القضية من خلال منهاج الله . وعلينا أن ندرس القضية ذاتها ، ماهو الربا ؟!

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته للالباني : (رقم : ٤٩٦٥) وقال رواه أحمد وأبوداود والترمذي وابن ماجه .
(٢) المصدر السابق : (رقم : ٤٩٦٦) وقال رواه أحمد ومسلم .
(٣) المصدر السابق (رقم : ٤٩٧٠) وقال رواه الطبراني في الكبير.

من الآيات والأحـاديث نجد أن القضيـة كانت واضحة جليـة في أذهان المسلمين . كانت واضحة لأن الربـا كان قبل نزول هذا التحريم ، ممارسـاً في الواقع ، يتولى كبره أولاً اليهـود وكذلك العـرب وهو يقتفـون أثـر اليهود في كثير من أمـور حياتهم ، وعلى رأسهـا النشاط الاقتصادي .

لقد نشر اليهود نظام الربا كتعامل اقتصـادي وامتدَّ أثره حتى صار هذا النظام مقبولاً لدى الكثيرين من العرب . ولما انطلقت الدعوة الإسلاميـة من مكة المكرمة ثم من المدينة المنـورة بعـد الهجرة خـاضَ الإسـلام ميـادين متعـددة على نهج وخطة . خـاض الميـدان العسكري ليكون عـاملاً من عوامل الدعـوة وقوة من قواها ، ولتظـل دعوة الناس إلى الله ورسوله وتعهدهم على ذلـك وبناء الجيل المؤمن أهدافاً ثابتة متنـاسقة مترابطة ، لاتتوقف ولاينفصل بعضهـا عن بعض ولا عن الأهـداف التي تليها كـالجهـاد في سبيل الله وغيره . وخـاض الإسلام المعـركة الاقتصـاديـة ليغيّر النظام الاقتصـادي السائد آنـذاك . وانتصر الإسلام في الميدان الاقتصادي كما انتصر في الميدان السياسي والعسكري ، والميدان الاجتماعي .

وكان أهم مايميّـز هذه المسيرة بناء الجيل المؤمن الذي يلتزم منهـاج الله إيماناً ويقيناً ، وعلماً وعمـلاً . وكـذلك وجـود النهج والخطـة والأهـداف والمراحل . وكـذلك الـدعـوة الإسـلامية تقـودها النبـوة الخاتمة تجمع من خـلال النهج والمراحل جميع ميادين الحيـاة ، ليسند كل ميدان سائر الميادين .

كـان الجيل المؤمن يمثل صفاً واحـداً كـالبنيان المرصـوص . وكـان كل مؤمن يبـذل وسعه وطاقته من خلال إدارة محكمة دقيقـة . وكان ذلك كله يصب في الميادين من خلال الخطة والنهج والإدارة ، ومن خلال تناسق الميادين وترابطها وتساندها .

وجاءت آيـات الربـا هذه لتمثل لحظة عظيمـة من لحظات الانتصـار الاقتصادي . ولقد اشتدّ الأمر على اليهـود حتى قالوا : ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء . . . .** ﴾ [المائدة : ٦٤]

وعبر الرسول ﷺ عن هذا النصر الاقتصادي في حجة الوداع حين قال : « **ألا إن كل ربا كـان في الجاهلية موضـوع عنكم كله ، لكم رؤوس أموالكم لاتظلمـون ولاتظلمون،**

وأول ربا موضوع هو ربا العباس بن عبدالمطلب موضوع كله » [رواه ابن أبي حاتم][1]

إن هذا الإعلان النبوي كان يعني شيئاً كثيراً . كان يعني انهيار النظام الاقتصادي الربويّ كلّه ، النظام الذي نشره اليهود حتى امتد بين العرب ، فكان العباس وغيره يتعاملون بالربا . وكان يعني بدء نظام اقتصادي جديد له قواعده المتماسكة الراسخة ، قواعده المفصلة في كتاب الله وسنة نبيه ، قواعده التي أخذت طريقها إلى حياة الناس وواقعهم .

ولم يأت هذا التحريم مفاجئاً . إنما كان نهاية مرحلة من الصراع امتدت مع مسيرة الدعوة الإسلامية ، كما امتد الصراع الفكريّ والسياسي وغيرهما . وحجة الوداع ذاتها تمثل ذروة انتصار الإسلام في ميادينه كلها ، واكتمال الرسالة الربانية : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ...** ﴾ [المائدة : ٣]

لقد جابه الإسلام الواقع آنذاك ، وقدّم بديلاً لكل واقع يريد تغييره فرسَّخ قواعد النظام الاقتصادي الإسلامي حتى استقرت في النفوس وفي الواقع والتعامل بين الناس ، وعند ذلك جاء التحريم قاطعاً حاسماً فاصلاً شديداً .

هذا النظام الاقتصادي الإسلامي جاء نظاماً عاماً للبشرية كلها في كل عصر وكل واقع . لم تكن قواعده ولا سائر قواعد هذا الدين وتشريعه خاصة بذلك الواقع آنذاك . إنما جاءت تحمل في ذاتها أعظم عمق إنساني وأعظم بعد عالمي ، جزءاً لايتجزأ من نهج رباني متكامل مترابط متماسك للناس كافة ، للعالمين ، للبشرية كلها .

ولكن هذا العمق الإنساني والبعد العالمي يبهت أو يضطرب أو يفقد القدرة على ممارسته إذا أُخذ معزولاً عن منهاج الله . وكذلك كل تشريعات الإسلام تفقد الكثير اذا عزلت عن منهاج الله . فترابط منهاج الله وتناسقه هو الذي يوفّر العمق الإنساني والبعد العالمي لتشريعاته ولكل قاعدة من قواعده ، في صورة معجزة كل الإعجاز ، وفي الوقت نفسه ميسّرة كل التيسير :

﴿ **ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾ [القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ : ٤٠]

وهذا التيسير هو جزء من إعجاز منهاج الله ومثل عليه .

(١) تفسير ابن كثير لآيات الربا .

أدركنا الآن شدّة التحريم الذي ورد عن الربا في الكتاب والسنّة . وأدركنا أن التحريم لم يكن لمصلحة شعب واحد أو قطر واحد ، وإنما جاء التحريم لمصلحة الإنسان، الناس كافة ، البشرية كلها في مختلف العصور والبقاع ، لشدة فساد الربا وتدميره لحياة الإنسان .

لذلك جاء تحريمه في جميع الأديان السماوية : اليهودية والنصرانية ثم الرسالة الخاتمة ألا وهي الإسلام . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك :

﴿ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾ [النساء : ١٦١]

فقد حرّم الله الربا في جميع رسالاته ، ولكن أهل الكتاب أخذوا الربا وأكلوه بالرغم من تحريمه ، وأكلوا أموال الناس بالباطل . وهذه إشارة إلى فساد النظام الاقتصادي القائم على الربا ، لأنه يفتح أبواباً كثيرة يأكل من خلالها المجرمون أموال الناس بالباطل . ولا أدل على ذلك من النظام الرأسمالي أو الاشتراكي أو الشيوعي .

لابد للمسلم أن يتدبّر الآيات المتعلقة بالربا في كتاب الله ، ويعيد تلاوتها وتدبرها . ولا بد للمسلم أن يدرس الأحاديث المتعلقة بذلك ويتدبّرها . ولقد أخذنا في بحثنا هذا بقبسات فقط من الكتاب والسنة ولكن منهاج الله يعرض الصورة الأوسع والأشمل . فلا بد للمسلم أن يعود لمنهاج الله ليتدبر ويعيد التدبر ! .

في واقعنا اليوم ، نظام اقتصادي عالمي يقوم كله على الربا وعلى أكل مال الناس بالباطل كما مرّ معنا قبل قليل . يقود هذا النظام الأقتصاديَّ علومٌ وتقنية ، ونظمٌ إدارية متطورة تحميه ، وهيئات ومؤسسات تعمل ليل نهار ، لتوفّر للمجرمين في الأرض ، كما يسميهم القرآن الكريم ، وسائل نهب الشعوب ونهب ثرواتها ، وإفقارها وتجويعها ، ليعيش هؤلاء المجرمون متخمين . ويقود هذا النظام الاقتصادي سياسة ونظام سياسي عالمي كذلك . الاقتصاد يخدم السياسة ، والسياسة تخدم الاقتصاد ، وكلاهما يدمران الحياة البشرية ما داما منطلقين من الحضارة الغربية وفلسفتها ومؤسساتها .

لقد تسلل الإنجليز إلى الهند متسترين بالشركات التجارية والحركات التنصيرية

حتى حكموا الهند مباشرة وأسقطوا دولة المغول المسلمة سنة ١٨٥٨م . وخرج الإنكليز من الهند سنة ١٩٤٧م ، بعد أن تركوا الهند ممزّقة فقيرة ، وشعبها ممزّقاً فقيراً ، على غنى ثروة البلاد التي نهبوها ونقلوها لبلادهم ، وتركوا مئات الملايين يعيشون في الهند في فقر مدقع ، وعري وبلاء ، وبيوت من الزنك ، وأوساخ تملأ الطرقات والزوايا والساحات هنا وهناك. واليوم ينتشر الطاعون في الهند! لقد تأخر كثيراً ! ولكنها رحمة الله وسننُه الماضية في خلقه على حكمة بالغة وقدر غالب .

وهذه الصومال ، وهذه رواندا ، وهذه دول كثيرة في افريقيا امتصت فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وغيرها من الدول الأوروبية خيراتها ونقلتها إلى بلادها من خلال حركات تنصيرية وشركات تجارية وجيوش زاحفة مدمرة ، كلهم يعملون لحساب عصابات المجرمين ، عصابات الربا والزنا والفتنة في الأرض .

إن العدد الأكبر من سكان الكرة الأرضية يعيشون في مستوى واضح من الحرمان ، ونسبة كبيرة تعيش في فقر مدقع ، ليعيش العدد القليل في تخمة وجشع ولهو بين الخمر والنساء والمخدرات . ثم يطلقون من قلب هذا الفجور شعارات : حقوق الإنسان ، حقوق المرأة ، رعاية الطفولة ، ويقيمون مؤسسات ومؤسسات لترسِّخ فجورهم وعدوانهم وظلمهم .

سيظل النظام الربوي يفسد في الأرض بين أزمات اقتصادية وبطالة وحروب مشتعلة زادت عن (١٤٠) حرباً في القرن العشرين ، وزاد ضحاياها من القتلى عن (١٢٣) مليوناً من البشر ، وبين أمراض تتجدّد ، وأمراض جديدة ، وفزع وقلق ، وعاهات ، وخمور ومخدرات ، وزنا ولواط وسائر أنواع الفاحشة ، وتمزيق الأرحام ، وتمزيق روابط الأُسرة وسائر روابط الإنسان بالإنسان . سيظل النظام الربوي ينشر الفتنة والفساد في الأرض ، حتى يأذن الله بظهور نظام اقتصادي ربّاني إيمانيّ يقضي على الاستغلال والاحتكار والربا وأكل أموال الناس بالباطل ، يحمله جنود ربّانيون جزءاً واضحاً مفصلاً من رسالة الله ودينه ، جنود ربّانيون يدعون إلى الله ورسوله إلى دينه الحق على تكامله وتناسقه وترابطه ، ولا يُقَطِّعون الدين أجزاءً متفرقّة ، كما فعل أهل الكتاب حتى استحلوا الربا .

﴿ وقل إني أنا النذير المبين * كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن

عضين * فوربّك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون ﴾ [الحجر : ٨٩ - ٩٣]

ولا تراهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، كما فعل أيضاً أهل الكتاب :

﴿ ... أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يُرَدّون إلى أشدّ العذاب وماالله بغافل عما تعملون ﴾ [البقرة : ٨٥]

ولاتراهم يؤوّلون كتاب الله ولا يلوون آياته ، ولا يقعون فيما وقع أهل الكتاب قبلهم ، ولايجعلون الكتاب والسنة أمانيّ وظنوناً وأوهاماً عن جهل وهوى :

﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون ﴾ [البقرة : ٧٥]

﴿ ومنهم أُميون لايعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم الا يظنون ﴾

[البقرة : ٧٨]

في واقع الشعوب كلها اليوم مؤسسات ربوية واضحة ، وأخرى تخلط الربا بغيره فيفسد كله . تواجه الشعوب هذا الواقع الممتد والنظام الاقتصادي العالمي الربوي دون أن يكون لديهم بديل مفصّل قابل للتطبيق أو النمو ، بديل قائم على مؤسسات إيمانية ربانية تحمل النظرية والتطبيق ، والنهج والخطة ، والنظام والإدارة . فكانت المجابهة إما استسلاماً وعجزاً وهواناً ، وإما ردود فعل وارتجالاً . كانت في جميع الحالات مجابهة عزلت ميداناً عن ميدان ، وقضية عن قضية ، وعزلت ذلك كله عن الإيمان والتوحيد ، تحت شعار العلمانية اللادينية حيناً ، أو الديمقراطية حينا آخر ، أو الاشتراكية ، إلى غير ذلك من الشعارات والرايات. لايستطيع المسلم الفرد أن يجابه هذا الواقع وحده ، وقد عجزت الشعوب عن مجابهته . وتحت تأثير هذا الضغط أخذت تظهر بعض الفتاوى بتحليل الربا أو بعض أجزائه ومؤسساته . وربما قامت محاولات لبناء مؤسسات إيمانية في عالم يموج بالمؤسسات الربوية ، لاتكاد تجد فرصة للنمو ، بل ربّما اضطرت إلى الخضوع للنظام الربوي ومؤسساته والتعامل معها .

لامجال في الإسلام لتحليل أي شكل من أشكال الربا . وجميع المحاولات للتوفيق بين الإسلام والنظام الربوي هي أشبه ماتكون بمحاولات التوفيق بين الإسلام والشيوعية أو الأديان الأخرى .

ليست مهمتنا أن نحاول التوفيق . فهذه جهود ضائعة . إنَّ مهمتنا ومسئوليتنا الأولى أن ندعو للإسلام وحده ، فالإسلام هو الدين عند الله ، ولا مجال للتوفيق بينه وبين مذاهب وديانات أخرى :

﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أُوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾

[آل عمران : ١٩]

عندما يتعامل المسلم مع هذه المؤسسات ، فلن يكون له عذر إلا الضرورة التي يقبلها الله ، لا لأن هذا الباب من الربا حلال وهذا حرام . كل أبواب الربا حرام .

فعن البراء عن الرسول ﷺ قال : « **الربا اثنان وسبعون باباً أدناها مثل إتيان الرجل أمه ، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه** » [رواه الطبراني في الأوسط] [١]

وحين يتعامل المسلم مع مؤسسة ربوية ، ويعتبر أن التعامل حلال وجائز إذا وضع ماله في هذا الحساب بدلاً من ذلك ، فهذا خطأ ووهم . فلا تفريق في المال في المؤسسات الربوية إلا في السجلات . وأما في التطبيق والعمل التجاري والاقتصادي والمالي فالمال كله يعمل في منهج واحد .

فلا يحل هذا التعامل إلا تحت باب الضرورة فيغفر الله لمن يشاء ويعذب من يشاء ، على أن يسعى المؤمنون لإيجاد النظام الاقتصادي الإيماني البديل . والفائدة (أي الربا) حاصلة في هذا السبيل أو ذاك السبيل والفرق بين الحالتين أنك تتسلم الربا في حالة ، وتتبرّع به للمؤسسة في الحالة الثانية . ومن الناحية الشرعية تُعتَبر أنك تعاملت بالربا . لأن التعامل بالربا لايُشترَط فيه القبض ، ولكن الإرادة والاتفاق والقبول هي الأساس .

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني : (رقم : ٣٥٣١)

وربما تحت ضغط هـذا الـواقع أفتى بعضهم بجـواز أخـذ الفـائدة من المؤسسـة والتصدق بها ولن يكون لصـاحبها أجر وثواب عنـد الله وذلك لأن الفائدة مال غير طيب والله لايقبل الا طيباً . ولكن يبقى للرجل رأس ماله يأخذه طيباً .

هـذا الرأي صـدر من أكثـر من جهة . ولانعتقـد أن هـذا الرأي يستقيم مع الآيـات والأحاديث وواقع المؤسسات المالية .

أولاً : مسوّغ لأن يقول أحـد : تصدّق بهذا المال على الفقـراء ولا أجـر لك . فالـذي يهب الأجر والثـواب والمغفرة هـو الله وحده ، وليس لعلماء الأرض كلهـا أن يتدخلـوا في أمر اختص الله به ، ولم يأذن لأحد من خلقه أن يشتركوا فيه ، إلا بالدعاء إليه سبحانه وتعالى .

ثانياً : لامجال للقول بأن الفـائدة مال غير طيب وبأن رأس المال طيب معتمدين على قوله سبحانه وتعالى :

﴿ ... فإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾

فإن هـذه الآية ذاتها تنقض القـول السابق . ذلك لأنها اشترطت لحلّ أخـذ رأس المال التوقف عن التعـامل بالـربا والانتهاء منـه والتوبة إلى الله سبحـانه وتعالى . أمـا اذا استمر الرجل يتعـامل بالربا فكيـف يطيب رأس المال دون الفائدة ؟! إذا استمر الربـا فرأس المال والربا مشتركان معاً في الإثم ، ولايطيب رأس المال إلا اذا توقف الربا برحمة من الله وفضل .

ليس أمام المسلمين اليوم إلا أحد سبيلين :

أولاً : بناء النظام الاقتصادي الرباني على أساس من نظريته وقواعده في منهاج الله . وهذا يتطلـب أن يتوب المسلمون إلى الله ، ويصـدقوا الله في إيمانهم وعلمهم ، حتـى تزول الفرقة والشقاق والتـدابر ويصبح المسلمون الصادقون أُمة واحدة . وهذا هو السبيل الذي يأمر به الله .

ثـانيا : الاستسـلام ، استسلام العـاجـز ، واعتبار أن الـربا ومـؤسسـاته أمـر واقع لايستطيع تجنبهـا . فيظل المسلم محاسباً على عجـزه وتقصيره ، ويغفـر الله لمن يشـاء ويعذّب من يشاء .

وفي جميع الحالات ، فهذه إحدى المشكلات التي تجابه الإنسان اليوم ، وتجابه العالم الإسلامي .

والعالم الإسلامي هو القادر على التقدم لحل هذه المشكلة وتقديم البديل . ولكنه لايستطيع أن يقدّم بديلاً مجزوءاً مفصولاً عن رسالة الإسلام . ولو حاول ذلك لأصابه الفشل ، إلا أن ينجرف في تيار النظام الربوي تحت شعار إسلامي .

إن مسئولية المسلمين اليوم واضحة جلية . ولكنها كبيرة وخطيرة . على المسلمين اليوم أن لايجابهوا مشكلات العصر بردود فعل وارتجال ولابشعارات وزخارف ورايات ، ولكن بحلول عملية تطبيقية تنبثق من الإيمان والتوحيد ، من منهاج الله ، ومن فهم الواقع من خلال منهاج الله ، ومن القدرة على الممارسة والتطبيق ، ومن ترابط ميادين العمل وتناسقها من خلال الدعوة الإسلامية . ولايستطيع المسلمون أن يحققوا ذلك وهم متفرّقون ممزّقون حائرون تائهون .

وحتى يلتقي المؤمنون على كلمة سواء ، فلا بدَّ من مراجعة النفس والمسيرة ، وإجراء تقويم لما سبق ولحصاده وتحديد الأخطاء ، حتى لاتظل تعود وتتكرر في حياة المسلمين .

من أجل ذلك لابد أن تكون هناك قواعد ربانية ثابتة يلتقي عليها العاملون . ولقد أشرنا إلى هذه القواعد الثابتة في أول هذا الكتاب تحت عنوان النظرية العامة للدعوة الإسلامية .

الفصل الخامس

المنافقون

وأموالهم وأولادهم

مع آيات من سورة التوبة

﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يُتقَبّل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين * ومامنعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولايأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولاينفقون إلا وهم كارهون * فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذِّبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾

[التوبة : ٥٣ – ٥٥]

﴿ ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً ولاتقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون * ولاتعجبْك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذّبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ [التوبة : ٨٤ ، ٨٥]

إن الله سبحانه وتعالى جعل ماعلى الأرض زينة لها ليبلو الناس وليُمَحِّصَهم في الحياة الدنيا ، ولتكشف معادنهم ، ولتقوم عليهم الحجّة في الآخرة أو لهم :

﴿ إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾

[الكهف : ٧]

ومن أكثر أنواع الزينة تأثيراً في حياة الإنسان المال والأولاد ، الثروة والبنون . ولكن مهما بلغت قوة تأثيرهم فإن ماعند الله في الدار الآخرة نعيم باق :

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً ﴾ [الكهف : ٤٦]

وتختلف النظرة والمواقف بين المؤمن والمنافق من قضية الإنفاق والأولاد ، وزينة الحياة الدنيا كلها . ذلك لأن التصوّر لدى هذا وذاك يختلف اختلافا واسعاً .

ولكن المؤمن يدرك أن هذه الزينة كلها إنما هي متاع وعرض زائل ، لايمنعه عن العبادة الصادقة لله . ويدرك أن النعيم الدائم هو في الآخرة ، فيشدُّ عزيمته ، وينهض ليسعى للآخرة ، يأخذ من زينة الدنيا مايعينه في دربه على بلوغ المقصد .

وتظل معاناة الإنسان بعامة جلية أمام زينة الأموال والأولاد . ولقد سبق أن بينا في كلمة سابقة هذه المعاناة التي تكشفها لنا الآيات من سورة التغابن :

﴿ ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم * إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾ [التغابن : ١٤، ١٥]

ومن أجل هذه المعاناة جاء التوجيه الرباني في سورة التغابن :

﴿ فاتقوا الله مااستطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون * إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم * عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ﴾

[التغابن : ١٦- ١٨]

المؤمن ، مهما اشتدت معاناته في هذا الأمر ، فإنه يظل في دائرة الإيمان ، ينفق من ماله طاعة لله وعبادة ، ينفق في سبيل الله ، راغبا في الأجر والثواب والدار الآخرة . والمؤمن ينفق في سبيل الله ليقوى صفّ المؤمنين الواحد ، الصفّ الذي قام كالبنيان المرصوص ، يشدُّ بعضه بعضاً ، ولاؤه الأول لله ، وعهده الأول مع الله ، نزع الوثنية والشرك من حياته وفكره وتصوراته وعلاقاته ، وكذلك من إنفاقه .

المؤمن لاتلهيه تجارة ولابيع عن ذكر الله ، ولاتلهيه أمواله ولا أولاده عن ذكر الله :

﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموتُ فيقول ربّ لولا أخّرتني إلى أجل قريب فأصّدّق وأكن من الصالحين* ولن يؤخّر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾ [المنافقون : ٩ - ١١]

ولكن المنافقين لهم شأن آخر . إنهم لايريدون أن ينفقوا على المؤمنين ، ولو كانوا يعيشون بين المؤمنين يظهرون لهم أنهم منهم .إنهم لايريدون الصف المؤمن الواحد المتماسك أن يقوم . يريدون أن يضعفوه ويمزّقوه لو استطاعوا :

﴿ همُ الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكنّ المنافقين لايفقهون ﴾ [المنافقون : ٧]

وهذه النفسية المريضة المنافقة لايصلح مالها لقوام الجماعة المؤمنة ، ولايصلح جهدها ولاتقبل صلاتُها وعبادتها . إنهم قوم فاسقون . ولذلك جاءت الآيات في سورة التوبة تحمل الحكم الفاصل والقرار الحاسم ، ذلك بأن إنفاقهم لَن يُتَقَبَّل منهم ، وذلك لأنهم بنفاقهم كفروا بالله وبرسوله ، ولايأتون الصلاة إلا وهم كُسَالى ، ولاينفقون إلا وهم كارهون .

هؤلاء المنافقون مهما اغتنوا ومهما جمعوا مالاً ، فإن مالهم يجب أن لا يُعجَبَ به المؤمنون ولايخدعوا به ولايشعروا أنهم بحاجة إليه . إنه مال المنافقين جعله الله عذاباً لهم في الحياة الدنيا لتزهق أنفسهم وهم كافرون .

ولأهمية هذا الموضوع فقد تكرّر عرضه في سورة التوبة مرتين . المرة الأُولى من خلال الآيات (٥٣-٥٥) ، والمرة الثانية من خلال الآيتين (٨٤ ,٨٥) . وفي كل مرّة ترتبط الصورة بأحداث جديدة وواقع جديد ، ولكنّ الحقيقة الرّبانيّة المطلقة تبقى واحدة ، لايختلف منها إلا أسلوب التعبير القرآنيّ المعجز .

ومع كل مجموعة من هاتين المجموعتين تأتي آية يصدر فيها الحكم على المنافقين ونفقاتهم . وتبدو الآيتان متقاربتين كثيراً :

الآية الأُولى :

﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ [التوبة : ٥٥]

والآية الثانية :

﴿ ولاتعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذّبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ [التوبة : ٨٥]

تماثل كبير بين الآيتين حتى لايكاد المرء يحس بوجود فوارق بينهما ، لأن الحكم واحد والصورتين متقاربتان . وقد يغلب على الإنسان التأثر بالصورة القوية قبل تأثره باختلاف لفظة هنا أو لفظة هناك . وربّما أَحس بالفارق بين الصورتين كذلك قبل أن يُحس بفارق الأحرف والكلمات .

فالآية الأُولى ابتَدأت بالفاء ، والثانية بالواو . والأولى تنصّ على : ﴿ **أموالهم ولا أولادهم** ﴾ ، والثانيةتنصُّ على : ﴿ **أموالهم وأولادهم** ﴾ ، والأُولى تقول : ﴿ **إنما يريد الله ليعذّبهم بها ...** ﴾ ، والثانية تقول : ﴿ **إنما يريد الله أن يعذبهم بها ...** ﴾ ، والأُولى تقول : ﴿ **في الحياة الدنيا** ﴾ والثانية تقول : ﴿ **في الدنيا** ﴾

وهذه الفوارق تكشف لنا دقّة اللغة العربية ، وجمال البيان والبلاغة ، وعظمة القرآن الكريم وإعجازه . ولانستطيع أَن نلمس بعض نواحي الجمال والإعجاز إلا اذا درسنا كلّ آية من خلال أَجوائها والآيات التي تحيط بها .

ولنأخذ الآية الكريمة الأُولى ولندرس أجواءها وتناسقها مع الآيات السابقة لها :

﴿ **قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين* ومامنعهم أَن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله ورسوله ولايأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولاينفقون إلا وهم كارهون * فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذّبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون* ويحلفون بالله إنهم لمنكم وماهم منكم ولكنّهم قوم يفرقون** ﴾ [التوبة : ٥٣ - ٥٦]

تأتي الآية الأُولى إذن من خلال مشهد خاص وقضيّة محددة ، هي قضية المال والإنفاق في حياة المنافقين . وتعرض هذه الآيات المشهد عرضاً ربانيا معجزاً ، عرضاً يكشف فكر المنافقين وسلوكهم ونفسياتهم ، لتخرج الآيات الكريمة بالحكم الحق العادل .

﴿ **فلا تعجبك أَموالهم ..** ﴾ إنها نتيجة طبيعة للآيات السابقة : ﴿ **قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً ...** ﴾ ، ﴿ **ومامنعهم أَن تقبل منهم نفقاتهم ..** ﴾

وهذه النتيجة الطبيعية يأتي التعبير عنها مبتدئاً بالفاء ، لأنها هي التي تربط النتيجة بسببها . إنهم كانوا قوماً فاسقين ، وإنهم كفروا بالله ورسوله ، ولا يأتون الصلاة الا وهم

كسالى ، ولاينفقون إلا وهم كارهون . إذن فلا تعجبك أموالهم .

والآيات السابقة كان الإنفاق هو موضوع الحديث ومحوره . ولم يكن هنالك ذكر للأولاد فلما جاء ذكر الأولاد في هذه الآية كان لابد من الاستدراك بكلمة ﴿**ولا أولادهم**﴾ للإشعار بأن ذكر الأولاد جاء إضافة جديدة على السياق السابق واستدراكاً له .

وتأكيداً لبيان العلة والحكمة الرّبانية فيما رزق هؤلاء المنافقين من مال وأولاد جاءت الصياغة تحمل « لام التعليل » : ﴿ **إنما يريد الله ليعذّبهم بها ...** ﴾ ذلك لأن السياق يقتضي التعليل وبيان الحكمة .

وهذا المشهد الذي تعرضه الآيات الكريمة يصوّر قضيّة ماضية في حياة المنافقين ، في حياتهم الدنيا ، يعانون منها وهم أحياء . فاقتضى المشهد إذن أن يرد النصّ القرآني يحمل كلمة الحياة : ﴿ **إنما يريد الله ليعذّبهم بها في الحياة الدنيا ...** ﴾ .

أما الآية الثانية : ﴿ **ولا تعجبك أموالهم وأولادهم ...** ﴾ ، فإن سياقها وأجواءها تختلف عن سياق وأجواء الآية الأُولى . فإذا كانت الآية الأُولى تأتي في سياق الحديث عن نفقات المنافقين وكرههم لإخراج أموالهم في سبيل الله ، فالآية الثانية تأتي في سياق عام عن المنافقين يشمل كراهيتهم الإنفاق والجهاد عامة بأموالهم وأنفسهم . وإذا كان الله سبحانه وتعالى قضى بحكمته وعدله أن لاتقبل نفقاتهم ، فهنا في سياق الآية الثانية يمضي الحكم الأول ويأتي حكم فاصل آخر ، ذلك أن لايخرجوا مع رسول الله ﷺ لقتال عدوٍّ أبداً. ويأتي هذا السياق تتعاقب فيه الأحكام الحاسمة على المنافقين وتتوالى . ويأتي هذا السياق في أجواء موت رأس المنافقين عبدالله بن أُبي بن سلول ، إنها أجواء الموت وليست أجواء الحياة الدنيا كما كان السياق السابق . ولننظر في هذا السياق الجديد وأجوائه مع الآيات الكريمة :

﴿ **فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرّة فاقعدوا مع الخالفين** ۞ **ولاتصلّ على أحد منهم مات أبداً ولاتقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون** ۞ **ولاتعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذّبهم بها في**

الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ [التوبة : ٨٣ - ٨٥]

فجاءت هنا الآية المعنيّة في بحثنا مبتدئة بالواو وليس بالفاء . ذلك لأن السياق هنا يقتضي العطف مع توالي الأحكام : ﴿ **لن تخرجوا معي أبداً ، ولن تقاتلوا .. ، ولا تُصلّ.. ، ولاتَقُم ..** ﴾ ثمَّ جاءت ﴿ **ولا تعجبك أموالهم ...** ﴾ .

وكذلك كان السياق يدور حول عموم أحوال المنافقين غير مقتصر على الإنفاق والمال كما كان السياق في الآية الأُولى ، فجاء ذكر ﴿**أولادهم** ﴾ معطوفاً على ﴿ **أموالهم** ﴾ فلا يوجد استدراك : ﴿ **ولاتعجبك أموالهم وأولادهم ..** ﴾ .

وقد سبق أن عرضت السورة أحوال المنافقين وبيّنت الحكمة الربانية فيما اقتضت به مشيئة الله ، فجاء النصّ هنا لا ليبيّن العلة والحكمة التي بيّنتها الآية الأُولى والآيات السابقة في السورة ، ولكن جاء النصّ ليقرّر حقيقة . وكذلك حيث أن الحياة انقضت ومات رأس المنافقين لم يعد المشهد يحتاج إلى تعليل ولكن يحتاج إلى إقرار حقيقة ﴿ **إنما يريد الله أن يعذّبهم بها ...** ﴾ ، خلافاً للنصّ في الآية الأُولى : ﴿ **إنما يريد الله ليعذّبهم..**﴾ .

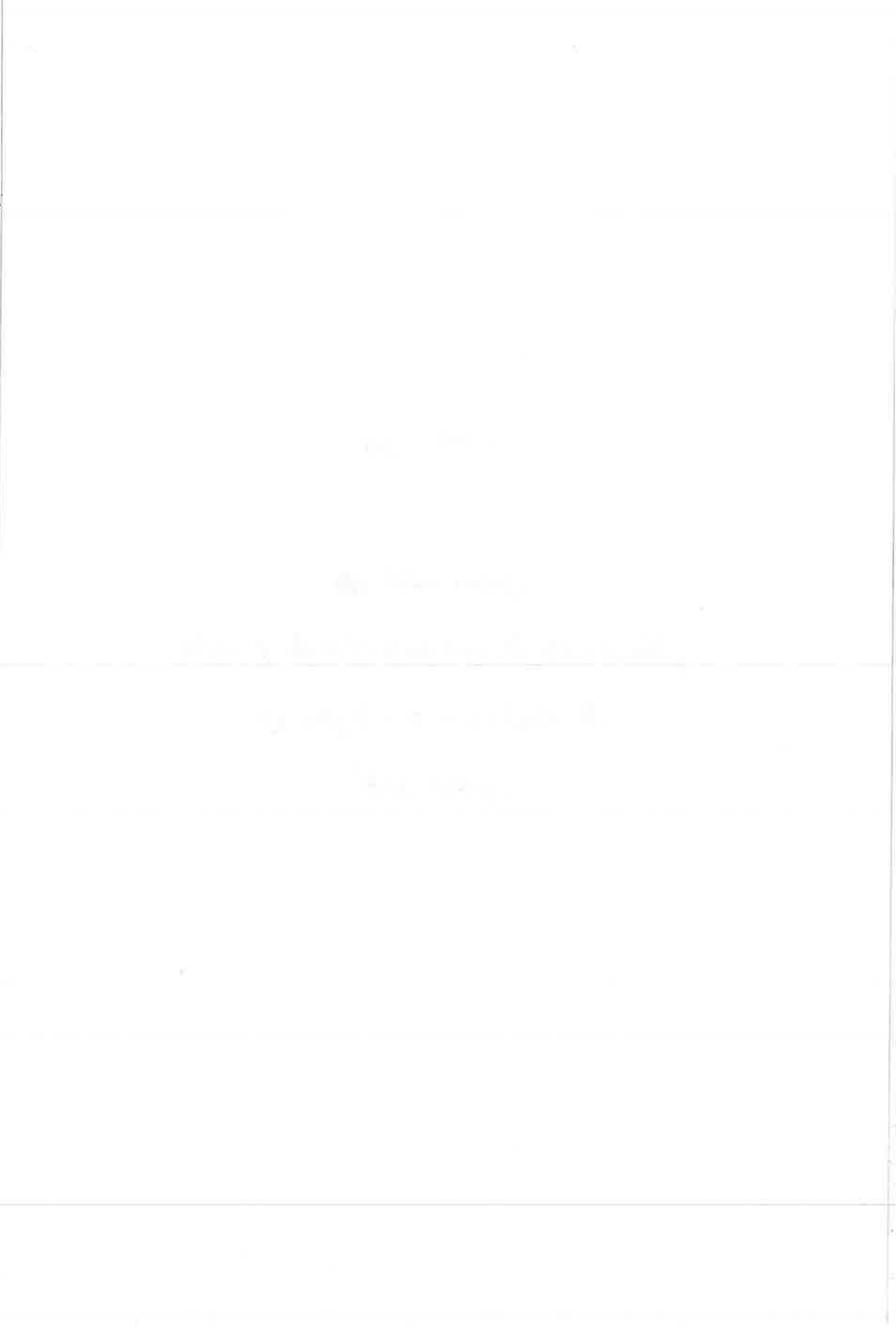
ونزلت هذه الآيات في أجواء الموت ، موت رأس المنافقين عبدالله بن أُبيّ بن سلول ، حين رغب ابنه أن يصلّي رسول الله ﷺ عليه وكره ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه وألح على الرسول ﷺ بعدم الصلاة عليه . ولكن الرسول صلى عليه ، وبعد ذلك نزلت الآيات الكريمة وفيها : ﴿ **ولاتصلّ على أحد منهم مات أبداً ولاتقم على قبره ..** ﴾ . إن هذا السياق والجو لايناسبه ذكر الحياة ، الحياة الدنيا ، فجاء النصّ هنا ﴿ **.. في الدنيا..** ﴾ وليس في ﴿ **.... الحياة الدنيا ...** ﴾ كما كان النصّ في الآية الأُولى .

إن رأس المنافقين مات وانقضت حياته ، وكأن سائر المنافقين أصبحوا أمواتاً بنفاقهم لاحياة لهم . جاء التعبير دقيقاً معجزاً في دقته .

إنها اللغة العربية ، وإنه البيان ، وإنه الإعجاز، إنه القرآن الكريم .

الباب الثالث

مع آيات حول
داود وسليمان وموسى عليهم السلام
من سورة «ص» و«المائدة»
تدبر وظلال



الفصل الأول

داود عليه السلام والخصمان

مع آيات من سورة «ص»

﴿ اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب* إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق* والطير محشورة كل له أواب* وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب* وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب* إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولاتشطط واهدنا إلى سواء الصراط * إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزّني في الخطاب* قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم وظنّ داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب* فغفرنا له ذلك و إن له عندنا لزلفى وحسن مآب* ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ [ص: ١٧ - ٢٦]

نقف هنا مع هذه الآيات الكريمة [١٧-٢٦] من سورة «ص»، حيث تتحدث الآيات عن داود عليه السلام وقصته مع الذين تسوَّروا المحراب ودخلوا عليه دون استئذان، ففزع منهم أول الأمر. ثم عرضوا عليه قضيتهم التي اختلفوا عليها ليحكم بينهم. فحكم داود بما نصَّتْ عليه الآيات. وبعد أن انتهى من ذلك ظن دَاود أنه كان هنالك ابتلاء له من الله وتمحيص، فعرف خطأه، فاستغفر ربه، ثم خرّ راكعاً لله وصلّى وأناب إلى الله، فتاب الله عليه وعفا عنه.

لقد كانت هذه الآيات موضع تفصيلات واسعة في كتب التفسير. وحيث تكررت هذه التفصيلات ظنَّ بعضهم أنها حق لتكرارها وإعادتها في أكثر من مصدر. وبعض

هـذه المصادر لم يبيّن رأيـه في صحة الـروايات أو بطـلانها، وبعضها بيّن أنها إسرائيليـات لايسندها قرآن ولاسنة.

وأول قضية نقف عندهـا في هذه الآيات هو أن ندرس داود عليه السـلام وصفاته وما أنعم الله به عليه من فضل:

إنه ذو أيد، أي قوي. إنه أوّاب، أي يـرجع إلى الحق ويستغفر ويتوب. سخّر الله له الجبال يسبِّحن بالعشيِّ والإشراق. فتحدّد بذلك الوقت الذي كان يسبح فيه داود عادة، الوقت الذي رضي الله له به في التسبيح أو أمـره به، وهو عند الشروق وآخر النهار. وحشر له الله الطير كذلك، إذا سمعت تسبيح داود عليه السـلام فإنها تقف وترجّع معه التسبيح فتئوب إليـه بذلك. وجعل الله له ملكـا كاملاً مـن جميع مايُحتاج إليـه حتى أصبح ملكاً شديداً. وآتاه الحكمة والخطاب الفاصل في حكمه بين الناس.

وفي الحديث عن الرسـول ﷺ أنه قال: «**أحب الصلاة إلى الله سبحانـه وتعالى صلاة داود وأحب الصيام إلى الله عـز وجل صيام داود. كان ينـام نصف الليل ويقوم ثلثـه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولايفرّ إذا لاقى**»[1].

أما «الحكمة» فقد قيل في معنـاها أنها الفهم والعقل والفطنة، وقيل: العدل، وقيل كتاب الله واتبـاعه، وقبل النبـوة. ونحب أن نأخـذ بجميع هذه المعـاني معاً للـدلالة على هذه الكلمة الجامعة التي وصف الله بها عبده ونبيه داود عليه السلام.

وأما «فصل الخطـاب» فقد قيل في معنـاها: الشهـودُ والأيمان، إصابـة القضاء وفهم ذلك. وكذلك نأخذ بهذه المعاني لهذه الكلمة الجامعة.

من هـذه الصفـات والنعم التي أنعم الله عليـه بها، نـود أن نـركّـز على بعضهـا دون إغفال سائرها: إنه قوي، إنه كان يسبح عند الإشراق وآخر النهار، وإن ملكه قوي، وإن الله آتاه الحكمة وفصل الخطاب.

فإذا وردت قصة عن داود عليه السـلام مباشرة بعد هذه الخصـائص والصفات، فلا بد أن تكون دليلاً عليها وبرهاناً لها ومثلاً لها، لاعلى نقيضها.

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني. حديث رقم (١٦٨). وقال عنه صحيح رواه الشيخان وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

لذلك لا يُعقل أن تنصَّ الآيات على حكمة داود وفصله في الخطاب، ثم تأتي القصة لتثبت عكس ذلك. إن هذا الأُسلوب مخالف لأُسلوب القرآن الكريم. فلا يُعقَل أَن يكون الخطأ الذي ارتكبه داود عليه السلام هو في حكمه بين الخصمين، ولا في أسلوب قضائه.

ولنستمع إلى القضية وظروفها والحكم الذي أَصدره نبي الله داود عليه السلام بها:

﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوَّروا المحراب* إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تُشْطِط واهدنا إلى سواء الصراط* إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزَّني في الخطاب* قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم...﴾

لقد عُرِضت القضية في هذه الآيات الكريمة عرضاً جليا لايحتاج إلى مزيد. ونلاحظ من هذه التعبيرات القرآنية: **﴿إذ تسوّروا المحراب ...﴾**، **﴿إذ دخلوا.....﴾**، **﴿قالوا لاتخف....﴾** أَن الذين حضروا كانوا أكثر من الخصمين. وكلمة **﴿قالوا...﴾** توحي بأن الجميع تحدّثوا، أو بأن الفرصة كانت متاحة لكل واحد أَن يتحدث. فلو كان هنالك اعتراض من أَحد الحضور أَو من أحد الخصمين لتحدث، ولذكر ذلك القرآن الكريم.

ونعتقد أن جميع ماورد من إسرائيليات في كتب التفسير مما لا سند له من حديث صحيح هو باطل مرفوض لا يليق بمقام النبوة، ولا يتفق مع ماوصف به القرآن الكريم داود عليه السلام. ونتمنى لو أن جميع كتب التفسير تحذف هذا الباطل وأشباهه منها.

ولا نقول كذلك بأن هذين الخصمين ملكان أرسلهما الله. فهذا ظن من البشر لاسند له من كتاب أو سنة. فإعمال الظن واختراع الأحداث والأشخاص لايجوز فيما يرويه القرآن الكريم من قصص حق. لذلك نأخذ القصة على ظاهرها حتى نستطيع ربط الآيات وإدراك تناسقها وفهمها بما لايعارض اللغة العربية، ولا القرآن ولا السنة، ولاقواعد الإيمان والتوحيد.

وحين ندرس الحكم وما فصل فيه داود عليه السلام، نجده عدلاً وحكمة وفصلاً.

ونجده قاعدة تستفيد البشرية كلها منها. فمن الظلم أن يطلب صاحب التسع والتسعين نعجة من صاحبه أن يضم إليه نعجته. إنه استغلال القوي للضعيف، وإنها حالة تتكرر في الواقع البشريّ حيث تلتهم المؤسساتُ الكبيرةُ المؤسسات الصغيرة، وحيث تضيع حقوق الضعفاء بين الأقوياء، والفقراء بين الأغنياء. وإن الشركاء يبغي بعضهم على بعض، حقيقةً لا وهماً، كما نلمس ذلك في واقع التاريخ البشري. حقيقتان عظيمتان أعلنهما داود عليه السلام في حكمه الفاصل: ظلم القوي للضعيف، وبغي الشركاء بعضهم على بعض. ثم أضاف داود عليه السلام قاعدة أُخرى هامة وحكمة بالغة ألا وهي: **﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم...﴾** حقيقة صادقة، فلا ينجو من الظلم الأول، ظلم القوي للضعيف، ولا من الظلم الثاني: بغي الشركاء بعضهم على بعض، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم..! وتأتي آيات كثيرة في كتاب الله، وأحاديث شريفة تُصدِّق هذه الحقائق الثلاث وتعلنها.

ونرى أَن ماحكم به داود عليه السلام بين الخصمين جاء مطابقاً لما سبق القصة من وصف الله له عليه السلام: **﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾**. جاء الحكم فصلاً يحمل الحكمة والعدل وإصابة القضاء وفهمه.

إذن أَين الخطأ الذي تشير إليه الآيات الكريمة: **﴿... وظنّ داود أنما فتنّاه فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب * فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾**..

لابد أَن يكون هنالك إشارة في الآيات السابقة إلى ماأخطأ به داود عليه السلام. ونرى أن هذه الإشارة واضحة في النصوص التالية: **﴿... إذ تسوّروا المحراب.﴾**، **﴿إذ دخلوا عليه ففزع منهم...﴾**، **﴿قالوا لاتخف...﴾**.

وباستعراض الآيات السابقة لهذه الإشارات نجد أن من صفات داود عليه السلام مايتعارض مع الظن بأنه أَخطأ في الاجتهاد بالحكم أو أخطأ بالقضاء وقواعده.

فكلمة: **﴿إذ تسوّروا المحراب﴾** تشير إلى أَن بابه كان مغلقاً دون الناس ذلك اليوم على غير عادته. فعادته أَن يتفرّغ للعبادة عند الإشراق وبالعشي. ويبقى الوقت الآخر لإدارة ملكه القوي بالعدل والحكمة ورعاية شؤون الأُمة، كما يشير النصّ:

﴿ .. يسبحن بالعشي والإشراق ﴾

فالخطأ الذي وقع فيه داود عليه السلام، كما نفهمه من تناسق الآيات الكريمة وترابطها، هو إغلاق بابه دون الناس، والانقطاع عن النظر في حوائجهم، وقد آتاه الله الملك والولاية من أجل هذه القضية لينظر في أمر الناس وحوائجهم. وليس هناك من مسوّغ لنا كي نعتبر الخصمين ملكين أرسلهما الله إليه، فلا دليل من القرآن والسنة على ذلك، وإنما هو ظنّ وتأويل بشري لايصح اختراع الأحداث والأشخاص به فيما يرويه القرآن من قصص حق، كما ذكرنا سابقاً. وحسبنا ظاهر النصّ هنا. ويزيد الأمر وضوحاً قوله سبحانه وتعالى: **﴿إذ تسوّروا المحراب...﴾**، فكان الباب إذن مغلقاً. وقوله: **﴿إذ دخلوا على داود ففزع منهم...﴾**، فكان دخولهم عليه مفاجئا له، وهذا يشير بوضوح إلى أنه كان قد أصدر أمره، على خلاف عادته، أن لايدخل عليه أحد ذلك اليوم. وداود النبي عليه السلام قوي ذو أيد لايفرّ إذا لاقى. ففزعه يدل أولاً على المفاجأة، ويدل ثانياً على أن الله ألقى في قلبه الفزع مع أنه القوي الذي لايفرّ إذا لاقى. فكان الفزع إشارة إلى أن داود عليه السلام أخطأ بإغلاق بابه أمام أصحاب الحاجات، مما لايليق بملك عادل، ملك قوي يخشى الله ويرعى حقوق الأمة، ملك يدرك أن رعاية مصالح الناس جزء من العبادة، وجزء هام، وأن الله لم يأمره بأن يتفرغ اليوم كله للتسبيح، بعد أن كان تسبيحه بالعشيّ والإشراق. فأدرك داود عليه السلام من فزعه، ومن المفاجأة، ومن تذكره مسئولياته أنَّ رعاية شؤون الأمة هو من العدل الذي أمر به الله، وأن هذا هو مسئوليته الأولى، مسئولية الخليفة الذي كلفه الله برعاية شؤون الأُمة.

ولذلك جاءت الآيات الكريمة التالية توضح هذه الصورة التي عرضناها، وتوضح أن الخطأ الذي وقع فيه نبيّ الله داود عليه السلام كان اعتزاله شؤون الحكم يوماً كاملاً، وعدم النظر في أمور الرعية، دون وجه حق:

﴿ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ [ص: ٢٦]

﴿إنـا جعلناك خليفـة في الأرض.....﴾! لتنظـر في أُمـور الناس وتـرعى شـؤونهم، ولتحكم بينهم، لتحكم بين النـاس بالحق فـلا تغلق الأبـواب دونهم، بغية التبتل الكـامل والانقطاع للتسبيح والدعـاء والذكر دون أَمر من الله بذلـك. فهذا ليس من الحكم بالحق، ولا هو من الوفاء بشروط الخلافة، وكل أَمر على غير مـا أمر الله به هو اتباع للهوى، والذين يتبعون هواهم لهم عذاب شديد بما نسوا الميزان الذي يقوم عليه الحساب يوم القيامة.

وتذكرنا هذه القضية بالصحـابي الجليل سعيد بن عامر رضي الله عنه، حين كان والياً على حمص في خلافـة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقـد شكاه أهلُ حمص لأمير المؤمنين في أربع: لايخرج إليهم حتى يتعـالى النهـار، ولا يجيب أَحـداً بليل، ولـه في الشهر يومان لايخرج فيهما إليهم ولايرونه، وتأخذه الغَشْيةُ بين الحين والحين.

ولو ثبتت عليه هذه التهم لأدانه عمر. فـاستدعاه عمر رضي الله عنه للتحقيق والتثبّت، وهو يرجو أَن لاتثبت عليه التّهمُ وقد اختاره بنفسه لصدقه وعلمه وصلاحه وكفاءته.

فلما حضر وسمع الشكـوى أجاب، ومع كـل إجابـة كـان يردد والله مـاكنتُ أود أَن أذكـر السبب ثمّ يجيب. فقـال: إني ليـس لي خـادم ولا لأهلي، فأنـا أَعجن العجين، ثم أدعـه حتى يختمـر، ثمّ أخبـز خبزي، ثمّ أتـوضأ للضحى، ثـم أخرج إليهم وقـد تعـالى النهار. وأمـا الثانيـة فقد جعلتُ النهار لهم والليل لـربي. والثالثـة فليس لي خادم يغسل ثـوبي، وليس لي ثياب أُبـدّلها. فأنا أغسل ثـوبي في هـذين اليومين وأنتظـر حتى يجفّ ثم أخرج إليهم. والـرابعة تأخـذني الغَشيةُ حين أَذكـر مصير خُبيْبِ الأنصاري بمكـة، وقد بضعت قريـش لحمه، وحملوه على جَـذَعه وهم يقـولون: أتحبُّ أَن محمداً مكـانك وأنت سليم معافى؟ فيجيب: والله مـا أحب أَني في أهلي وولدي، معي عـافية الدنيـا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة. فكلما ذكرت ذلك المشهـد وأنا يومئذ من المشركين، ثم تذكرت عدم نصرتي له، ارتجف خوفاً من عذاب الله فتأخذني الغشية.

من هذه القصـة العظيمة يتضح لنا شـدة خطورة تغيب الوالي أو المسئول في أي مـرتبة كان عن حوائج الناس والنظر فيها، حتى لـو كان ذلك لأداء النوافل من الشعائر والذكر. فرعـاية مصالح المؤمنين فـرض على المسئول لانـافلة، لأجلها أصبح هـذا أو ذاك مسئولاً.

فهي عبادة حق العبادة . والتقصير في الفرض أو الإخلال به أهم من التقصير في النافلة .

وهذه القصة تـؤكد ما ذهبنا إليـه من أن خطأ داود عليه السلام كان في احتجـابه عن الناس الذين وكّل أمرهم إليه ، حين جعلـه الله خليفة ليحكم بين الناس بالحق ، لايصرفه عن ذلك ولايـؤخره أمـر آخر عن وقتـه المحـدّد له ، فإن فعل ذلك وانصرف عن النظـر في شؤون الناس كان ذلك من اتباع الهوى .

وتأتي الأحاديث الشريفة أيضاً تؤكد ذلك :

فعن عمرو بن مّرة عـن النبيّ ﷺ أنه قال : **«ما من إمام أو والٍ يغلـق بابه دون ذوي الحاجة والخلّة والمسكنة ، إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته»**

[رواه أحمد والترمذي][1]

ولذلك جاءت الآيات بعد ذكر القصة في الصورة تؤكد هذا المعنى ، وتؤكد مسئولية الولاة :

﴿ياداود إنـا جعلناك خليفة في الأرض فـاحكم بين الناس.....﴾ أي لتنظر في أمورهم ولاتحتجب عنهم ، فهذه مسئوليتك والامانة التي في عنقك :

فعن ابن عمر رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال : **«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيّته ، فـالإمام راعٍ وهو مسئول عن رعيتـه ، والرجل راع في أهله وهو مسئـول عن رعيته ، والمرأة راعيـة في بيت زوجهـا وهي مسئـولـة عن رعيّتها ، والخادم راعٍ في مـال سيـده وهـو مسئول عـن رعيته ، والرجـل راعٍ في مال أبيه وهـو مسئول عن رعيتـه ، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»** [أخرجه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي][2]

إن تناسق الآيـات كلها وترابطهـا مع السورة تـوحي بأن الخطأ لم يكن في اجتهاد داود بـالحكم في هذه القضيـة ولا في أسلوب قضـائه . ولو كـان الخطأ في ذلك لما كان هنـالك اتباع للهوى ، بل كان له أجر واحد بدل الأجرين :

فعن عمر بن العاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : **«إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران واذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر»** . [رواه الخمسة][3]

---

(١) الترمذي : ١٣/ ٦/ ١٣٣٢

(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم (٤٤٤٥) .

(٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم (٥٠٧) .

فلـو كـان الخطأ فيما اجتهـد به داود عليـه السـلام من حكم لما كـان هنـالك اتبـاع للهوى، كما يفهم من الحديث السابق.

والقـول بأن الخطأ كان في إصـداره حكمه قبل أن يستمع للطـرفين فهو ظنّ لا يقـوم عليه دليل، ولا يوجـد في جميع الآيات مايشير الى ذلك. فالآيـات لم تنصّ على أنه استمع أو لم يستمع. ولكن أسلـوب القـرآن الكـريم لايـذكـر دائماً كل التفصيـلات التي يمكن معرفتهـا بداهة، أو من مقتضى الحال أو من منزلـة من تدور حوله القصـة. ومخالفة داود عليـه السلام في قـواعد القضـاء يتعارض مـع سياق الآيـات وإيحاءاتها، وبخاصـة قولـه سبحانه وتعالى ﴿**وشددنا ملكه وآتينـاه الحكمة وفصل الخطاب**﴾ فالخطأ لم يكن في الحكم ولا في القضـاء! فاكتفت الآيـة بذكـر رواية الخصم الأول لأن فيهـا عرضـاً للقضية كلها. ولو لم تكن الـرواية هذه كافية لعرض القضية واعترض الآخـر على ذلك لذكر ذلك القرآن الكـريم. فعدم الإشارة في النص إلى استماع داود عليه السـلام للخصم الثاني ليس دليـلا على أن داود عليه السـلام لم يستمع لـه وقـد حضر جلسة القضـاء، ولكن القـرآن الكريم لايذكر مثل هذه التفصيلات دائما، فلا دليل على أن داود عليه السلام قضى قبل أن يسمع للخصـم الآخـر. وجاء الحكم الـذي اجتهد بـه نبيّ الله داود عليه السـلام دليلاً آخـر على أن داود استوفى شروط القضـاء على طـاعة لله، حيث جـاء الحكم فصْـلا يحمل الحكمة والحجة وفصل الخطاب:

﴿**قـال لقد ظلمك بسـؤال نعجتك إلى نعـاجه وإن كثيراً من الخلطـاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم...**﴾

لذلـك نعتقد أن داود عليه السـلام استكمل شروط القضاء ووعـى القضية، وتحدث كل من كان في المجلس من خصمين أو شهـود. ويؤيـد مانذهب إليـه أن الخصم الذين تسوّروا المحراب كانوا أكثر من اثنين، وذلك من كلمة ﴿ **تسوّروا** ﴾، وكلمة ﴿**قالوا** ﴾، فلم يكن المتكلم واحداً.

وبهذه المناسبة نشير إلى أن كلمة «الخصم» تأتي للمفرد والمثنى والجمع، والمذكر والمؤنّث.

وربما قال قائل إن الخصـم دخلوا على داود في وقت تفرّغه للعبادة، في الـوقت الذي

اعتـاده وعرفـه النـاس، وليس في الوقـت الذي يتفـرّغ فيـه للحكم عادة. وهـذا افتراض بشريّ، إذ الأصل أن يأتي الناس في الوقت المخصَّص لهم، ولـو خالفوا ذلك لكان الخطأ منهم وليس من نبيّ الله داود عليه السلام. فلو فزع حينئذٍ لما كـان اللوم عليه ولا الخطأ. فالأصل في تفسير الآيـة الكريمة وفهمها أن تجري الأُمور على عـادتها إلا أن يأتي نصّ يدلُّ على خلاف ذلك.

وكذلك، لـو كان الخطأ الذي ارتكبـه داود عليه السلام هو في ظنّـه أنَّ هؤلاء الخصم جاءوا ليقتلوه، كما يرى ذلك أبو حيّان في تفسيره، لما كـان في هذا الظنّ فتنة، ولا كان فيه اتباع للهوى، ولا كـان فيه مخالفة لقواعـد الحكم والخلافة. وهو افتراض بشريّ، ليس في السورة نفسها دليل عليه، ولا في الكتاب والسنة، وهـو افتراض ذهب به أصحابه بعيداً، إلا أن يكـون أصلـه من الاسرائيليـات التـي لانأخـذ بها. يقـول أبـو حيّـان في تفسيره: «. . . . وأنـه فزع منهـم ظانـّاً أنهم يغتـالـونه إذ كـان منفـرداً في محرابـه». وهذا الفـرض يستـدعي تصـوّرات أُخـرى عن تجنّب هـؤلاء الخصم الحرس، وكيف تسللـوا، ثم تمتـد الظنون كثيراً.

فيمكن إذن الاستنتـاج من الآيات كلهـا، ومن تناسقهـا وترابطهـا في السورة أن داود عليه السـلام أجرى أُصول القضـاء كما وصفه سبحانـه وتعالى، وأن هذه القضيـة جاءت بعد هـذا الوصـف لتكون دليلاً عليـه لا على نقيضه، وأن حكـم داود عليه السـلام كان يحمل الحكمة وفصل الخطاب.

وبـذلك تكون الآيـات التي سبقت القصـة، والآيات التي عـرضتها، والآيـات التي تلتها تنـاسقت فيما بينها تنـاسقاً كامـلاً، وتناسقت مع السـورة كلها، ومع مقـام النبوّة، ومع بيان القرآن وإعجازه.

وبـذلك نكـون قـد تجنبنـا فسـاد التأويل، واختراع الأحـداث، وتجنبنـا الـروايـات الإسرائيلية، وجرت القصة على سياق بيّن واضح، وتـركنا روايات إسرائيلية تحط من مقام النبوة، وأحداثاً تحطُّ من شأنها.

ونكون أيضاً التزمنا قواعد اللغـة العربيّة في فهم النصوص ولم نخرج عنها، ولم نخرج

عن نصوص القرآن الكريم وإيحاءاته، ولا عن السنّة النبوية وهديها، ولم نخرج عن قواعد الإيمان والتوحيد. ونعتقد أن التصوّر الذي نعرضه ينبثق من جوهر التصور الإيماني والتوحيد، ويحتفظ للنبوة بكامل خصائصها التي وردت في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

ونود أن نؤكد هنا، ونعيد التأكيد مرّة بعد مرّة، أن ما ورد في الإسرائيليات، وما نقلته عنها بعض كتب التفسير مما ترويه عن نبيّ الله داود عليه السلام، ومما يسيء إليه، لايتفق وعظمة النبوة ومقامها. لذلك نرفضه وندعو بإلحاح إلى حذفه من كتب التفسير كلها، وعدم نشره بين الناس وعدم روايته، ذلك أن هذه الإسرائيليات وروايتها تفسد تربية الناشئة من المؤمنين، وتفسد فهم الآيات والأحاديث الشريفة، وتوجد أشكالاً من التناقض والاضطراب يظل الإسلام بريئاً منها. فالقول بأن كلمة «نعجة» تشير أو تكني عن المرأة، ثم يتبع ذلك قصص فاسد وتأويل باطل، تأويل مناقض لأسلوب القرآن الكريم وعظمة القضايا التي يعرضها. فنرى ضرورة حذف ذلك وَ إلغائه.

خصمان مع آخرين عرضوا القضية بأسلوب واضح وبيان جليّ. فلماذا نخترع أحداثا لا دليل عليها، وتأويلات لاتستقيم، ونحوّل العرض الجليّ الكريم إلى معنى لاسند له من قرآن أو سنّة، ولا مسوّغ له من سياق أو معنى.

إن ما يرويه كتاب الله من قصص يريد الله أن يعلمنا به أمراً من أُمور ديننا ودنيانا، وليكون لنا زاداً غنيا كريماً في حياتنا الدنيا، وعلى دربنا إلى الجنة إن شاء الله.

إن رواية الخصمين نأخذها على ظاهرها دون تأويل، لنتعلم من هذه الآيات الكريمة علماً نافعاً ربّانيا، نهتدي به في مسيرتنا، والحمدلله رب العالمين.

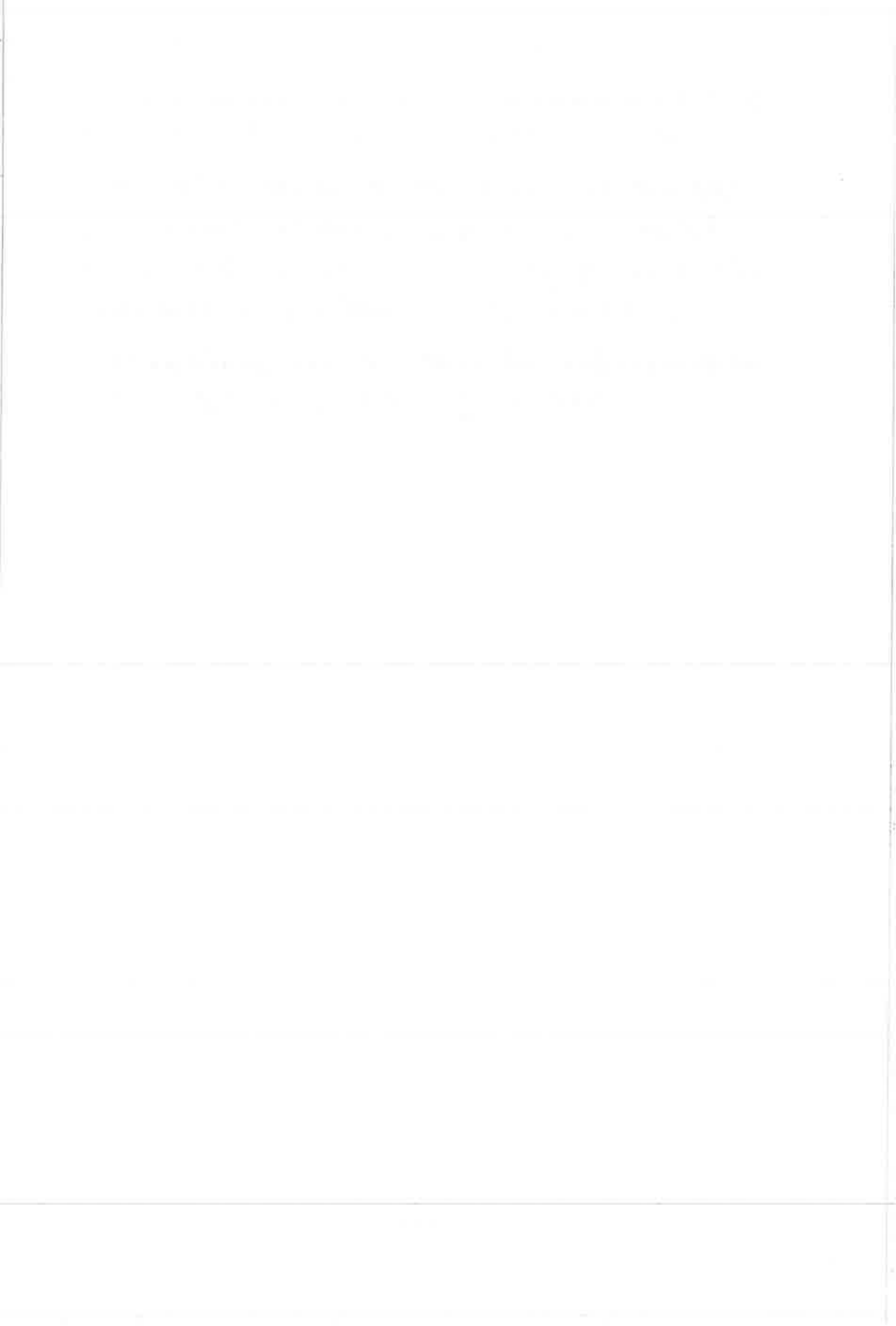
إن في هذه القصة على النحو الذي عرضناه فائدة للأجيال المؤمنة، لكل من يلي أمراً من أُمور المسلمين، صَغُر أو كبُر، فعليه أن يؤدي حقوق هذا الأمر ويرعى مصلحة الناس فيه، فإنها عبادة إن صدقت النية وصلح العمل، وإنها من أكرم العبادات.

درس يحتاج أبناء هذه الأُمة أن يتعلموه: العامل، والموظف، والمدير، والتاجر، والمهندس، والطبيب، وكل من يحمل مسئولية تمس مصلحة الناس. درسٌ يعلمنا أن نرعى حقوق المسئولية ورعاية المصالح، لنوفر على الأُمة جهوداً كبيرة وأوقاتاً واسعة تُهْدَر

بالكسل والتواني، أو المغالاة في أمر نخرج به عن حدود ما أمر الله سبحانه وتعالى به.

إن استغلال القوي للضعيف، والغنيّ للفقير، ظاهرة واضحة في التاريخ البشري. ولقد قام على هذا الاستغلال فلسفات ومبادىء ومذاهب كثيرة لاتخرج عنها الرأسمالية ولا الاشتراكية ولا الشيوعية. فجاء في هذه الآيات درس واسع للإنسان، للناس كافّة، ليكفوا عن استغلال بعضهم بعضاً فإنه ظلم، وليوصوا الشركاء بالعدل والتقوى.

إنه درس عظيم فهل نتعلم منه الموعظة الصادقة، لنفيق ونحمل للبشرية كلها هذا النور الدافق والخير العميم، ليزيح الظلمات، ويرفع الفتنة والفساد؟!



الفصل الثاني

سليمان عليه السلام

مع آيات من سورة «ص»

﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب * إذ عرض عليه بالعشيّ الصافنات الجياد * فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب* ردّوها عليّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ [ص: ٣٠ - ٣٣]

ورد في تفسير هذه الآيات أن الجياد الصافنات عُرَضت على سليمان واستمر العرض حتى غابت الشمس وذهب وقت صلاة العصر فقال رُدُّوها علي فعقرَها وضرب أعناقها وعراقيبها.

نرى أن هذا التأويل مخالف كذلك لما ورد في أول هذه الآيات عن سليمان عليه السلام. فقد بينت الآيات على أن سليمان كان ابن داود عليهما السلام، وأنه ورث النبوة عن أبيه، وأنه نعم العبد، إنه كثير الرجوع إلى الله، أوّاب إليه.

﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب﴾.

وثابت كذلك بنص الآيات أن الجياد الصافنات عُرِضَت عليه، ولايهمنا عددها. ولكنها سريعة العدو (جياد)، تقف على ثلاث والرابعة على طرف حافر (صافنات).

فهل كان العرض أن ينظر إليها فحسب. أم أن العرض كان يشمل جريها السريع كما هي العادة في عرض الجياد.

الذي نفهمه من الآيات الكريمة ترجيح الرأي الثاني بأنها أُطلقت للجرى، فبدت سرعتها الكبيرة كجزء من العرض، وأنها بسبب هذا الجري السريع غابت وراء الأُفق.

فسُرَّ سليمان من سرعتها وقال ردّوها عليّ، ولتعدْ من جريها إليّ، بعد أن انتهى العرض، حتى يكرمها.

وبهذا المعنى أصبح للعرض دلالة أشار إليها النصّ: «فالصافنات» هي التي تقف على ثلاث قوائم وتكون الرابعة على الحافر، وهذه صورة من العرض أو حالة منه.

«والجياد» هي الخيل السريعة في العدو. وهذه هي الصورة الثانية من العرض والخيل انطلقت جارية مسرعة.

فمعنى ﴿إذ عُرِض عليه بالعشيّ الصافنات الجياد﴾ يصبح أنها عُرِضت عليه وهي صافنة وكذلك وهي جارية مسرعة. وانطلقت الخيل في جريها أثناء العرض حتى غابت وراء الأُفق عن الأَنظار.

وهذا المعنى أقرب للغة العربية ولروح النص والله أعلم. أما القول بأن معنى: ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ أي حتى غابت الشمس وراء الأفق، فلا نرى له محلاً هنا إذ لم يرد ذكر الشمس لا من قريب ولا من بعيد. ولم يرد ذكر الشمس في تفسير هذه الآية في آية أُخرى أو في حديث. فلا اللغة ولا النصوص الشرعية تفرض هذا التأويل الذي يدخل الشمس فيه. واللغة تفرض كذلك أن يعود الضمير في كلمة «توارت» إلى أقرب اسم لها. وهو الصافنات الجياد، فهي التي توارت بالحجاب.

﴿فقال إني أحببت حبَّ الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾. ومعظم كتب التفسير تشير إلى أنّ المعنى هو قول سليمان عليه السلام إنه شُغِلَ بالخيل وعرضها حتى ألهتْه عن صلاة العصر، ذلك لأنه شُغِل بالجياد حتى غابت الشمس.

والسؤال الذي يدور هنا: هل كانت الصلاة أيام سليمان أو في ديانته مثل صلاتنا اليوم، خمس صلوات؟! الذي نعلمه أن صلاتنا التي نعرفها اليوم من الكتاب والسنّة حدّدت في الإسراء والمعراج لأول مرة على هذا النحو. فلم تكن الصلاة في رسالة موسى عليه السلام ولا في رسالة عيسى عليه السلام، ولا في رسالة الأنبياء قبل ذلك محدّدة بخمس مرات في اليوم. ولو كان ذلك لظهرت آثارها اليوم عند اليهود والنصارى ولكننا لانجد هذه الآثار. لقد كانت الصلاة مشروعة ومفروضة في رسالة جميع الأنبياء والمرسلين، ولكنها أَخذت تشريعها النهائي في رسالة محمد ﷺ في المعراج. فمن أَين جاء ذكر صلاة العصر عند سليمان عليه السلام في تفسير هذه الآية الكريمة؟!

لانجد سنداً من اللغة ولا من القرآن ولا من السنة على التأويل الذي يدخل «الشمس» فيه، ويدخل «صلاة العصر» كذلك.

إن المعنى الذي تدل عليه اللغة العربية هو أن الصافنات الجياد عُرِضَتْ على سليمان

عليه السلام. وعرض الجياد ليس بدعة، وإنما هو أمر معروف في القديم وفي عصرنا الحالي. ويشمل العرض استعراض الخيل وهي واقفة وكذلك وهي جارية. ومازال هذا الأمر معروفاً اليوم فيما يُعرَف بسباق الخيل. فتُعرض الخيل وهي واقفة أولاً ثم وهي جارية في السباق.

وكذلك قوله سبحانه وتعالى عن سليمان عليه السلام: **﴿فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾**، لا نرى المعنى يستقيم إذا فسرنا الآية بأن سليمان عليه السلام قال إنه أحب الخيل وآثرها على ذكر الله. فهذا المعنى لايليق بالنبوّة أولاً، ولا يُعقَل أن تكون الخيل والاستمتاع بها سبباً لإشغال نبيّ وصفه الله بأنه **﴿نعم العبد إنه أوّاب﴾**! ولايصح القياس على ماحصل مع النبيّ محمد ﷺ في غزوة الخندق حين شُغِل النبي ﷺ والصحابه رضي الله عنهم عن صلاة العصر بالقتال، فالعذر في غزوة الخندق عذر قتال شديد ومعركة تهدّد كيان الدعوة الإسلامية كلها. ومع سليمان عليه السلام حسب التأويل استمتاع باستعراض الخيل. لذلك لانرى أن القياس سليم ولانرى أنه مقبول. والمعنى الأقرب هو أن سليمان عليه السلام قال إنه أحبَّ الخيل حبّاً نابعاً عن ذكر الله، وما يفرضه عليه هذا الذكر من إعداد القوّة لنصرة دين الله.

فتناسقت الآيات كلها لغة وفكراً ومعنى: إنه نعم العبد، إنه كثير الذكر لله والأوبة إليه، حتى أصبح همه الأول إعزاز دين الله، فأعدَّ من القوة مايلزمه به هذا الذكر وتلك الأوبة، فاستعرض الخيل وهي صافنة وهي جارية، وانطلقت الخيل في جريها السريع حتى غابت وراء الأفق بشدة عدوها وقوتها.

ثم يأتي بعد ذلك قوله تعالى عن سليمان عليه السلام: **﴿ردّوها عليّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾**. وفي بعض كتب التفسير يأتي معنى هذه الآية أن سليمان عليه السلام قال لا والله لاتشغلني الخيل عن عبادة ربي، ثم قال ردّوها علي ثم أمر بها فعقرت.

فلو فرضنا أنه شُغِل بالخيل فما هو ذنب الخيل حتى يأمر بعقرها، وكان حسبه أن يستغفر ويتوب، وأن يحفظ الخيل قوة لدين الله.

وكذلك جاء النصّ: **﴿فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾**. أي أن الذي قام بالعمل هو سليمان نفسه عليه السلام، لا غيره. فهل قام سليمان عليه السلام بعقر الخيل كلهـــا بيده؟! وهذا بعيد الاحتمال، لأنه سيُشغَل بذبحها أكثر مما شُغِل

باستعراضها. وإذا قلنا إنه أمر بعقرها فهذا مخالف للنص: ﴿فطفق﴾ أي سليمان عليه السلام نفسه. أما أن تُعقَرَ الخيل لأن نبيّ الله شغل بها فأمر لايطلبه الدين بل هو عمل أقرب لمخالفة قواعد الدين. وكان حسبه التوبة والاستغفار كما ذكرنا، وأما أن يحفظ الخيل قوة للإسلام وللمؤمنين، وإرهاباً لأعداء الله، فهو من الدين:

﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وماتنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لاتظلمون﴾ [الأنفال: ٦٠]

فعَقْر الخيل إضاعة لقوة أمر الله بإعدادها والعناية بها لحماية الأمة والدين. وكلمة «المسح» لاتدلُّ على الذبح والعقر بمعناها الحقيقي.

وعقر الخيل تبذير وإسراف، وعدم تقدير لنعمة الله وفضله، وإضاعة لأموال المسلمين.

لذلك لانرى أن هذا التأويل يستقيم لغة أو معنى. والأولى هو ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن نبيّ الله سليمان عليه السلام مرّ على الخيل يمسح أعناقها وسيقانها تحبّباً لها وتكريما لقوة من قوى الإسلام، ونعمة من نعم الله.

ومسح أعناق الخيل وسيقانها عادة متبعة تعرفها الشعوب كلها قديما وحديثاً. وتكاد تكون جزءاً من معاملة الخيل بعد عودتها من الجرى أو السباق، إشعاراً لها بتقدير مابذلته من جهد.

لذلك نرى أن معنى هذه الآيات يكون أكثر اتساقاً وتناسقاً مع اللغة وقواعد الإسلام وما عرفته الشعوب من عادات لتكريم الخيل، حين نفهمه على النحو التالي:

إن سليمان عليه السلام كان نعم العبد، كثير الذكر لله أواباً إليه. وتبرز هذه الصفات باهتمامه بإعداد قوة الإسلام للجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته. فأعد الخيل واستعرضها استعراضاً شمل وقوفها وجريها. حتى إذا اطمأن إلى قوتها بما رآه من هيئتها وسرعة جريها أمر بإعادتها إليه. فمسح بيده على أعناقها تحببا لها وتكريماً لها وحمداً لله على ما وهبه من هذه النعمة العظيمة.

ولو كان فيما عمله سليمان عليه السلام خطأ لاختلف النصّ ولجاء كما ورد في الآيات التي تلت هذه القصّة:

﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيّه جسداً ثم أناب﴾ . وحين ننكر الروايات الإسرائيلية عن هذه الآية الكريمة ، وحيث لا نجد نصّا من قرآن أو سنّة يبيّن لنا حقيقة هذا الجسد الذي ألقاه الله على كرسي سليمان فتنة له ، فنأخذ الآية الكريمة على ظاهر معناها ، ولاندخل في تأويل لاتسعفنا فيه اللغة ولا النصوص الملزمة . ونؤمن أن هذا حق أراد الله أن يعلمنا به أننا كلنا معرّضون للفتنة والابتلاء والتمحيص على النحو الذي يريده الله سبحانه وتعالى ، كما ابتلى عبده ونبيه سليمان عليه السلام ، وأن علينا أن نعدّ أنفسنا إيمانا وعلماً وممارسة وتدريباً ، حتى ننجو من الابتلاء والفتنة برحمة الله وفضله .

لو رجعنا إلى سورة «ص» والموضوعات التي طرقتها ، لوجدنا أن هذا التفسير أكثر تناسقا مع موضوعات السورة ، وأكثر ترابطاً .

تستعرض السورة في أولها موقف الكافرين وماهم فيه من حمية باطلة تبعدهم عن الحق ، وشقاق يصدُّهم عن سبيل الله . ثم تذكر السورة نماذج من جدالهم ودعواهم بالباطل . ثم تضرب على ذلك مثلاً بالأحزاب الذين هُزموا : قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة . فأولئك هم الأحزاب الذين تجمعوا عبر التاريخ ليصدوا عن سبيل الله . وهؤلاء ليسوا هم كل الكافرين ، وإنما هذه أهم النماذج التي يضرب الله لنا بها مثلاً على الكافرين الذين هم في عزّة ، أي كبر عن الحق ، وشقاق .

هؤلاء الكافرون لم يكونوا يحكمون بالحق ، بل كانوا يحكمون بالباطل ، ولايحسنون القضاء ولا إصابة العدل فيه ، وينشرون الظلم والفتنة والفساد في الأرض . هؤلاء يمثلون حشود الفتنة في التاريخ البشرى ، وجنود الضلال : **﴿جُندٌ ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾** ثم يضرب الله لنا بعد ذلك مثلاً بالذين يقيمون العدل في الأرض ، ويرفعون الظلم ، ويجاهدون في سبيل الله ، ويحفظون قوة دينه ، ويصبرون على مايبذلون به . ويظلون في رعاية الله . إنهم أنبياؤه ورسله إلى عباده المؤمنين .

فضرب الله لنا مثلاً بداود عليه السلام . وذكر من صفاته مايتناسق مع العرض الذي تستدعيه السورة : **ذو أيد، أواب، سخر الله له الجبال يسبحن معه، وحشر له الطير، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب** . ثمّ عرضت السورة القصّة لتؤيد هذا السياق لالتناقضه .

ثم ضرب الله لنا مثلاً آخر بسليمان عليه السلام، وذكر سبحانه وتعالى من صفات عبده ونبيه سليمن عليه السلام مايناسب السياق كذلك، وما يصور جانباً من مسيرة الدعوة الإسلامية في الأرض، من ضرورة إعداد القوة لمجابهة أعداء الله، وإعداد الخيل لتظل مرابطة للجهاد في سبيل الله. ثم جاءت قصة عرض الجياد لتتناسق مع هذا كله، لالتناقضه.

ثم توالت الأمثلة من حياة الأنبياء والمرسلين: أيوب وإبراهيم وإسحق ويعقوب، وإسماعيل واليسع وذا الكفل عليهم السلام.

ثم تمضي السورة لتبيّن مصيرالمتقين في جنات عدن، ومصير الكافرين الطاغين في النار. ثم تعرض صورة من الجدل الذي يردّ عليه محمد ﷺ بالحجة البينة القاطعة كما يأمره الله سبحانه وتعالى.

فإذا كانت المعركة دائرة بين هاتين الفئتين في التاريخ البشري، وإذا كان الأنبياء والرسل يحملون رسالة الله في الأرض على مدى التاريخ كله، وإذا كان محمد ﷺ هو خاتم النبيين والقرآن جاء مصدّقاً لما بين يديه ومهيمناً عليه، وإذا كان هؤلاء الأنبياء والمرسلون يقودون هذه المعركة ويمثلون الطائفة الأولى الظاهرة الماضية مع التاريخ على هدي من الله سبحانه وتعالى ليقيموا العدل والحق في الأرض، فإن الجانب الآخر من المعركة يقوده إبليس ليدفع هؤلاء الكافرين ليقيموا الظلم في الأرض، وينشروا الفتنة والفساد. وتُختَتم السورة في بيان أصل المعركة وبدايتها، هناك في عالم الغيب، حين أعلن إبليس كفره وتعهد أن يظل يقود قوى الشّر في الأرض كلها.

إنه استعراض معجز لهذه المعركة في حياة البشرية، وعرض لبدايتها هناك في عالم الغيب، مع ذكر نماذج من هذه الطائفة ونماذج من تلك.

نخرج من ذلك أن سياق السورة كلها يوحي لنا بأن الله سبحانه وتعالى ضرب لنا أمثلة ونماذج من الأنبياء والمرسلين، لتبيّن مواقفهم حقيقة جهادهم، وجوهر طاقاتهم، والتزامهم بأمر الله فتكون القصص في السورة إذن مطابقة لتوضيح هذه المواقف وتلك الخصائص.

ونعيد هنا ونؤكد أهمية حذف الروايات الإسرائيلية من كتب التفسير، حتى نحمي أجيال المؤمنين في مدرسة الدعوة الإسلامية، في مدرسة الإسلام، من هذا الضلال الذي تحمله الإسرائيليات غفر الله لعلمائنا الذين نقلوا ذلك وأثبتوه في كتبهم فأذاعوه ونشروه.

الفصل الثالث

موسى عليه السلام
وقومه والأرض المقدسة
مع آيات من سورة المائدة

﴿ ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولانذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كلّ شيء قدير* وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين* ياقوم ادخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين* قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبّارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون* قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين* قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون* قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين* قال فإنها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تاس على القوم الفاسقين﴾

[المائدة : ١٩ - ٢٦]

هذه الآيات الكريمة من سورة المائدة يحسن أن نفهمها من خلال السورة، أو ما سبق هذه الآيات من آيات أُخرى. حتى تتضح الصورة والمعنى الذي يمكن أن نخرج به من هذه الآيات.

وهذه الآيات تتحدث عن بني إسرائيل وموقفهم من أمر الله لهم أن يدخلوا الأرض المقدَّسة على لسان موسى عليه السلام:

﴿ ياقوم ادخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لكم ولاترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾.

ومعظم حديثنا في هذه الكلمة يدور من حيث الأساس حول هذه الآية ومعناها، وحول ماذهبت إليه بعض كتب التفسير، فأخطأت فيها ذهبت إليه من تأويل لايتفق مع نصوص القرآن والسنة، ولا مع الحقيقة الإيهانية للأرض المقدسة وأصحابها، ولا مع الصورة القرآنية لبني إسرائيل.

ولعله من الأيسر أن نستعرض أهم الموضوعات التي طرقتها سورة المائدة، لنحاول ربط الموضوعات فيها بينها.

روى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد قالت: «**إني لآخذة بزمام العضباء، ناقة رسول الله ﷺ، إذ نزلت عليه المائدة وكادت من ثقلها تدقُّ عضد الناقة**»[1].

ويروي الإمام أحمد أيضاً عن عبدالله بن عمر أنه قال: «**أُنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحملها فنزل عنها**»[2].

إذن تحمل سورة المائدة قضية أوقضايا هامة وخطيرة في ساحة الإيهان والتوحيد، حتى كانت ثقيلة الحمل عظيمة الشأن، حتى كادت تدقُّ عضد الناقة، ولم تستطع أن تحملها فنزل عنها رسول الله ﷺ.

لقد بدأت السورة بأمر الله للمؤمنين أن يوفوا بالعقود التي يبرمونها في الحياة الدنيا خاضعة لأحكام الله وشرعه ودينه، وعهد خلقه معه. هذه العقود هي التي يتكرر ذكرها في سورة البقرة والرعد والنحل وغيرها والتي يسيمها القرآن الكريم «عهد الله»، مع أنها هي عهود الناس في حياتهم الدنيا نابعة من عهدهم مع ربهم وخالقهم.

هذه القضية هي التي افتُتحت السورة بها. واختُتمت كذلك بالموقف يوم القيامة، حين يجمع الله الرسل الذين كُلّفوا بتبليغ الناس رسالة الله لهم وبتذكيرهم بعهدهم مع الله، وما أخذ الله على عيسى عليه السلام والحواريين من عهد التزموا أن يوفوا به:

﴿ قال الله إني منزّلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أُعذبه عذاباً لا أُعذّبه أحداً من العالمين ﴾. [المائدة: ١١٥]

---

(١)، (٢) ابن كثير - تفسير سورة المائدة.

﴿ وإذ قال الله يـاعيسى بن مريم أأنت قلت للنـاس اتخذوني وأمّي إلهين من دون الله......﴾. [المائدة: ١١٦]

ويمضي التذكير بأخطر شروط العهد الذي أخذه عيسى عليه السـلام ممن تبعه، ثم انحرفوا عن ذلك العهـد العظيم، العهد الذي كان أساس دعـوة الرسل جميعهم، الرسل الذين يجمعهم الله يوم القيامة ليبرز من أوفى بالعهد ومن خالفه.

وخطورة هذه القضية وثقلها تتضح لنـا حين ندرك أنها هي محور حياة البشر في الحياة الـدنيا، يقـوم صلاحهم على الـوفاء بـالعهود، وعلى التـزام العهود للعهـد الأول مع الله، ويمتدّ الفساد في الأرض وتنتشر الفتنة حين يختل هذا الوفاء.

والسورة، بين أولها وآخرهـا، تستعرض قضايا هامـة وخطيرة، كلها ترتبط بشكل أو بآخر بـالعهود والوفاء بها. لـذلك نمرّ على هذه القضايـاونستعرضها عرضـاً سريعاً حتى يسهل علينا بعد ذلك تدبّر الآيات التي نذكرها في أول هذه الكلمة:

أحلت لكم بهيمـة الأنعام، غير محلي الصيـد وأنتم حرم، أن لايُحل المؤمنـون شعائر الله ولا الشهـر الحرام ولا الهدي ولا القـلائد ولا آمّين البيت الحرام، وأن لا يعتـدوا وأن لايدفعهم هوى الكراهية إلى العدوان. ثم تبين السورة بعض ما حرّم الله، ثم تبيّن أحكام الوضوء.

ثم يأتي بعد ذلك التـذكير بثلاثـة عهود ومواثيق أخـذها الله من بعض الأنبيـاء والأقوام، تبيّن خلاصة العهد مع الله في تاريخ البشرية، وخـلاصة رسالة الله إلى خلقه. ومن خلال هذا العـرض لهذه العهـود تبيّن السـورة كيف نقض اليهـود عهـدهم مع الله وكيف قست قلـوبهم فحرّفـوا كلام الله ونسوا حظاً ممـا ذُكروا به، وكيف نسي النصـارى حظاً مما ذُكروا بـه ونصيباً من عهدهم مع الله، وما كان أثر ذلك.

فالعهد الأول الذي تذكره السورة عهد محمـد ﷺ وأصحابه مع الله سبحانه وتعالى يأمرهم أن يذكروا هذا العهد ولاينسوه، وأن يكونوا قوامين لله شهداء بالقسط...

﴿ واذكروا نعمة الله عليكـم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتـم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور ۞ يأيها الذيـن آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء

بالقسط ولايجرمنكم شنئان قوم على ألاّ تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون.﴾ [المائدة: ٧ ، ٨]

هذا هو العهد الذي أخذه الله على محمد ﷺ وأصحابه وأمته إلى يوم القيامة، قوامة بالقسط، شهادة لله، عدالة لاتنحرف بالهوى. . . . ! والعهد مع بني إسرائيل:

﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرنّ عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل* فبما نقضهم ميثاقهم لعّناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولاتزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين.﴾ [المائدة: ١٢ , ١٣]

عهد واضح بشروطه. ونقض كذلك واضح للعهد حتى لعنهم الله. وخيانة ممتدة لم تتوقف منذ خانوا موسى عليه السلام: **﴿ولاتزال تطلع على خائنة منهم .....﴾**.

والعهد مع النصارى كذلك جاء بينا جليّا:

﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون.﴾. [المائدة: ١٤]

ثم تمضي السورة، بعد التذكير بهذه العهود الثلاثة، لتذكر أهل الكتاب بنقضهم لعهدهم، وبأن محمداً ﷺ جاء ليبيّن كثيراً مما كانوا يخفون ويكتمون.

ثم تكشف السورة انحراف أهل الكتاب، وتنكر عليهم مايدّعونه من أنهم أبناء الله وأحباؤه بالحجة القاطعة. ثم تكشف لنا كذب ادعائهم، فتضرب لنا مثلاً على انحرافهم ونقضهم لعهد الله من خلال الآيات التي هي أساس هذا البحث، حين تقاعسوا عن الدخول لأرض فلسطين كما أمرهم رسول الله، بأعذار مخجلة تافهة. ثم تضرب مثلاً على الانحراف ونقض العهد بما فعل أحد ولدي آدم عليه السلام. وتتابع السورة وصف أهل

الكتاب بعامة واليهود بخاصة، وتبيّن لنا شدة فسادهم وانحرافهم، وتأتي تشريعات تبيّن الحدود التي تقام على من يحارب الله ورسوله، وقطع يد السارق. وتمضي السورة تكشف من طبائع اليهود السيئة حتى إن الله لم يرد أن يطهر قلوبهم، ولكن ينذرهم بالعذاب الشديد: ﴿سماعون للكذب أكالون للسحت....﴾.

وتتحدث السورة بعد ذلك عن التوارة والإنجيل، وتدعو اليهود والنصارى إلى الالتزام بما أُنزل إليهم، لا إلى التفلتُ منه أو الانحراف عنه أو تحريفه. ثم تبيّن السورة أن القرآن الكريم مصدّق للتوراة والإنجيل غير المحرفين، ومهيمنٌ عليهما، ليصبح الحكم بالقرآن وبسنّة نبيه محمد ﷺ، بمنهاج الله وحده.

ثم تتحدث السورة بتفصيل عن «قضية الولاء»، وأن المسلم يحرم عليه موالاة اليهود والنصارى والكافرين. وتبيّن كيف خالف هؤلاء الولاء لله واتبعوا أهواءهم. وتعيد السورة تأكيد العهد الذي أخذه الله من اليهود، وكيف نقضوه بالكذب على الأنبياء والرسل أو بقتلهم، حتى نشروا الفتنة في الأرض.

ثم تتحدّث السورة عن النصارى بالتفصيل أيضاً، وكيف خالفوا العهد والميثاق حتى كفروا. ثم تناقش هؤلاء وهؤلاء بالحجة القاطعة لتبيّن ضلالهم. وتتأكد لعنة الله على الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، وتكشف كيف أنهم يتولون الذين كفروا.

وتأتي الآية الكريمة: ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا.....**﴾. لتتحدث عن قضية جديدة وعن موقف اليهود والنصارى والمشركين منها، وهي قضية الدعوة إلى الله ورسوله، كما فصلنا ذلك في كتاب «الولاء بين المنهاج الرباني والواقع»، وفي كتاب «ملحمة فلسطين». تتحدث السورة بعد ذلك عن جوانب من نقض الميثاق في حياة الناس عامة: تحريم ما أحل الله، اللغو باليمين، وكفارة اليمين الذي ينويه صاحبه ثم يخالفه. ثم تذكر السورة تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، ثم أحكام الصيد.

وتعرض السورة بعد ذلك أحكاماً عامة تعين المؤمن على الوفاء بعهده مع الناس في

الحياة الدنيا وبعهده مع الله . وتعرض كيف يتبع بعض الناس مايتوارثونه عن الآباء والأجداد ولو كان ضلالاً.

ثم تعرض السورة قضية الشهادة عند الموت، وتختتم بعد ذلك بعرض الموقف الجامع يوم القيامة حيث يتم الحساب على أساس العهود التي أُخِذَتْ من هؤلاء ومن هؤلاء كما ذكرنا آنفاً.

من هذا الاستعراض السريع ندرك أهمية العقود والعهود النابعة من العهد مع الله، الملتزمة بشروطه، المحققة لغاياته. وندرك أنها ثقيلة .

ومسئولية كبيرة، عجز اليهود عن الوفاء بها فانحرفوا وضلوا وأضلوا، وحرفوا كتابهم وقتلوا أنبياءهم وكذبوهم حتى نزلت عليهم لعنة الله على لسان داود وعيسى بن مريم . وكذلك ندرك كيف انحرف النصارى عن ميثاقهم حتى بلغ في بعض معتقداتهم الكفر. وندرك خصائص هؤلاء وهؤلاء وطبائعهم .

وندرك كذلك خطورة قضية الولاء وأهمية التشريع الذي نزل من أجلها . وكذلك ندرك قضية الدعوة الإسلامية في الأرض وكيف أن الكافرين واليهود هم أشد أعداء هذه الدعوة، وأن النصارى الذين يبقون على نصرانيتهم هم أكثر استجابة للدعوة الإسلامية، ولا نُغَرَّ بواقع النصارى اليوم فهؤلاء لم يعودوا يقولون «إنا نصارى»، بل قالوا إنهم «علمانيون»، لا يدينون بدين من عند الله، ثم يستغلون الدين من أجل مطامعهم وعدوانهم وفسادهم .

هذه كلها تعيننا على فهم الآيات التي هي موضع بحثنا من هذه السورة، وتعيننا على أن ندرك الخطأ الذي ذهب إليه بعض المفسرين :

﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين* ياقوم ادخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لكم ولاترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾. [المائدة : ٢٠، ٢١]

ثلاث قضايا نود أن نقف عندها في هذه الآيات الكريمة :

١ - **﴿ .... إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾** .

٢ - ﴿**الأرض المقدّسة.....**﴾

٣ - ﴿**التي كتب الله لكم .....**﴾

يقول ابن كثير بصدد القضية الأولى : «يعنى عالمي زمانهم، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم».

من أين أتى هذا التفسير ؟ ! وكيف كانوا أشرف أهل زمانهم؟ وما هو الميزان الذي يُحَدَّد به شرف قوم من الأقوام عند الله؟

لقد سبق معنا في استعراض السورة الوصف الحق لبني إسرائيل من عندالله . فقال سبحانه وتعالى : ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به...**﴾

فهل هذا الوصف الحق من عند الله يجعل منهم أشرف الشعوب؟ فإن كانوا بهذه الخصائص هم أشرف الشعوب، فمن يكون إذن أحطّها؟ !

ويقول عنهم سبحانه وتعالى في السورة ذاتها: ﴿ **يخفون كثيراً من الكتاب**﴾، ﴿**لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون* كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون* ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ماقدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون**﴾، ﴿**... ولكن كثيراً منهم فاسقون**﴾، ﴿**لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا...**﴾، كذبوا على أنبيائهم وقتلوا بعضهم.

فإذا أضفنا إلى هذه الصفات السيئة المشينة بقية ما ورد في سورة المائدة عن اليهود، وما ورد في سورة البقرة وآل عمران والنساء وغيرها من القرآن الكريم، لهالنا الوصف السيىء الذي يستحيل أن يكونوا معه أشرف الشعوب في ذلك الزمان. وشعوب ذلك الزمان هي شعوب هذا الزمان بصورة عامة. ومثل هذا التفسير يؤيد قول اليهود عن أنفسهم أنهم شعب الله المختار، وأنهم أفضل الشعوب على الأرض على مرّ الزمان.

وهذا التأويل لايستقيم ووقائع التاريخ كله، ولا مع واقعنا اليوم، ولا مع نصوص منهاج الله. فكيف نفهم الآية إذن؟!

لقد ردّ الله على هذا التأويل الفاسد في نفس السورة فكيف غاب ذلك عن بال الكثيرين:

﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير.﴾ [المائدة: ١٨]

﴿بل أنتم بشر ممن خلق....﴾ ! نعم ! لاحق لهم كجنس أو قوم أن يستكبروا على غيرهم من شعوب الأرض، ولاحق كذلك لغيرهم، فشرف أي أمة أو شعب في ميزان الله هو التقوى فحسب!

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ [الحجرات: ١٣]

هذا هو الميزان الحق عند الله في تفاضل الشعوب وشرفها: **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم..﴾** ولاميزان سواه.

وحديث رسول الله ﷺ في حجة الوداع في خطبته أوسط أيام التشريق «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى». (١)

وكذلك

«إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»

[رواه مسلم وابن ماجه](٢)

وكذلك

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «الناس ولد آدم، وآدم من تراب»

[رواه ابن سعد](٣)

---

(١) أحمد: الفتح الرباني (ح: ١٢)، (ص: ٢٢٦)، (حديث: ٤٢٧).
(٢) مسلم: ٤٥/ ١٠/ ٢٥٦٤.
(٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته (رقم: ٦٧٩٨).

عن حذيفة أيضاً : «كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهينّ قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون عند الله من الجعلان» [رواه البزّار][1]

نخلص من ذلك إلى أن تفضيل قوم على قوم على أساس الجنس أو الدم أو التفاخر بالآباء أمر منهيّ عنه في الإسلام ، وأساس فاسد للمقارنة بين الشعوب ، وأن الميزان الوحيد عند الله لذلك هو التقوى ولا ميزان سواه .

وإذا كان هذا هو أساس المقارنة والتفضيل ، بعد أن ثبت هذا بالنصّ الواضح من القرآن والسنة ، فعلى هذا الأساس وحده إذن نفهم معنى الآية التي نحن بصددها : ﴿وآتاكم مالم يؤتِ أحداً من العالمين﴾ ، وعلى نفس الأساس نفهم سائر الآيات التي تحمل مايشبه الآية السابقة مثل قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾
[البقرة : ٤٧]

﴿ يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾
[البقرة : ١٢٢]

﴿ قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين﴾ [الأعراف : ١٤٠]

ففي هذه الآيات الكريمة ، يصبح معنى ﴿على العالمين﴾ أهل ذلك الزمن أو تلك الفترة وحدها ، لا على مدى الزمن كله . ويكون التفضيل هو في أمر خاص بتلك الفترة . والتفضيل لايكون على ضوء ذلك بين الأقوام والدماء والأجناس ، فالأقوام والأجناس والشعوب في تلك الفترة هم نفسهم في فترات لاحقة من التاريخ . والتفضيل لايكون إذن لأن هناك شعباً أشرف من شعب بأصله وجنسه .

فالتفضيل كان في أن بعث الله موسى عليه السلام فيهم وحدهم وليس في شعب آخر لحكمة يريدها الله . ولن تتناقض هذه الحكمة الربانية مع قواعد الدين ، دين الله ، الذي جاء وحياً من عنده على أنبيائه ورسله .

فهذا هو الفضل الذي خصهم الله به ، لينشر موسى عليه السلام دعوة الإسلام في

(١) صحيح الجامع رقم (٤٥٦٨) .

أهـــــــل مصر، يعينه في ذلك من آمن معه من بني إسرائيل أو من قوم فرعون : فلم يكن التفضيل لأنهم اشرف الشعوب آنـذاك. فقد بعث الله في كل شعب، أو كل أُمـة ، رسولاً يبلغهم رسالة الله :

﴿ولقد بعثنـا في كلّ أُمة رسولاً أن اعبـدوا الله واجتنبوا الطاغـوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقّت عليه الضـلالة فسيروا في الأرض فانظـروا كيف كان عاقبـة المكذبين﴾

[النحل : ٣٦]

﴿ إنـا أرسلنـاك بـالحق بشيراً ونـذيـراً وان مـن أُمـة إلا خـلا فيهـا نـذيـر﴾

[فاطر : ٢٤]

فلم يبعث الله أَنبيـاءه ورسله في تلك الأُمم لأنهم كـانوا أشرف الأمم. ولكن لحكمـة يريدها الله في هذا القوم او ذاك. كأن يكـون الله قد بعث الرسل ابتلاء وتمحيصاً وكشفاً لما هو مخفيٌّ من فسادهم وشرهم، كما هو الحال في بني إسرائيل ،أو رحمة منه سبحانه وتعالى كما بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، أو لحكمـة لانعلمها، ولا حاجة لنـا بأن نعلمها، ولو كان هناك حاجـة لبيَّنها الله لنا. وفي جميع الحالات لايكون ذلك لشرفهم بل لإصلاحهم. فإرسال النبيّ أو بعث الرسول في أي أُمة هـو نعمة من الله على تلك الأمة. وإرسال موسى عليـه السلام نعمـة من الله عليهم، وفي الوقت ذاتـه ابتلاء وتمحيص، كما يتضح لنـا من سيرتهم مع موسى عليه السلام مما تكشفه عدة سور في القرآن الكريم مثل سورة الأَعراف.

ولذلك جاءت الآية في سورة البقرة تـذكر بني اسرائيل بهذه النعمة وتطالبهم بأن يفوا بعهدهم مع الله ليـوفي الله بعهده لهم، عهده الـذي بيّناه في الصفحات السابقـة، والذي بيّنته سورة المائدة. أما الآية في سورة البقرة فهي :

﴿ يـابني إسرائيل اذكـروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفـوا بعهـدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾ [البقرة : ٤٠]

ثم تمضى سورة البقرة تبين كيف نقض اليهود ميثاقهم وعهدهم مع الله، ومع أنبيائهم.

وكان كلُّ نبيٍّ يُبْعثُ إلى قومه خاصة، إلا محمـداً ﷺ ، فقد بُعِثِ للناس كافة. وجاء

القرآن الكـريم مصدقاً لما بين يديـه ومهيمنا عليه ، ولم يعـد يُقبل من أحد من خلق الله أن لايتبع رسالة محمد ﷺ.

فكان مـوسى عليه السلام قد بُعث في ذلك الـوقت لقومه من بني إسرائيل ولفـرعون وقومه آنذاك . ولكنّ بني اسرائيل لم يستجيبوا لدعوته :

﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين﴾ [يونس : ٨٢]

ومع اختـلاف المفسرين حول كلمـة **﴿إلا ذرية من قـومه﴾** ، أهم ذرية مـن قوم موسى أم من قـوم فرعون ، ففـي كلتا الحالتين تشير الآية الكـريمة إلى أن الذين آمنـوا معه قليلون . وتظـل الآيات كلها في كتـاب الله تؤكـد فساد بني إسرائيل لا شرفهـم ، وأن هذا الفساد والفتنة واللعنة من الله والغضب منه عليهم ممتد إلى يوم القيامة .

﴿ضُرِبت عليهم الـذلـة أينما ثقفـوا إلا بحبل من الله وحبل من النـاس وبـاءوا بغضب من الله وضُرِبتْ عليهم المسكنة ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ [آل عمران : ١١٣]

﴿ وإذ تأذّن ربك ليبعثن عليهم إلى يـوم القيامـة من يسومهم سـوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ [الأعراف : ١٦٧]

ويمضي عذاب الله وعقابـه لا على اليهود وحدهم ، ولكن على كل من ينقلب عن دين الله ، وعلى كل من يفسد في الأرض ، على سنن لله ماضية ، وقدر غالب ، وحكمة بالغة .

ولايَغرّنّ أحـد بما بلغ اليهود في هـذه الأيام . فما بلغـوا ذلك إلا بهوان غيرهم وضعفهم وتـوليهم عن حمل الأمانـة التي كلّفـوا بها . وستظل سنن الله مـاضية في خلقـه كلهـم ، لا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى . وزهوة الدنيـا لا تعني أن أهلها مرضيون عند الله ، ولكنها فتنة يُمحّص بها الناس جميعاً ، وفترة تنقضي ، والله غالب على أمره .

أما القضية الثانية وهي : **﴿ادخلوا الأرض المقدّسة...﴾** .

فهذه الأرض على الرأي الغـالب بلاد الشام . ولكن القضية التي نعـرضها هنا ليست محصورة في تعيين حدود الأرض ، ولكن في تحديد قدسيتها وبركتها .

فهي مقدّسة ومباركة بدين الله ودعوة الإسلام وأنبياء الإسلام ورسله. إنها ليست مقدّسة لشرف شعب دون آخر، ولكنها مقدسة برسالة ممتدة مع التاريخ منذ أيام نوح عليه السلام وإبراهيم ولوط وقد تحدثت عن هذه القضية في «ملحمة فلسطين» و «ملحمة الأقصى»، و «على أبواب القدس»، و «فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع».

ونوجز هنا النقاط الرئيسة. فإبراهيم ولوط عليهما السلام لم يدخلوها بجنس أو عنصر أو شعب خاص، وإنما برسالة الإسلام ودعوته. وكذلك موسى عليه السلام ومن آمن معه كانوا مسلمين مؤمنين يحملون رسالة الإسلام. وكذلك عيسى عليه السلام كان مسلماً، وكذلك كان من آمن به. وكذلك سائر الأنبياء الذين كانوا في فلسطين من هاجر إليها ومن هاجر منها ومن ولد فيها وملك وحكم، ومن رفع منها إلى السماء، ومن أُسري به إليها، وعُرج به إلى السماء منها، كان ذلك كله باسم دين الإسلام وحده:

﴿ ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين* إن أولى الناس بإبراهيم لَلّذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله وليّ المؤمنين﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨]

وكذلك دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم* ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾

[البقرة: ١٣٨، ١٣٩]

وموسى عليه السلام ومن آمن معه كانوا مسلمين:

﴿ وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾

[يونس: ٨٤]

وداود وسليمان كانا كذلك مُسْلِمَيْن يدعوان إلى الإسلام:

﴿ وورث سليمان داود وقال يـا أيها الناس علمنـا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لـهو الفضل المبين﴾ [النمل : ١٦]

فماذا ورث سليمان، وماهو هذا الفضل المبين. إنه الإسلام ورسالته ودعوته :

﴿ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾

[النمل : ٤٢]

وهكذا كل الأنبياء والمرسلين، كـانوا على دين واحد، ويحملون رسالـة واحدة ودعوة واحدة، هي دعوة الإسلام.

وعيسى عليه السلام كذلك :

﴿فلما أحسّ عيسى منهم الكفر قال من أنصـاري إلى الله قال الحواريو ن نحن أنصار الله آمنّا بالله واشهد بأنا مسلمو ن﴾ [آل عمران : ٥٢]

وفي سورة المائدة نفسها :

﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بانا مسلمو ن﴾

[المائدة : ١١١]

من هذا العرض الموجز نرى أن الأساس في قدسية فلسطين، والمسجد الأقصى، وبلاد الشـام عامـة، هو في النبـوّة المسلمة التي امتـدت فيها، هـاجرت إليهـا، أو ولدت فيهـا، ودعت فيها إلى الإسـلام، أو رفعت منها إلى السماء، أو أسرى بها إليهـا وعرج بها إلى السماء. إنها نبوة الإسلام الممتدة مع التاريخ وملاحمها المتـواصلة، ورسالة الدعوة إلى الله ورسوله، إلى الإيمان والتوحيد. ولا بـأس بعد ذلك أن تكون فيها مظـاهر أخرى للبركة والأهميـة والقدسية كالموقع الوسط، والاتصال مع الأرض كلها من جميع جهاتها وغير ذلك .

إذن هي مقـدّسـة قبل موسـى عليه السـلام، النبيّ المسلم الـذي يـدعو إلى رسـالـة الإسلام، وكـان موسى يعلم ذلـك حتى قال لقـومه : **﴿ادخلوا الأرض المقـدّسة...﴾**. فهذه الأرض ملك للأمـة المسلمة وحدها عبر التاريخ كلـه. إنها ملك الأمة المسلمة التي

تحمل رسالة الإسلام، رسالة الله إلى خلقه، رسالة الأنبياء كلهم عبر التاريخ البشريّ، رسالة الإيمان والتوحيد والدعوة الإسلامية.

إنها ملك الأُمة المسلمة التي ترتبط برابطة الإيمان والتوحيد، برابطة الولاء الأول لله، والعهد الأول مع الله، برباط الأخوّة في الله، برباط الأخوة في الإسلام.

إنها فلسطين، ملك هذه الأُمة المسلمة بهذه الرسالة وهذه الرابطة، بعيداً عن روابط الجاهلية، وروابط الجنس والدّم. إنها ملك الإسلام، وأُمة الإسلام، ورسالة الإسلام.

إنها ليست ملكاً «لشعب مختار»، فليس عندنا لله «شعب مختار»، بعد أن تبيّن لنا أن أساس التفاضل عند الله هو التقوى، والتقوى فقط، وبعد أن تبيّن أن من يدّعي بأنه «شعب الله المختار» هو الشعب الذي غضب الله عليه ولعنه لكثرة ما ارتكب من فتنة وفساد وجرائم في تاريخ الإنسان.

إنها ملك الإسلام، ورسالة الإسلام، وحق الإسلام بنصّ القرآن والسنة، منذ أقدم العصور، وإلى يوم القيامة. فإذا اغتصبها الظالمون المعتدون في مرحلة من مراحل التاريخ، فهو عقاب للذين تهاونوا في حمل رسالة الإسلام ودعوة الإسلام، فقصروا في حماية حقّ الإسلام ودار الإسلام، فأثموا عند الله إثماً كبيراً.

إنها ملك الإسلام، ورسالة الإسلام ودعوته وأُمته، لحاجة الدعوة الإسلامية لها لتيسّر لها سرعة التبليغ وسهولته بسبب هذا الموقع الوسط الذي بارك الله فيه، ولتقوم الأُمة المسلمة بأمانتها في نشر الدعوة الإسلامية في الأرض كلها من خلال هذا الموقع الوسط الذي يرتبط بمكة والمدينة المنوّرة ارتباط دين ورسالة، وأمانة كبرى ومسئولية عظيمة.

لقد فصلنا في هذه القضية الخطيرة تفصيلاً كثيراً مع الأدلة من القرآن والسنة في كتاب «فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع»، و كتاب «على أبواب القدس»، وكتاب «ملحمة فلسطين» مما لايتسع المجال هنالإعادته.

كان لابدّ من فهم هذه القضية وعرض هذه الصورة لها، للأرض المقدّسة حتى نتدبّر القضية الثالثة من الآية الكريمة موضع هذه الكلمة.

فالقضية الثالثة هي في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **التي كتب الله لكم**﴾.

وهنا يذهب ابن كثير وغيره من المفسّرين إلى أنها وراثة لهم من أبيهم إسرائيل لمن آمن منهم .

والخطأ الأول أن هـذا المعنى منقول عن الإسرائيليـات لا أصل له من قـرآن أو سنة . وهـذا مثل واضح على الخطر الـذي ينشأ من تسلل الإسرائيليـات إلى الفكر الإسـلامي ، فيتورّط في خطأ الأخذ منها عالم أو جاهل .

فلا بدّ للمسلم أن يقف طويلاً عند هذه الكلمات ليرفض ما يخالف القرآن والسنة .

والخطأ الثـاني هـو أن في هـذا المعنى مخالفـة صريحة لما ورد في السنـة الصحيحـة عن رسـول الله ﷺ. فالأنبيـاء لايـورّثون درهما ولادينـاراً ، ولا أرضـاً ولا عقاراً ، وليست هـذه مهمتهم ولا رسالتهم :

فعن عـائشة رضي الله عنهـا في الصحيحين وعند أحمد ، وعن أبي هـريرة عنـد مسلم والترمذي ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**لانورث ، ماتركنا صدقة**»[1] .

وعن أبي بكر رضي الله عنه في الصحيحين وعند أحمد وأبي داود والنسائي : «**لانورث ، ماتركنا صدقة ، وإنما يأكل آل محمد من هذا المال**»[2] .

وعن عائشـة رواية أخرى فيها زيادة عـن رواية أبي بكر: «**. . . . ، وإنما هذا المال لآل محمد ، لنائبتهم ولضيفهم ، فإذا متُّ فهو إلى وليّ الأمر من بعدي**»[3] .

إن الذي يورّثه الأنبيـاء هو رسالة الإيمان والتوحيد ، والدعوة إلى الله ورسـوله ، الدعوة إلى الإسلام . فلقد مرّت معنـا الآية الكريمة : ﴿ **وورث سليمان داود .....**﴾فقد ورث عنه رسالة الإسلام وقوتها ودعوتها ، ليمضي بها .

إذن ، فما هـو معنى : ﴿**.... التي كتب الله لكم...**﴾ لابـد أن نفهمهـا على ضـوء ماسبق عرضه في القضيتين السابقتين .

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم ٧٤٣٥ .
(٢) صحيح الجامع رقم ٧٤٣٦
(٣) صحيح الجامع رقم ٧٤٣٧ .

المعنى الذي نفهمه ليتناسق مع سائر الآيات والأحاديث هو: إنها الأرض التي قدّر الله لكم وأمركم أن تتجهوا إليها برسالة الإسلام لتكون مكان نجاتكم من فرعون، ولتكون فرصة تبلغون فيها رسالة الإسلام لمن فيها من الشعوب آنذاك. إنها الأرض التي كتب الله وقدّر وأمر أن تكون مكان نجاتكم ومكان ابتلائكم في الصدق بالالتزام برسالة الإسلام والخضوع لها والبذل لها. إنها الأرض التي قدّر الله أن يبتليكم فيها عندما يبعث أنبياء آخرين، كلما انحرفتم عن رسالة الإسلام، ليذكّروكم لتعودوا إلى الحق، وتصدّقوا بكل الأنبياء والمرسلين الذين سيبعثهم الله بعد ذلك في أرض فلسطين كعيسى عليه السلام، أو في مكة حيث يُبْعَث خاتم النبيين والمرسلين، لتصدّقوهم وتعزّروهم وتتبعوهم.

ولكن اليهود كفروا بكل ذلك وامتدّت ضلالتهم حتى حرّفوا التوراة، فبدّلوا فيها، وحذفوا منها، وخانوا الله ورسله، فامتد غضب الله عليهم ولعنته إلى يوم القيامة.

هذا المعنى وهذا التصور، كما نعتقد، أقرب لنصوص القرآن والسنة، وأقرب لنهج الإيمان والتوحيد، ولرسالة الإسلام كلها على مدى التاريخ.

إن الانزلاق إلى تصورات خاطئة تتسلل فينا من الإسرائيليات، مع قوة الإعلام لها في فترات كثيرة من التاريخ، إن هذا الانزلاق يجرّ إلى انزلاق بعد انزلاق، حتى تهون على الناس حقيقة قدسية فلسطين، وحقيقة الأرض المباركة، فيحسبونها حيناً أنها وقف منذ أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أو يحسبونها حيناً آخر أرضاً خاصة بشعب فلسطين، فلا يعود المسلم خارج فلسطين يشعر بمسئوليته عن هذه القضية، ولا يشعر بخطورة الحساب بين يدي الله عنها. ثم يسهل التنازل بعد التنازل في مسلسل طويل .

لقد كان أول تنازل عن هذا الحق الأكبر لأُمة الإسلام حين جعلوها أرضاً للعرب، ثم جزءاً من سوريا، ثم فلسطين معزولة عن سوريا، ثم جزءاً من فلسطين، ثم جزءاً من الجزء، ثمّ قضية أفراد ومعتقلين .

لخطورة هذه القضية نعرضها بهذا التصور الذي يأخذ عمقه في التاريخ والحاضر والمستقبل، وليتضح أهميته وخطورته في حياة البشرية كلها.

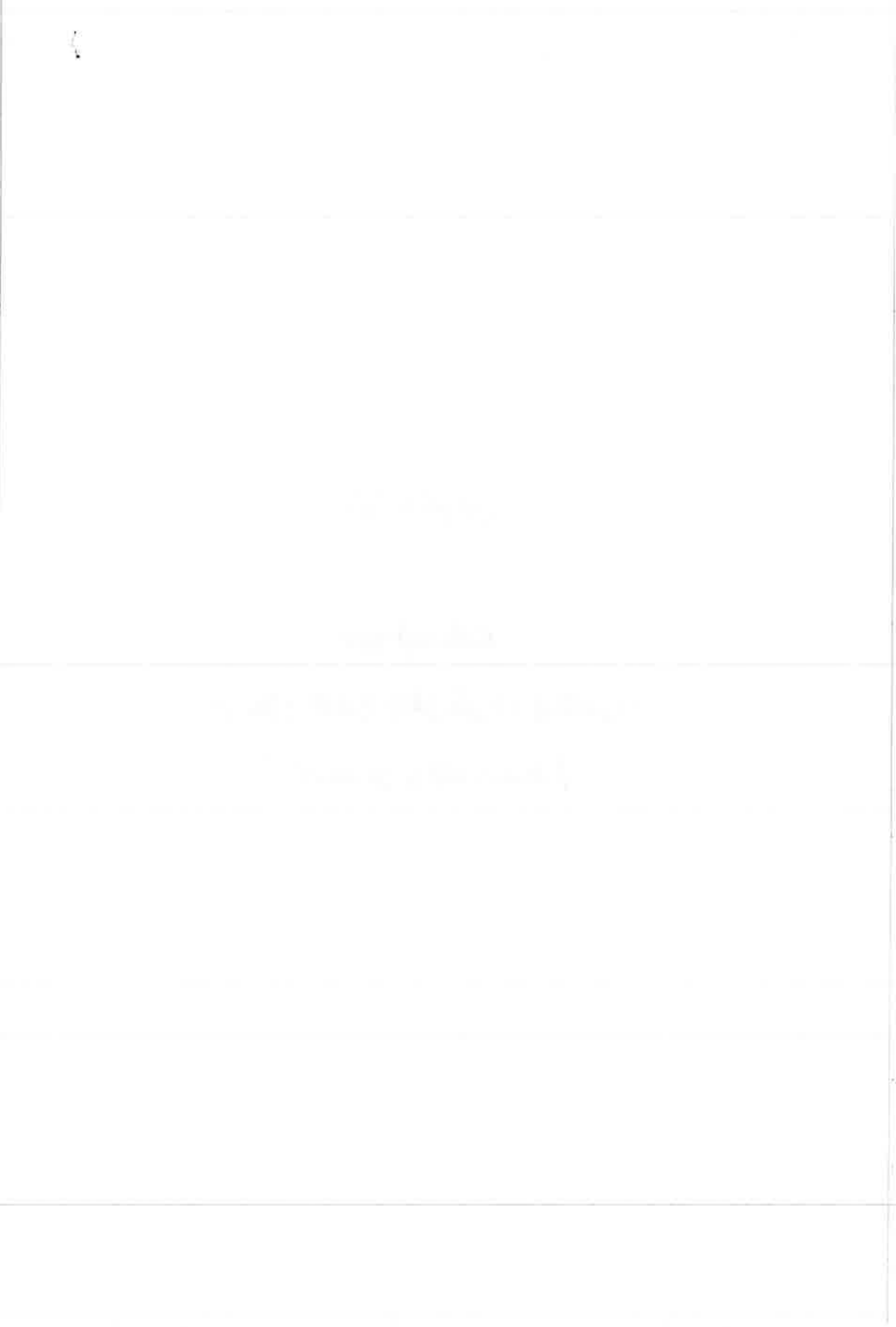
مـا أعظم الفرق بين أن تكـون الأرض المقدّسـة منطلقاً لـرسالـة الله ، لدين الإسـلام الحق ، لنشر النور والأمن ، والصدق والعـدل ، في الأرض كلها ، ولنشر حضارة الإيمان في الأرض ، وبين أن تكـون منطلـق الفتنـة والظلم والعـدوان ، ولنشر الفسـاد والجنس والمخـدرات ، ولنشر حضارة ذلك كلـه ، حضارة الغـرب بكل ما تحمل من ظلم وجـرائم وعدوان .

شتان بين الأمـرين ! فهل وضح الفرق ، ووضحت الأمـانة ، وبانت المسئولية ، وهل سينهض لها المؤمنون ؟ !

والحمد لله رب العالمين .

الباب الرابع

مع آيـــات
من سور الحج والزخرف والإسراء
تـدبـــــر وظــــــلال



الفصل الأول

« .. ثمّ يحكم الله آياته...»

مع آيات من سورة الحج

﴿ ومـا أرسلنـا من قبلك من رسـول ولا نبي إلا إذا تمنّـى ألقى الشيطـان في أُمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثمّ يحكم الله آياته والله عليم حكيم* ليجعل ما يلقي الشيطـان فتنة للـذين في قلوبهم مرض والقـاسية قلـوبهم وإن الظالمين لفي شقـاق بعيـد* وليعلم الـذين أوتوا العلـم أنه الحقُّ من ربـك فيؤمنـوا بـه فتخبت له قلوبهم و إن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾

[الحج : ٥٢ - ٥٤]

لقـد وردت في كتب التفسير أقوال متعـددة في تفسير هذه الآيـة الكريمـة وفي سبب نـزولها . وتكـاد تجمع معظم التفـاسير على أن الشيطـان ألقى على لسـان رسـول الله ﷺ مـاليس بحق . ويـربط بعضهم هذا بما ورد كـذلك في بعض كتب التفسير لسـورة النجم من أنّ مـا ألقـاه الشيطـان على لسان النبوّة كـان : «تلك الغـرانيق العلى وإن شفـاعتهن لترتجى . »، بعد الآيات الكريمة :

﴿ أفرأيتم اللات والعزّى * ومناة الثالثة الأُخرى﴾ [النجم : ١٩ ، ٢٠]

والخلاف بعد ذلك يدور حول صورة إلقاء الشيطان .

يقـول القاضي أبـو محمد في تفسيره «تفسير ابن عطيـة» : «وهـذا الحديث الذي فيـه هذه الغـرانقة وقع في كتب التفسير ونحـوها ولم يـدخله البخـاريّ ولا مسلم ، ولا ذكره في علمي مصنف مشهور بل يقتضي مذهب أهل الحديث أن الشيطان ألقى ، ولايعيّنون هذا السبب أو غيره . ولاخلاف أنّ إلقـاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعـة بها وقعت الفتنة ، ثم اختلف الناس في صـورة هذا الإلقاء . فـالذي في التفاسير - وهو مشهـور القول- أَن النبيّ ﷺ تكلم بتلك الألفاظ ، وأَن الشيطان أوهمه ووسوس له . . »

وقـال القاضي أبـو محمـد أيضاً : «وحـدّثني أبي أنـه لقي بالمشرق من شيـوخ العلماء

والمتكلمين من قال: «هذا لايجوز على النبيّ ﷺ وهو المعصوم في التبليغ. وإنما الأمر أن الشيطان نطق بلفظ أسمعه الكفار عند قول النبي ﷺ: **﴿أفرأيتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الأخرى﴾**، وقرّب صوته من صوت النبيّ ﷺ حتى التبس الأمر على المشركين. وقالوا «محمد قرأها».

ولقد أخذ بهذا التأويل كثير من العلماء ومنهم القرطبي. وقال ابن كثير: «قد ذكر كثير من المفسرين قصة الغرانيق وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا. ولكنها كلها من طرق مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح» . ثم يعود ابن كثير ويروي القصة وكيف أن الشيطان ألقى على لسان الرسول ﷺ : «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لتُرتجى»! وكيف أن الرسول سجد فسجد معه المشركون. وقال قتادة: كان النبيّ ﷺ يصلي عند المقام إذ نعس فألقى الشيطان على لسانه تلك الكلمات. وذكر كذلك ابن كثير أن القاضي عياض تعرّض في كتاب الشفاء لهذا وأجاب بما حاصله أنها كذلك. . . ! وقوله: **﴿إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته﴾** : هذا فيه تسلية للرسول ﷺ من الله، أي لايهيدنك فقد أصاب مثل هذا من كان قبلك من المرسلين والأنبياء. قال البخاري قال ابن عباس **﴿في أمنيته﴾** إذا حدّث ألقى الشيطان في حديثه. . . !

قصة الغرانيق هذه التي وردت بصدد تفسير الآيات في سورة النجم، وربطها معظم المفسرين بتأويل الآيات التي نحن بصددها في سورة الحج، هذه القصة نرفضها من جذورها، ولا نعتقد بصحتها. فلقد ذكر أكثر من واحد أن هذه القصة وردت بأحاديث مرسلة لم يصحّ منها شيء .

هذا ماقاله ابن كثير. وقال القاضي عياض: هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة. وقال القرطبي: الأحاديث المروية في نزول هذه الآية ليس منها شيء يصح.

ومع ذلك فإن معظم كتب التفسير توردها وتذكر عدم صحتها، ولكنها لا توضح معنى الآيات وتأويلها بشكل يتفق مع عدم صحة الرواية، ويتفق مع عصمة النبوة.

وإذا كنا نذكر هذه الرواية والقصة بسبب أن الأحاديث لم يصحّ منها شيء، وأنها

مرسلة ، فإننا ننكرها لسبب ثان هو أنها تتعارض مع الحق اليقين الذي جاء في القرآن الكريم من أن الأنبياء والمرسلين معصومون من أن يخطئوا بتبليغ رسالة الله ، وأنهم لمعصومون كذلك من استمرار الخطأ في التطبيق والاجتهاد . فلو حدث ذلك لنزل الوحي يصحّح ويصوّب حتى تبقى الممارسة جليّة نقية من الخطأ .

لذلك نؤمن إيماناً ويقيناً أنه يستحيل على جميع شياطين الإنس والجنّ أن يجعلوا على لسان النبيّ محمد ﷺ كلمة ضلالة أو لفظة كفر في تبليغه رسالة ربه أو في بيانها . فالأنبياء والرسل جميعهم معصومون بفضل الله من أن يبدّلوا أو ينقصوا أو يزيدوا على ما أمرهم الله بتبليغه .

ولقد توالت الآيات في كتاب الله لتبيّن أن مهمة الرسل هي البلاغ المبين .

﴿ .... وإن تولوا فإنما عليك البلاغ... ﴾ [آل عمران : ٢٠]

﴿ فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ [المائدة : ٩٢]

﴿ ... فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ [النحل : ٣٥]

﴿ ... وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ [النور : ٥٤]

هذه قبسات! وآيات مثلها في سور: الجنّ والأنبياء والتغابن والأحقاف والشورى ويس والعنكبوت وغيرها .

لقد نالت قضية البلاغ المبين تأكيداً بعد تأكيد في كتاب الله ، حتى لايكون هنالك شكٌّ أبداً بأن الرسل يبلغون رسالة الله بأمانة وبيان كامل . وما كان الله ليبعث رسله ثم يتركهم ، فهو وليّهم وناصرهم وهاديهم .

وكذلك فقد عصم الله رسوله محمداً ﷺ ، وأمره أن يبلغ رسالة ربه كاملة ، وأنه لو أنقص منها شيئاً أو بدّل أو زاد فما بلّغ الرسالة . فالبلاغ لايكون إلا بتمامه :

﴿ ياأيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لايهدي القوم الكافرين﴾ [المائدة : ٦٧]

﴿وإن لم تفعل..﴾ أي إذا أنقصت أو غيّرتَ أو زدتَ! فعلى الرسول أن يبلّغ الرسالة التي يُوحي الله إليه بها كاملة دون أيِّ نقص أو زيادة أو تبديل. وتعّهد الله لرسوله بأن يعصمه من الناس.

وعلى الرسول كذلك أن يبيّن للناس ما نُزِّل إليهم من ربهم، بالإضافة إلى البلاغ، والله يعصمه ويحميه في ذلك كله:

﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون* بالبيّنات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكّرون﴾ [النحل: ٤٣ ، ٤٤]

وكذلك:

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾ [ابراهيم: ٤]

فهذه مهمة الرسل والأنبياء. وما كان لهم أن يخطئوا أو يقصّروا أو يبدّلوا، ولو حدث ذلك لبيّنه الله لعباده.

لذلك نعتبر من حيث المبدأ أن كلّ ماورد عن قصّة «الغرانيق»، ومايتبعها من تأويلات باطل مردود لايليق بجلال الألوهية ولابحقّ النبوّة التي يبعثها الله ويصطفيها ويهديها ويوحي إليها، وتظل على عينه سبحانه وتعالى.

واستمع إلى آيات الله لترى كيف يكون عقاب الله لمن يتقوّل على الله! إنه عقابٌ أليم شديد:

﴿ إنه لقول رسول كريم* وماهو بقول شاعر قليلاً ماتؤمنون* ولابقول كاهن قليلاً ماتذكّرون* تنزيل من ربّ العالمين* ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل* لأخذنا منه باليمين*ثمّ لقطعنا منه الوتين* فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾
[الحاقة: ٤٠ - ٤٧]

نخرج من هذا كله بأن الرسل والأنبياء معصومون بأمر الله من أن يزيدوا أو ينقصوا أو أن يبدلوا شيئا من رسالة الله. والله يحميهم ويعينهم على البلاغ المبين إلى صراط مستقيم:

﴿ وما كـان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيـاً أو من وراء حجاب أو يـرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء إنه عليٌّ حكيم* وكـذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري مـا الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلنـاه نوراً نهدي بـه من نشاء من عبـادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم* صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض الا إلى الله تصير الأُمور﴾ [الشورى : ٥١ - ٥٣]

إنـه صراط مستقيم. إنـه من عنـدالله وحـده. إنـه نـور وحق. ومـا كـان الله ليأذن للشياطين أن تضع على لسان النبوة باطلاً، ولا أن تغير في رسالة الله إلى عباده وخلقه.

وسـورة النجم نفسهـا، السـورة التي تُعزَى إليهـا قِصـة الغـرانيق، تبتـدىء في نفي إمكانية حدوث شيء من ذلك:

﴿ والنجم إذا هوى* مـاضلّ صاحبكم وماغـوى* ومابنطق عن الهوى* إن هو إلا وحي يوحى* علمه شديد القوى﴾ [النجم: ١-٥]

﴿ومابنطق عن الهوى﴾! لقـد عصم الله نبيّـه كـذلك من أن ينطق عن الهوى فما كان لأيّ شيطان أن يلقي على لسان النبوّة باطلاً أبداً ولا هوى!

والنبيّ يظل برعاية الله ليبلغ الرسالة بلاغاً كاملاً أميناً:

﴿ عـالم الغيب فلا يظهـر على غيبه أحـداً * إلا من ارتضى من رسول فإنـه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصـداً * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كلّ شيء عدداً﴾ [الجن: ٢٦-٢٨]

وكذلك:

﴿ وما علمنـاه الشعر وما ينبغي لـه إن هو إلا ذكر وقـرآن مبين* لينذر من كان حيّاً ويَحقَّ القَول على الكافرين﴾ [يس: ٦٩، ٧٠]

لقـد منع الله الشعر عـن الرسولﷺ. فأولى أن يمنع عنـه برحمتـه مـاتـزعمه قصـة الغرانيق من باطل مردود. إن الرسل لايبلغـون إلا الحقَّ، ويدفع الله عنهم حتى ماكان فيه شبهة لدى الناس. فلم يحرّم الله الشعر على النـاس، ولكنه منعه عن النبوة حتى لايختلط

الحق على الناس وتمضي دعوى الكافرين بأن محمداً ﷺ شاعر. وكان محمد ﷺ أُمّيًا لايقرأ ولايكتب. فوفّر الله بذلك لرسوله ﷺ جميع الظروف والقدرات ليبلغ رسالة ربّه بلاغاً مبينا لايختلط بباطل أبداً ولا بشبهة: فكان ﷺ أُميـاً، لايقـول الشعـر، لاينطق عن الهوى، لايبلغ إلا الحقّ الـذي يُـوحي بـه الله إليـه، يعصمـه الله من النـاس، ويحميـه من الأذى والعدوان، اصطفاه الله على عينه واختاره لهذه المهمة العظيمة، فما كان الله ليتخلّى عنه!

كان لابدّ من إثبات هذه الحقيقة قبل البدء بتفسير هذه الآيات من سورة الحج.

وقضيـة أخرى لابـد من التـذكير بها أيضاً لتكـون أساسـاً لفهم هـذه الآيات. هـذه القضيّـة هي أن القرآن لايضرب بعضـه بعضـا، ولاتخالف السنـة الصحيحة كتـاب الله. ففهم الآيـة يجب أن يتناسق مع كتـاب الله كلـه، ومع منهاج الله. فإن بـدا لأحد تعـارض فليطمئن إلى أن الخطأ فيه وفي فهمـه، وأنه لاتعارض في منهاج الله أبداً. فعليـه أن يراجع نفسه حتى يهديه الله إلى الحق.

والآن نسير مع الآيـات من سورة الحج نتـدبـرها ونجعل أسـاس فهمنا لها كتـاب الله وسنة رسولـه، وقواعد الإيمان والتوحيـد، مما سبق بيانه في البـاب الأول من هذا الكتاب، لنرى كيف تعيننا هذه القواعد على إدراك الترابط بين آيات الكتاب المبين:

﴿ومـا أرسلنـا من قبلك من رسـول ولا نبيٍّ إلا إذا تمنّـى ألقى الشيطـان في أمنيّته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثمّ يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل مايلقي الشيطـان فتنة للذين في قلـوبهم مرض والقاسية قلـوبهم وإن الظالمين لفي شقـاق بعيـد* وليعلم الـذين أوتوا العلـم أنه الحق من ربـك فيؤمنـوا بـه فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾

[الحج: ٥٢ - ٥٤]

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ....﴾ إنها تبيّن لنا أن هذه سنّة ربّانية ماضية مع جميع الأنبياء والرسل، مع كل نبيٍّ ورسول.. ولذلك نتوقع أولاً أن تكون هذه السنة الماضية مع كل نبيٍّ ورسول تعين النبيّ والرسول على الوفاء بمهمته وعلى الأمانة بأدائها.

ثمّ يأتي قوله تعالى : ﴿ ... إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أُمنيته... ﴾ !

وكلمة تمنّى لها في اللغة عدة معان منها : رغب وأراد، وقرأ وتلا، وغير ذلك . والمعنى الذي نختاره هنا : تلا وقرأ. وقد اختار هذا المعنى معظم المفسرين وأوردوا الشواهد اللغوية عليه، كما قال الشاعر في عثمان رضي الله عنه حين قتل :

تَمَنَّى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

فتمنّى هنا تعني تلا كتاب الله! وهذا المعنى ثابت في معاجم اللغة . ويكون معنى أُمنيّته قراءته . ويُروى عن ابن عباس قوله عن معنى تمنّى : حدّث، وقال مجاهد : إذا تمنّى : إذا قال . وقال البغويّ وأكثر المفسرين قالوا معنى قوله «تمنّى» أي تلا وقرأ كتاب الله، وكذلك قال الضحاك[1] .

فنخرج من ذلك بأن معنى «تمنّى» : تلا وقرأ، وأُمنيّته : تلاوته وقراءته، هو معنى ثابت في المعاجم، وارد في نصوص اللغة كالشعر وغيره، وأخذ به كثير من المفسرين .

فهو المعنى الذي نأخذ به ابتداء . ولكننا نضمه إلى ماروي عن ابن عباس ومجاهد : حدَّث وقال، لنخرج من ذلك بالصورة الأوسع لمعنى ﴿إذا تمنّى﴾ ونرى أنها تعني : إذا دعا الناس وحدَّثهم عن رسالة الله، وقال لهم ماهو مكلف بأن يقوله، فتلا عليهم آيات الله وقرأها، ليدعوهم بذلك إلى الإيمان والتوحيد، إلى دين الله، إلى الإسلام . فدعوة الناس إلى دين الله هي المهمة التي بُعِث من أجلها الرسل والأنبياء . والأنبياء والرسل، وهم يدعون ويبلغون رسالة الله إلى الناس، يتمنّون لهم الهداية . وهنا تبرز ظلال المعنى الآخر لِ : ﴿إذا تمنّى﴾، أي إذا رغب لقومه وللناس عامّة الهداية وتمنّاها لهم . وبذلك يلتقي في هذه اللفظة المعنيان هنا . وكأن الآية تعني : إذا بلّغ الرسول دعوة الله إلى الناس ورغب لهم الهداية . ولعل اختيار هذه اللفظة دون غيرها هنا كان بسبب توافر هذين المعنيين فيها، حيث تلتقي ظلال الدعوة والبلاغ بظلال الرغبة الملحة من الرسل بهداية الناس . ونرى أن هذا من إعجاز كتاب الله، والله أعلم .

ثمّ يأتي قوله تعالى : ﴿ ... ألقى الشيطان في أُمنيّته..... ﴾ ومعظم المفسرين يرون

---

(١) في تفسير ابن كثير لهذه الآيات .

أن الشيطان ألقى في قول الرسول ﷺ أوفي حديثه، أو في قراءته وتلاوته لكتاب الله.

وهنـــا نقول إن هذا المعنى يتعارض مع ماقدمناه في الصفحات السابقة، ونؤمن بأنه يستحيل على الشياطين كلها أن تدسَّ على لسان النبوة باطلاً، ولا أن تلقي عليها خلاف ما أمر الله الرسول بإبلاغه للناس. ولذلك لابد أن يكون المعنى مختلفاً عن ذلك. ونرى أنّ المعنى الذي يتناسق مع آيات الله وأحاديث رسـوله ﷺ، هو أن الشيطان يُلقي على قلوب الناس، لا على لسان النبـوة، أثناء دعوة الرسـول الناس إلى الحق، إلى الدين الحق، يلقي الشيطان على قلـوب الناس فهماً مختلطـاً مضطربـا لما يتلوه الـرسول من الحق في دعـوته. يُلقي الشيطان ذلك أثناء دعوة الرسل وتبليغهم رسالة الله.

فكلمة ﴿في أُمنيّته﴾ هنا تعني : أثناء دعـوته الناس وتبليغه رسالة الله، وقـراءته ما أوحى الله بـــه من الحق المبين. فأصبح المعنى واضحـــاً جليـاً منسجماً مع كـلّ آيـات الله وأحاديث رسوله، ولم يعد هنالك مـايوحي بالتعارض والاضطراب. وسيبين لنا شرح بقية الآيات الثلاث هذه تناسق الآيات وترابطها.

ثمّ يأتي قوله تعالى : ﴿ فينسخ الله مايلقي الشيطان... ﴾

لقد كـان الفهم المضطرب لدى بعض النـاس بسبب مايلقيه الشيطـان في صدورهم حتى تميل نفوسهم ليتَّبِعوا معـاني مختلطة مضطربة متشابهة. وهـؤلاء هم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، كما سيأتي بعد قليل. فما بلَّغـه الرسول حقٌّ لاباطل معه، وسوس الشيطان لمرضـى القلوب فأوّلوا تـأويلاً فاسـداً. ثم يتتابع الـوحي الكريم مـن عند الله، فتنزل آيات بيّنات تنسخ ما ادعاه هؤلاء من مرضى القلوب، وتبطل دعواهم.

ثمّ يأتي قوله تعالى: ﴿ ... ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾ ثم تتوالى الآيات البيّنات وحياً من عند الله لتتناسق مع مـاسبقها من الآيات البيّنات، حتى تصبح الصورة جليّة واضحة محكمة، لامجال للشيطان أن يفسـد فهم الناس لها، إلا فهم مرضى القلوب والفاسقين والمفسدين في الأرض.

يمكن أن يقول أحدهم إن الله قادر على أن ينـزل الآيات محكمة من أول الأمر، وقادر على أن يبطل عمل الشيطان. نعم إن الله قادر على كل ذلك. ولكن الله عليم حكيم، له حكمـة فيما قضى به. وهـذه الحكمـة تكشفها لنـا الآيـات التي تلي الآية الأولى من هـذه الآيات الثلاث.

﴿ ليجعل مايلقي الشيطـان فتنة للذين في قلـوبهم مرض والقاسيـة قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ .

إن الله قضى بهذه السُنَّـة الماضية مع جميع الأنبيـاء والرسل من أن يلقي الشيطان في قلوب بعض النـاس فهماً مضطربـا لما يبلغه النبيّ والـرسول للنـاس أثناء دعـوته لهم **﴿في أُمنيّته﴾**، قضى الله بهذه السنة ليكون عمل الشيطان هذا ابتلاء للناس وتمحيصاً لهم، وليتمايزوا. فأمـا الذين في قلـوبهم مرض والقـاسية قلوبهم فيتبعـون الشيطان ومـا يلقيه في نفوسهم من معانٍ مضطـربة متشابهة. فهؤلاء هم الظالمون يظلون في فتنـة وشقاق بعيد بما كسبته أيديهم، لأن الله لايظلمهم ولايظلم أحداً، ولا يظلم شيئا، ولكنهم هم الظالمون.

وأما الذين أوتوا العلم، الذين يريـدون الحق ويتبعونه، والذين يحملون في صدورهم العلم الحقّ الـذي سبق للنبيّ والـرسـول أن بيّنه لهم، فهـؤلاء لهم شأن آخـر. فهم يـردُّون مايلقيـه الشيطان من وساوس ومعان مضطـربة، ويتلقّون مايبلغهم النبيّ والـرسول تلقّي الإيمان، تلقّي الوعي والتصـديق، لأن قلوبهم مؤمنـة سليمة، تحمل ماسبق أن أتـاها من علم حق، فتؤمن بكل ما جاء به الرسول لأنه كلٌّ من عند الله:

﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيـؤمنوا به فتُخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ .

نعم! إنـه الحق من عندالله. إنـه كلـه من عنـد الله، علموه فـآمنـوا به فخشعت لـه قلوبهم وجوارحهم. وذلك كله بفضل الله الذي علم إيمانهم فهداهم لى صراط مستقيم.

إن الآيتين: **﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان..﴾**، **﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم ..﴾** تبيّنان بوضوح أن مايلقيه الشيطان هو ابتلاء من الله ليكشف الله الفريقين، ولتقوم الحجة على هؤلاء، ولتقوم الحجة لهؤلاء. والله يعلم ما يفعل هؤلاء وهؤلاء ويعلم كل شيء!

إنـه ابتلاء من عنـد الله ليميز الظـالمين من المؤمنين . ولا يكـون الابتلاء من عنـد الله بأن يبلّغ الرسول الناس مالم يؤمر ، ولا بأن يخطىء بالرسالة والتبليغ ، ولا بأن يُنقص أو يزيد . إن الابتلاء يكون عندمـا يُعرَض الحق فلا يدركه المنافقـون والكافرون لأنه عليهم عمى ، ولأن في آذانهم وقراً ، فلا يسمعون للرسول ولكن يسمعون للشيطان وهو يلقي الباطل في صدورهم :

﴿إنّ الذين كفـروا بالذكر لما جاءهم وإنـه لكتاب عزيز* لا يأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد* مـايقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفـرة وذو عقاب أليم* ولو جعلناه قـرآناً أعجمياً لقالـوا لولا فُصّلت آياته ءَأعجميّ وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ [فصلت : ٤١-٤٤]

نعم! **﴿ والذين لايؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى....﴾** إنهم لايسمعون للنبوة وإن سمعوا لايعوا فهو عليهم عمى . إنهم يسمعون لما يلقيه الشيطان عليهم .

وتؤكد لنا سورة آل عمران هذا التصـور. فما يُنزّله الله وحياً على رسله ليبلغوه للناس ، منه مـا هو آيـات محكمات ، ومنه مـاهو آيـات متشابهات . فأمـا الذين في قلـوبهم مرض فيفصلون بين هـذه وتلك ، ثم يتبعون ماتشـابه عليهم منه بما يلقيه الشيطـان في قلوبهم ، ولا يعـون الآيات المحكمات . وأمـا الـذين أوتـوا العلم فترابط الآيـات المتشابهة والآيـات المحكمة في صدورهم فيعونها كلها ويؤمنون بها لأنها كلها حق من عند الله فينزل الله آيات متشـابهات ليبتلي عباده ويمحّصهم ثمّ يُنـزل الله آيات ينسخ فيهـا التأويل الباطل الـذي اتبعه مرضى القلـوب ، ثم يُنزل آيات محكمات فيحكـم الله آياتـه . ولنستمع إلى الآيات من سورة آل عمران لنرى الترابط والتناسق بينها وبين الآيات من سورة الحج :

﴿هـو الـذي أنـزل عليك الكتاب منـه آيـات محكمات هنّ أم الكتـاب وأُخـر متشـابهات فأما الـذين في قلوبهم زيغ فيتبعـون ماتشـابه منـه ابتغاء الفتنـة وابتـغاء تأويله ومـايعلم تأويله إلا الله والراسخـون في العلم يقولـون آمنا به كلّ من عند ربنا وما يذكّر إلا أولوا الألباب﴾ [آل عمران : ٧]

ابتلاء وتمحيـص! سنة كتبها الله في هـذه الحياة الـدنيا ليميـز الله الخبيث من الطيب

ولتقوم الحجّة على هـذا ولهذا. إنها هي السنة التي تعرضها الآيـات في سورة الحج والآيات في سورة آل عمران وأحاديث رسول الله ﷺ.

آيات الله من حيث المبدأ، وفي صدور المؤمنين كلهـا محكمة لأنها من عند الله. كتاب الله كله آيات محكمة. وهذا مايقرره القرآن الكريم.

﴿الر كتاب أُحكمت آياته ثمَّ فُصِّلت من لدن حكيم خبير﴾ [هود : ١]

إنها كـذلك في صدور الـذين آمنـوا. أما الـذين في قلـوبهم مرض فيتلقّـون مايلقيـه الشيطان في قلوبهم حين يسمعـون هذه الآيات، فتختلط المعاني في قلـوبهم بسبب مرضها وبسبب مـايتلقـونه مـن الشيطان، فتصبح بعض الآيـات متشـابهة عليهم، يـذهب بهم الشيطـان مذاهب شتى، فيتبعـون ماتشـابه منهـا عليهم ومـا اختلطت معانيـه ومافسـد تأويلهم له. وأما الذين أوتوا العلم، الرّاسخون في العلم فيقولون كلُّ الآيات من عند ربنا أنزلها محكمة مفصلة من عنده، آمنّا بها كلها وصدّقنا بها كلها. فيخشعون ويخبتون.

إن الله سبحـانـه وتعـالى ينزل آيـات يضطـرب فهم المنـافقين والكـافـرين لها بسبب ماذكرناه سابقاً. وفي سورة المدّثر مثل على ذلك:

﴿ سأصليه سقر* وما أدراك ماسقر* لاتُبقي ولاتذر* لواحة للبشر* عليها تسعة عشر* ومـا جعلنا أصحـاب النار إلا مـلائكة ومـا جعلنا عـدتهم إلا فتنة للذين كفـروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويـزداد الذين آمنوا إيمانا ولايـرتاب الذين أوتـوا الكتاب والمؤمنون وليقـول الذين في قلـوبهم مرض والكافـرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء ويهدي مـن يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وماهي إلا ذكرى للبشر﴾ [المدثر : ٢٦ - ٣١]

ويذكـر ابن كثير وغيره أنه لما نزلت هذه الآيـات قال أبو جهل: «يامعشر قـريش أما يستطيع كلُّ عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم؟» ويروي ابن كثير كذلك أن أبا الأشدَّين واسمه كلدة بن أُسيـد قال: «يامعشر قريش اكفـوني منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر»، إعجاباً منه بنفسه.

هـذه هي الفتنة التي يلقيهـا الشيطـان في قلوب المنـافقين والكـافرين، أثنـاء مسيرة الدعوة، حين يسمعون آيات الله تُتلى.

لما نزلـت الآية: ﴿ **عليها تسعـة عشر**﴾، قال أبـو جهل ما قـال، وقال كلـدة بن أُسيد، وقال غيرهما ممن ﴿ **في قلوبهم مرض والقـاسية قلوبهم** ﴾ ما قالـوا. ثم نزلت الآيات تنسخ ما ألقاه الشيطان وتردّ عليه، ثم أحكم الله آياته بتناسقها وترابطها وإعجازها وفصلها حتى لايبقى للمنافقين والكافرين حجة إلا أبطلها الله.

ذلك أنّه جـاء قولـه تعـالى: ﴿ **ومـا جعلنا أصحـاب النـار إلا ملائكـة....** ﴾ فنسخ الله بذلك دعـوى من قال إنه سيصـارع خزنة جهنم التسعة عشر. فهم ليسوا بشراً ولكنهم ملائكة شديدو الخلق لايقاوَمون ولايُغـلَبون. ثم توالت الآيات: ﴿ **وما جعلنا عدتهم إلا فتنـة للذين كفـروا ليستيقن الذين أوتـوا الكتاب....**﴾الآية. فنسخ الله ماألقـاه الشيطان وأحكم الله آياته، وجعلهـا فتنة للذين في قلوبهم مـرض، وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من عند الله.

أرجو أن يكـون هذا المعنى الذي عرضنـاه كشف لنا التناسق بين آيـات الله في القرآن الكريم، بين الآيـات في سورة الحج وسورة آل عمـران وسورة المدثر، وغيرهـا من السور في كتـاب الله المبين. ولذلك نـرى ضرورة حـذف قصـة الغرانيق البـاطلـة من كتب التفسير ومحوها من أذهان الناشئة.

الفصل الثاني

« .. قل إن كان للرحمن ولد ...»

مع آيات من سورة الزخرف

﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون* أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون* أم يحسبون أنا لانسمع سرّهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون* قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين * سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون﴾ [الزخرف : ٧٨-٨٢]

نود أن نقف مع هذه الآية الكريمة ونتدبّرها : **﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾** [الزخرف : ٨١]

ربما يقف المسلم عند هذه الآية وهو يتلو كتاب الله فيحار في معناها ، وقد تضطرب الصورة لديه ويختلط المعنى . وإذا عاد إلى كتب التفسير وجدها كلها أو معظمها تعرض أربعة معان على الأقل يخالف بعضها بعضا ، فيزداد حيرة وتختلط المعاني لديه . خاصة وأن جميع كتب التفسير تورد من بين المعاني لهذه الآية الكريمة : «إن كان للرحمن ولد فأنا أول من يعبده على ذلك ، ولكن لا ولد له» . وهذا المعنى بخاصة هو الذي يثير الحيرة والاضطراب واختلاط المعاني . وتورد كتب التفسير معاني أخرى . فذهب بعضهم إلى أنَّ كلمة «إن» تعني النفي ، أي ماكان للرحمن ولد . وآخرون قالوا إن كلمة **﴿العابدين﴾** تعني «الجاحدين» وقال مجاهد : إن كان للرحمن ولد كما تقولون فأنا أول من يعبد الله وحده ويكذبكم .

ونريد في هذه الوقفة مع هذه الآية الكريمة أن نستبعد المعاني السابقة إلا ما ورد عن مجاهد وغيره فنثبته . ذلك لأن بعض المعاني السابقة فيها من الافتراض والتكلف ما نحن بغنىً عنه ، ولأن ما أورده مجاهد يتفق مع الآيات قبلها وبعدها ، ومع جو السورة كلها ، ومع منهاج الله ، ومع قواعد الإيمان والتوحيد .

إن قضية الإيمان والتوحيد قضية مفاصلة وحسم ، يعرضها كتاب الله عرضاً جلياً فاصلاً حاسماً . فلا يعقل أن يأتي عرضها من خلال فرض باطل على لسان النبوة الخاتمة ،

ولا يعقل أن يأمر الله نبيّه أن يبلغ هذا الفرض للنـاس ليكون المعنى : قل يامحمد للناس إن كان للـرحمن ولد فأنـا أول من يعبد هذا الـولد . إنـه فرض مضطـرب لايستقيم . ذلك أنه لايعقل أن يطلب الله سبحانه وتعالى من نبيّـه أن يقول للناس كلمة فيها تشكيك في معنى الألوهية والـربوبية والتوحيـد ، ومعاني عبودية الإنسـان لربه وخالقـه الله الذي لا إله إلا هو، أو في صفـات الأُلوهيـة وخصائص الـربوبيـة ، وبالـذات في قضيّة هي أكثـر ما دار حولها التباس وانحراف في تاريخ البشرية ، وفي الديانات السابقة .

لقد جاءت جميع الـديانات السابقـة والرسالات السماوية حاسمـة في هذه القضية ، فاصلـة ، لاتترك أي مجال للشك في وحـدانية الله سبحانـه وتعالى ، أو الشـك في اي صفة من صفاته ، وخاصة في أن يكون لله ولد ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً عظيما .

لقد كان هذا الادعـاء الباطل موضع الإنكار الشديد في جميع الآيـات التي تعرّضت له في القرآن الكريم ، وكانت موضع التهديد . فاستمع لبعض ماجاء في كتاب الله عن ذلك :

﴿ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون* ما كان لله أن يتخذ من ولـد سبحـانه إذا قضـى أمراً فإنما يقـول لـه كن فيكـون* وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ [مريم : ٣٤ - ٣٦]

نعم ! فاعبدوه وحده فهو الصراط المستقيم . وهذا هو معنى العبادة التي يأمر بها الله أو يدعو لها الأنبياء .

واستمع كذلك لهذه الآيات الكريمة التي تعرض القضيـة عرضاً حاسماً فاصلاً لايدع أي مجال للشك أو الفرض :

﴿وقالـوا اتخذ الرحمن ولداً* لقـد جئتم شيئاً إدّا* تكاد السمـوات يتفطرن منـه وتنشق الأرض وتخر الجبال هـدا * أن دعـوا للـرحمن ولدا * ومـا ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا *إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدّهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾ [مريم : ٨٨ - ٩٥]

هذا العرض الحاسم الفاصل : **﴿لقد جئتم شيئاً إدّا* تكاد السموات يتفطرن منه وتنشـق الأرض وتخرّ الجبال هـدّا* أن دعوا للـرحمن ولداً﴾** أيُعقَل بعـد هذا

العرض الفاصل الشديد الرهيب الحاسم، أن يأتي عرض آخر في كتاب الله يقوم على فرض أن يكون للرحمن ولد؟! أيعقل بعد أن فصل منهاج الله-آياتٍ وأحاديث - معنى عبادة الله أن يأتي على لسان النبوة الخاتمة احتمال عبادتها لولد لله؟!

ولنستمع إلى آيات كريمة أخرى تعرض القضية ذاتها لنرى كيف يأتي العرض فاصلاً حاسماً لايدع مجالاً أبداً لفرض باطل أو ادعاء زائف أو تقدير خاطىء. ولنرى كذلك كيف يأتي التكرار ليكون أسلوباً للفصل والحسم وإزاحة أي شبهة أو افتراض باطل:

﴿يا أهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ولاتقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا﴾ [النساء : ١٧١]

﴿بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾ [الأنعام : ١٠١]

﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له مافي السموات والأرض كل له قانتون* بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾

[البقرة : ١١٦ ، ١١٧]

﴿قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له مافي السموات ومافي الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالاتعلمون﴾ [يونس: ٦٨]

﴿وقل الحمدلله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذل وكبره تكبيراً﴾ [الإسراء: ١١١]

﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً* مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾ [الكهف : ٤ ، ٥]

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله الا أنا فاعبدون* وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون﴾ [الأنبياء : ٢٥, ٢٦]

﴿الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخـذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ [الفرقان : ٢]

﴿لـو أراد الله أن يتخذ ولـداً لاصطفى ممـا يخلق مايشـاء سبحـانه هـو الله الواحد القهار﴾ [الزمر : ٤]

﴿وأنه تعالى جَدُّ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا﴾ [الجن : ٣]

من هذه الآيـات الكريمـة نرى الجلاء والـوضوح، والفصل والحسم، ونـرى التكرار يؤكد ذلك كلـه ويبرز أهمية القضية ويعرضها بأسلوب جـديد مع كل آية حتى لايبقى أي فرصة لمن يريد أن يفترض أو يؤول.

إن هـذه الآية الكـريمـة التى نحب أن نقف عنـدها ونتـدبـر معناهـا **﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾** هي الآية [٨١] من سورة الزخـرف. وسورة الزخرف تعالج جوانب متعددة من القضية الكبرى - قضية الإيمان والتوحيد.

يُبيّن لنا مطلع السـورة أن هذا القرآن كتاب مبين، واضح جلي، وأن الله جعلـه عربيّاً لعل هؤلاء القوم يعقلون، فلا يفترضون الباطل ولايتبعونه.

﴿حم* والكتب المبين* إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾

[الزخرف : ١-٣]

ثم تمضى السـورة تعرض جوانـب من قضية التـوحيد وترد على مشركي قـريش ردّاً لا لبس فيه، حـاسماً فاصـلاً. ترد على ادعائهم أن الله اتخذ من الملائكـة إناثـاً أو أنهم بنات الله. وتردّ السورة على ادعائهم بأنهم وجدوا آبـاءهم على أمة وهم على آثارهم مهتدون. ثم تعرض طرفاً من سيرة ابراهيم عليـه السلام بما يناسب البراءة من الشرك كله، وبما يناسب الفصل والحسم، وبما يناسب الجلاء والبيـان. وتردّ السورة كذلك على زعم قـريش لو أن القرآن أنزل على رجلٍ من القريتين عظيم. ثم يأتي البيان القاطع والأمر الفاصل.

﴿فـاستمسك بـالذي أوحي إليك إنـك على صراط مستقيم* وإنه لـذكـر لك ولقومك وسوف تسألون* واسأل من أرسلنـا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ [الزخرف : ٤٣ - ٤٥]

ثم تعرض السورة طرفـاً من قصة موسى عليه السلام وفرعـون الذي لعنه الله، ليكون

من هذه القصة تأكيد للتصور الصادق للتوحيد، ونبذ أي شرك حتى لو كان من قبيل الفرض والتقدير.

ثم تعرض كذلك قصة عيسى عليه السلام ببيان حاسم واضح أيضاً :

﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون* وقالوا أآلهتنا خير أم هو ماضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون* إن هو إلا عبد انعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل﴾ [الزخرف : ٥٧ - ٥٩]

قول فصل لايدع مجالاً لجدال ولا لمراءاة ولا لافتراض فكيف إذن يصح أن نتصور أن معنى الآية الكريمة **﴿قل إن كان للرحمن ولد...﴾** أي لو فرضنا أو قدرنا ذلك جدلا. . . ! إن هذا معنى لايستقيم مع أسلوب الحسم في هذه السورة وفي القرآن كله. وكيف يصحّ أيضاً أن يأمر الله عبده محمداً ﷺ أن يقول ذلك أو أن يفترضه؟! وكيف يصحّ أيضاً أن يكون معنى **﴿... فانا اول العابدين﴾** أي أول العابدين لولد الله؟!.

إن هذا التأويل يتناقض مع كل معاني التوحيد، ومع أسلوب القرآن في هذه القضية بالذات من حسم وجلاء وفصل.

إذن كيف نفهم هذه الآية من سورة الزخرف؟!

أولاً نربطها بالآيات قبلها ثم بالسورة كلها، ثم بكتاب الله وسنة رسوله، أي بمنهاج الله.

فالآيات قبلها: **﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون* ام ابرموا أمراً فإنا مبرمون*أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾**
[الزخرف : ٧٨ - ٨٠]

إذن: **﴿لقد جئناكم بالحق﴾** وإن كان هؤلاء يكرهون الحق، وإن كانوا يبرمون أمراً باطلاً، وإن كانوا يتناجون بالباطل، فالله يعلم ذلك كله، ورسله لديهم يكتبون مايسرون من باطل كبير، وما يتناجون به من باطل ، والله يقضي بالحق، ويبرم الحق كذلك. والحق هو أن الله سبحانه وتعالى لم يلد ولم يولد.

﴿قل هو الله أحد* الله الصمد* لم يلد ولم يولد* ولم يكن له كفواً احد﴾

هذا هو ما يأمر الله عبده محمداً ﷺ أن يقوله: ﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد...﴾

وكذلك يأمره الله أن يقول: .

﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك....﴾

وكذلك يأمره أن يقول

﴿قل إن كان للرحمن ولد..﴾ أي قل لهم إن كنتم تزعمون أنّ لله ولدا. ﴿. فانا أول العابدين﴾ أي قل لهم أيضاً أنك أول من يعبد الله وحده حق عبادته وأول من ينكر ماتزعمون. فسبحن الله رب السموات ورب الأرض ورب مابينهما ورب كل شيء عما يصف هؤلاء القوم.

فمعنى هنا ﴿العابدين﴾ أي العبادة التي تليق بالنبوّة الخاتمة التي أمرها الله: ﴿فاستمسك بالذي أوحي اليك....﴾، ﴿وقل الحق من ربكم...﴾ أمرها أن تستمسك بالحق وتدعو إلى الحق وتقول الحق.

وبهذا تتناسق هذه الآية الكريمة مع ماسبقها من الآيات وماجاء بعدها. وتتناسق مع السورة كلها وسياقها والوضوح والحسم والفصل الذي لايسمح بأي افتراض باطل.

إن المعنى الذي تشير إليه بعض كتب التفسير لايلين بجلال الألوهية ولا بمقام النبوة، ولا ببيان القرآن الكريم وجلائه وحسمه وفصله في هذه القضية الخطيرة.

نستفيد من هذا العرض أن قضية التوحيد والإيمان قضية يجب أن تكون جلية واضحة، قضية حسم وفصل، قضية تكاليف والتزام، قضية مسئولية وحساب.

لذلك يجب أن يأتي عرضها حين يدعو الداعية إلى ربه على هذا الوضوح والجلاء والحسم والفصل.

وهل يُعقل أن يجعل الله هذه القضية الخطيرة موضع افتراض باطل، وهي التي تدفع الإنسان إلى الجنة إن آمن، أو إلى النار إن كفر؟! هل ينسجم هذا مع رحمة الله بعباده؟!.

ويتضح لنا من هذه الآية الكريمة وما عرضناه من تفسيرها كيف أن القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً، وكيف تعيننا هذه القاعدة العظيمة التي أشرنا إليها في الفصول الأولى من الكتاب على فهم كتاب الله وآياته.

الفصل الثالث

وقضينا إلى بني اسرائيل

لتفسدن في الأرض مرتين....!

مع آيات كريمة من سورة الإسراء

﴿سبحن الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير* وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل أن لاتتخذوا من دوني وكيلا* ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً* وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدُنّ في الأرض مرتين ولتعلُنّ علوّا كبيراً* فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أُولي باس شديد فجاسوا خلال الدّيار وكان وعداً مفعولاً* ثمّ رددنا لكم الكرّة عليهم وأمددناكم باموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً* إن أحسنتم أحسنتم لانفسكم وإن أساتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبّروا ما عَلوْا تتبيرا* عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنّم للكافرين حصيراً﴾ [الإسراء : ١ – ٨]

يكشف تاريخ فلسطين منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا خطورة منزلة فلسطين وأهميتها ، وخطورة موقعها والدور الهام الذي لعبته في مختلف العصور. ولقد مرّت على فلسطين بسبب هذا الموقع الخطير شعوب كثيرة اختلفت آثارها فيها . إلا أن الأثر العظيم الذي لايزول ولن يزول هو الأثر الذي تركته أُمة الإسلام ، يقودها الأنبياء والمرسلون يحملون دعوة الله ودين الإسلام .

من الشعوب التي مرّت بها أو استوطنت فيها : الكنعانيون الذين كانوا من القبائل العربية التي استوطنت فلسطين منذ سنة ٢٥٠٠ (ق . م) وهاجر إليها عدد من الشعوب السامية مثل : الأموريين والجيوبون والغرغاريين والبرزيين واليبوسيين . وجاء إليها كذلك

شعوب أُخرى : الحثيون، والفلسطينيون الذين استقرُّوا بها، والبابليون والآشوريون والكلدانيون. وغزاها اليونانيون والفرس والرومان، وحكمها الأنباط العرب بحدود سنة ٣٠٠ (ق.م). ومرّ بها اليهود كذلك، حين دخلوها باسم الإسلام لاباسم قومية أو جنس أو عُنْصرُ. ثم أخرجهم الله منها لما تركوا رسالة الإسلام.

وظلت أرض فلسطين على مدى التاريخ تحمل حقيقة أهميتها من عظمة الرسالة الرّبانية التي بها استقرَّ جنودها ودعاتُها فيها، ومن موقعها الذي جعله الله موقعاً متميّزاً، يربط ثلاث قارات، ويربط البحر والبرَّ والمحيطات، وغير ذلك مما وهبه الله لها. وتزداد أهميتها حين ترتبط ارتباط عقيدة وإيمان وتوحيد مع مكة المكرَّمة والمدينة المنورة وسائر الجزيرة العربية، ومع سائر بلاد الشام، لتكوّن هذه كلُّها أخطر منطقة عرفها البشر في تاريخه كله، منطقة حملت مع التاريخ هي وقضاياها أسماء مختلفة. فقد عرفنا في التاريخ «المسألة الشرقية»، ونعرف اليوم «منطقة الشرق الأوسط». وتحتل في السياسة الدولية أخطر منزلة وأكثرها حساسية.

لذلك كانت فلسطين مفتاح المنطقة كلها، منطقة الشرق الأوسط، بل مفتاح الشرق كله، ومفتاح دار الإسلام.

لقد عرضنا في كتاب «ملحمة فلسطين» صورة أوسع عن أهمية فلسطين، حين تحدثنا هناك عن «فلسطين بين التاريخ والإيمان»، في «لمحة من تاريخها القديم»، و «فلسطين والنبوة»، و «اليهود يتحركون إلى فلسطين»، و «امتداد الرسالة الإسلامية في فلسطين مع الزمن»، وفي كتابنا : «فلسطين بين المنهاج الربّاني والواقع»، وفي كتابنا «على أبواب القدس» كذلك.

ولكنا هنا نريد أن نبيّن الأهمية التي أشار إليها الإسلام لأرض فلسطين، والتوجيه العظيم الذي هيأه الله للمؤمنين في سورة الإسراء.

ففي سورة الإسراء :

﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ [الإسراء : ١]

هذه النقلة العظيمة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى تربط المسجدين والبقعتين ربط إيمان وتوحيد، وربط رسالة ودعوة، وربط مسئولية وجهاد. إنه الإسراء الذي يحمل النبوّه الخاتمة لتربط المؤمنين في الأرض أُمة مسلمةً واحدة من دون الناس، أُمة تمتدّ في التاريخ أعظم امتداد مع الأنبياء والمرسلين، أُمة آمن آنبياؤها ورسلها كلُّهم بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً خاتماً، حتى كانت هذه الحقيقة الكبيرة جزءاً من رسالة الأنبياء، وجزءاً من ميثاقهم وعهدهم مع الله، شهادةً ماضيةً مع الدهر مع شهادة «أن لا إله إلا الله»، وشهادة «أنّ محمداً رسول الله». ولا بأس أن نعيد هنا الآية التي سبق ذكرها في صفحات سابقة لتوضيح هذا الميثاق وهذه الشهادة:

﴿و إذ أخذ الله ميثاق النبيين لما ءاتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنه قال ءأقررتم واخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ [آل عمران : ٨١]

ميثاق وعهد وشهادة. وجاء الإسراء ليُذكِّر بهذا العهد والميثاق، وليثبِّت الشهادة، وليذكّر أهل الكتاب من اليهود والنصارى بهذا العهد والميثاق، وبما أقرّ به أنبياؤهم، وبما عاهدوا الله عليه، وبما شهدوا به فشهد الله معهم!

ولذلك جاء بعد هذه الآية من سورة آل عمران تغليظ الإثم والمعصية لمن يتولى عن هذا العهد والميثاق والشهادة، تغليظاً يجعله من الفاسقين:

﴿ فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون﴾ [آل عمران: ٨٢]

وإذا كانت الآية من سورة الإسراء تنقلنا هذه النقلة العظيمة وتربط الأرض والمؤمنين، وتذكِّر بالعهد والميثاق والشهادة، فإن الآيات بعدها في سورة الإسراء تذكِّر

اليهود خاصة بهذه الحقيقة العظيمة .

﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا* ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾ [الإسراء : ٢ ، ٣]

كيف يعقل أن يتولى اليهود عن هذه الحقيقة العظيمة ، وينكروا نبوة محمد ﷺ ، وقد آتى الله موسى الكتاب ، أي التوراة ، وجعل الكتاب (أو موسى عليه السلام) هدى لبني إسرائيل يُريهم الحقَّ ليتَّبعوه . وكتابهم الذي آتاهم الله يقرُّ بنبوَّة محمد ﷺ نبياً ورسولاً خاتماً ، ويأمرهم باتباعه ، ويأمرهم أن لايتخذوا وكيلاً من دون الله أبداً . فالله هو الذي يهديهم إلى الحق ، وهو الذي بعث موسى عليه السلام بالحق ، وآتاه التوراة ، وأخذ منه العهد والميثاق والشهادة بنبوة محمد ﷺ . إنها رسالة التوحيد الخالص النقيّ ، إنها دين الإسلام .

كيف يمكن أن تتولوا أيها اليهود عن العهد والميثاق والشهادة ، وقد كان هذا العهد والميثاق وهذه الشهادة ماضيةً مع التاريخ كلّه ، تُعاد مع كل نبيٍّ ، لاتخلو منها رسالة نبي ولا دعوة رسول ، منذ نوح عليه السلام ، النبيّ الذي بلّغ الرسالة كلها كما أمره الله بها فكان «عبداً شكوراً» .

كيف يحقُّ لكم أيها اليهود أن تتولّوا وتنكروا نبوّة محمد ﷺ وتحاربوه؟! وهذا الإسراء يذكِّركم بهذا كله قبل أن تتمادوا في غيكم وضلالكم . وقد كتب الله عليكم بتوليكم عن هذا العهد أن تفسدوا في الأرض إفساداً واسعاً ، يضرب الله مثلاً عليه بمرتين تفسدون فيها كفراً بنعم الله ، ولكن النصر الأخير للحق حين تأتيكم الفئة المؤمنة الصادقة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه ، أي كما دخله المؤمنون أول مرة :

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً * فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أُولي باس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا * ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً * إن احسنتم احسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا

جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلو تتبيراً﴾ [الإسراء : ٥ - ٧]

ما هما هاتان المرتان **﴿.. لتفسدن في الأرض مرتين... ﴾**، لم تبين الآيات الكريمة ذلك، ولم يرد حديث صحيح عن الرسول ﷺ حول هاتين المرتين وما جاء في بعض كتب التفسير عن ذلك لايعدو أن يكون آراءً بشرية اختلفت اختلافاً واسعاً. فمنهم من قال غزو سنحاريب ملك بابل، أو غزو جالوت، أو بختنصّر، أو الرومان على عدة مرات، على غير سند من الكتاب أو السّنة. فليس لدينا تفسير قاطع نعتمده لهذه الآيات الكريمة عن المرّتين. ولقد أفسد اليهود في الأرض كثيراً، وعرض القرآن الكريم نماذج عديدة من إفسادهم في الأرض، وضرب لنا مثلاً من مَرَّات متكرِّرة في عصور مختلفة. ومن منهاج الله قرآناً وسنّة نجد أن إفسادهم سيمتدُّ في الأرض طويلاً إلى يوم القيامة.

﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ [الأعراف : ١٦٧]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى:

﴿ضربت عليهم الذلة أين ماثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ [آل عمران : ١١٢]

لقد أفسدوا في الأرض كثيراً وآذوا أنبياءهم وقتلوا بعضهم، وحاولوا قتل عيسى عليه السلام فرفعه الله إليه، وأفسدوا في شعوب الأرض كلها، حتى لاتكاد تجد شعباً خلا من إفسادهم، فنالوا بسبب ذلك ذِلّة ضُرِبت عليهم، وحاولت الشعوب كلها أن تتخلّص منهم. ولم يجدوا أماناً أبداً إلا في إحدى حالتين: **﴿حبل من الله﴾**، وذلك بأن يسلموا، أو **﴿حبل من الناس﴾**، وذلك بأن يدخلوا في ذمة وعهد من الناس. وما عرف اليهود في كل تاريخهم أوفى من المسلمين ولا أرحم منهم أبداً. فما هما المرّتان اللتان أشار الله

سبحانه وتعالى إليهما في هذه الآيات الكريمة؟!.

نعتقد أنه لو كان في معرفتهما ضرورة للناس وحاجة لإيمانهم لذكر الله سبحانه وتعالى تفصيلاتهما، أو لجاءت السنّة تفصّل وتوضّح. وحيث أن الكتاب والسنّة لم يفصّلا في ذلك، فنميل إلى عدم ربط هذه الآيات الكريمة بحادثة محدَّدة لنعتبرها هي التفسير الحق. ولكننا نؤمن بأن هذه الآيات الكريمة تبينّ مسئولية المؤمنين في الأرض على مرّ الزمان كله، ليتصدّوا للفساد من حيث أتى. فهذه هي مَهمّة رئيسة للمؤمنين في الأرض لايحلّ لهم أبداً أن يتخلّوا عنها. فتبيّن الآيات الكريمة إذن أن رأس الفساد في الأرض اليهود، وأن أقوى من يتصدّى لهم هم المؤمنون، وأنّ أهم الملاحم بين الحق والباطل، بين المؤمنين واليهود، ستكون عند المسجد الأقصى. وضرب الله لنا مثلاً على هذه الملاحم الممتدّة ضد فساد اليهود بمرّتين، بمثلين، ليكونا حافزاً دائماً للمؤمنين، ومذكّراً قوياً لهم بأن يظلّوا أبداً على أُهبة وقوة لصَدِّ الفساد والفتنة في الأرض كلّها، ولصدّ فساد اليهود في أرض المنشر والمحشر، لايحلُّ لهم الركون أو التراخي أو النكوص أبداً. مَهمّةٌ ماضية مع الزمن.

مرّتان في التاريخ، فالله وحده أعلم بهما، مرّتان في التاريخ تظلان آيات بيّنات في كتاب الله لتحدِّد مسئولية المؤمنين لينهضوا إليها دون توانٍ أو تراخ، فإن قصرّوا عن هذه المهمَّة فإن عقاب الله ماضٍ على كلّ من يخالف أمره ويتهاون بحقّ الأمانة التي يحملها. ثم يستخلف الله آخرين يحملون الأمانة ويوفون بالعهد.

لو ربطنا هاتين المرّتين بحادثتين محدَّدتين، على خلاف ماعرض القرآن الكريم، ربّما زيّن الشيطان لأُناس أن يتوهّموا أنه يحلّ لهم الرّكون والاستسلام حتى يأتي وعد المرّة الثانية ﴿وعد الآخرة﴾.

ولقد توهّم بعض الناس ذلك فعلاً، وتمادوا في وهمهم حتى قالوا إنه قدر الله، لننتظر حتى يأتي ﴿وعد الآخرة﴾! خاب سعيهم وضلّوا بهذا الوهم، ونسوا أن كلّ شيء هو بقدر الله وقضائه، ولكن قدر الله لا يُسقط مسئولية الإنسان وحسابه. فإن الله قدّر ومضى قضاؤه وسبقت كلمته في أن يكون الإنسان مسئولاً عن عمله الذي سيُحاسَب

عليه على أساس مـابيّن لنا منهاج الله . فمسئولية الإنسان هي من قـدر الله وقضائه . ولو أن رجلاً قتل رجـلاً آخر، فإن ذلك يكون قـد تمَّ بقضاء الله وقدره ، فهل تسقط مسئـولية القاتل وتسقط إقامة الحد أو العقاب ؟!

إن فلسطين حق الإسلام وجزء من دار الإسلام ، ارتبطت بمكة المكـرّمة ارتباطاً يوثّق العهد ويقوّي العُرى ، ويوضّح الأمانة والمسئولية .

إنها قضيّة ميثاق وعهد ، جاء الإسراء برحمة مـن الله ليذكِّر بهذا العهد ، ليذكّر المؤمنين على مرّ الـزمن بأن ينهضوا لأمانتهم وحمايـة فلسطين لتظل ملك الإسلام وحق المسلمين ، وليذكِّـر أهل الكتاب بأن يرجعوا عـن ضلالهم وغَيّهم فيسلموا لله ربّ العالمين ، ويـدخلوا في دين الإسـلام كما جاء مع النبـوّة الخاتمة ، ولينذرهم بعقـاب الله الشديد إن هـم أساءوا وخالفوا دين الله واعتدوا وظلموا وما دخلوا في الإسلام .

وضرب الله هذيـن النموذجين مثلاً على مسئـولية المؤمنين في الأرض مع مضيّ الـزمن كلّـه ، وفي كلِّ لحظـة من لحظـاتـه ، ومثـلاً على الـذكـرى التي تنفع المؤمنين الصـادقين العاملين الـذين لا يتوقّفون عن حمل الأمـانة ، والبشرى القائمة لهم أبـداً ما صدقـوا العهد مع الله وأوفوا بـالأمانـة ، وفي الوقت نفسـه مثلاً على عقاب الله لمن يخالـف أمره ، ويخالف دين الإسـلام الـذي جاءت بـه النبـوة الخاتمة التي أُسْرِيَ بها إلى المسجـد الأقصى ، حيث تدور الملاحم بين الإيمان والكفر، ومثلاً يذكّر المؤمنين في الأرض كلها ليوجّهوا أنظارهم إلى فلسطين ، وليصُبُّـوا جهودهـم لحمايتها ، فهي أرضهم وبـلادهم وحماهم وحمى الإسـلام ، مرتبطة مع مكة المكرمة والمدينة المنورة ، مرتبطة مع كل شبر من دار الإسلام .

وتوجه الآيات الكريمة إلى خطر اليهـود الذين يتولّون عن عهد الله وينقضون ميثاق الله ، ويتخلّون عـن الشهادة بأن محمـداً رسول الله ، الى خطـر اليهود الدائم الـذين يجمعـون حولهم الناس للإفساد في الأرض ، فيكثر نفيرهم ابتلاء منه سبحانه وتعالى لليهود وللناس وللمؤمنين .

أرض فلسطين في نظر الإسـلام هي أرض ملاحم الإيمان . هناك يجمع الكفـر جنوده وشياطينـه ليحارب الإسـلام وأهله . هنـاك تلتقي أطماع المجرمين في الأرض كلهـا ، ليثبوا منها إلى ثروات وخيرات ، وديار وأموال .

لذلك وجه الإسلام أنظار المؤمنين إليها ليرابطوا فيها، وفي بلاد الشام، حتى يظلّ جنود الإسلام واعين لحقيقة المعركة التي تمتد في التاريخ بين الإيمان والكفر.

وتأتي الأحاديث الشريفة لتؤكد هذا المعنى، وتوجه هذا التوجيه العظيم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال **«لاتُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى»**.

[رواه الستة والإمام أحمد][1]

وعن زياد بن أبي سودة عن أخيه أن ميمونة بنت سعد مولاة النبي ﷺ قالت: يانبيّ الله أفتنا في بيت المقدس، فقال: **«أرض المنشر والمحشر أئتوه فصلوا فيه، فإن صلاة فيه كألف صلاة فيما سواه»**. قالت: أرأيت من لم يطق أن يتحمل إليه أو يأتيه، قال: **«فليهد إليه زيتاً يسرج فيه فإن من أهدى له كمن صلى فيه»**. وفي رواية: **«فإن صلاة فيه كخمسمائة صلاة»**. [رواه أحمد][2]

وعن أبي أُمامة الباهلي قال، قال رسول الله ﷺ: **«لاتزال طائفة من أُمتي على الدين ظاهرين لعدوهم قاهرين، لايضرّهم من خالفهم ولا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك. قالوا: يارسول الله وأين هم؟! قال: «ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس»**. [رواه أحمد][3]

إلى هناك إذن تشدُّ الرحال: إلى مكة والمدينة والقدس. إنها حمى الإسلام وداره.

إلى هناك، إلى فلسطين، إلى: بيت المقدس وأكناف بيت المقدس. إلى هناك يُهدَى الزيت يُسرج فيه.

---

(١) البخاري: كتاب الجمعة فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة. ومسلم في الحج حديث (١٣٩٧). أحمد: المسند: ٣/ ٤٥، ٤٦، ٥١، ٥٢، ٧٨، ٦/ ٧: الفتح: ٢٣/ ٢٨٠، ٢٨١. وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة. باب الصلاة في المسجد الأقصى، حديث (١٤٠٩). والنسائي: كتاب المساجد، باب ماتشد إليه الرحال، حديث (٧٠١).

(٢) الفتح الرباني، حـ (٢٣)، ص (٢٨٩)، حديث (٦٥٠).

(٣) مسند الإمام أحمد، جـ٥، ص ٢٦٩. فصائل القدس لابن الجوزي (ص: ٩٤).
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل للقاضي مجير الدين الحنبلي. (ص: ٢٢٨).

إلى هناك، إلى بيت المقدس، فهي أرض المحشر والمنشر.

وعن أبي الدرداء قال، قال رسول الله ﷺ: **«بينا أنا نائم إذ رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي فظننت أنه مذهوب به فأتبعته بصري فعمد به إلى الشام. ألا وإن الإيمان حيث تقع الفتن بالشام»** [رواه أحمد][1]

والشام هي فلسطين وسوريا والأردن ولبنان، كلها تسمّى بلاد الشام. وفي هذا الحديث الشريف إشارة إلى الفتن التي تقع في بلاد الشام. والفتن هي فتن الكفار واليهود والنصارى، وعدوانهم وطغيانهم، ومؤامراتهم الممتدَّة مع التاريخ على بلاد الشام، وفي سائر ديار المسلمين. فهناك الإيمان والرباط حيث يُمحَّص المؤمن ويُختبَر إيمانه، ويُجْلَى معدنه في هذه الفتن الدائرة والملاحم الملتهبة.

من هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة نرى شدَّة توجيه الإسلام لجنوده ليرابطوا حيث ستدور الفتن، وليشدُّوا الرحال إلى هناك، وليظلّ المؤمنون على يقظة وانتباه، لا تُسْلَبُ منهم ديارهم وهم غافلون، ولا تنتهب ثرواتهم وهم نائمون لاهون.

واستمع إلى حديث رسول الله ﷺ يؤكد هذه المعاني والظلال، ويؤكد هذا التوجيه الربَّاني:

عن عبدالله بن عمرو قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمهم مُهاجَر إبراهيم. ويبقى في الأرض شرار أهلها، تلفظهم أرضوهم، تقذرُهم نفس الله، وتحشرهم مع القردة والخنازير»**. [رواه أبو داود][2]

نعم: هجرة بعد هجرة! سيهاجر الناس لهذا السبب أو ذاك، ولكن الخير العظيم فيمن يلزم مُهاجَر إبراهيم عليه السلام. ومُهاجر إبراهيم هي أرض فلسطين، هاجر إليها مع لوط من أرض العراق، يحملان رسالة الله ودينه الإسلام!

فإبراهيم عليه السلام يهاجر إليها، حتى سمّاها رسول الله ﷺ مُهاجَرَ إبراهيم عليه

---

(١) الفتح الرباني حـ(٢٣). (ص: ٢٨٨) حديث: (٦٤٩).
(٢) سنن أبي داود. كتاب الجهاد (٩). باب (٣). حديث. (٢٤٨٢).

السلام . وفي كتاب الله تَرِدُ هذه الهجرة الكريمة ، ليبيّن لنا القرآن الكريم أن الهجرة كانت لله .

﴿فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين* وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾
[الصافات : ٩٨، ٩٩]

وتأتي هذه الهجرة لتؤكد معنى الهجرة إلى أرض باركها الله :

﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين* ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ [الأنبياء : ٧٠، ٧١]

وموسى عليه السلام يتوجّه إلى فلسطين يقود قومه «المسلمين» يحملون رسالة الإسلام ، ويأمر قومه بأن يدخلوا الأرض المقدسة ، الأرض التي امتدّت قدسيتّها من عصور سابقة ، يأمرهم موسى بأن يدخلوها برسالة الإسلام ، تأكيداً لقدسيتها النابعة من الإسلام وتأكيداً لارتباطها الثابت بالإسلام والمسلمين .

وامتدت النبوّة في أرض فلسطين ، امتدت نبوّة الإسلام فيها تدعو إلى دين الله ، إلى الإسلام ، إلى الدين الواحد الذي لايقبل الله غيره من أحد أبداً ، ولتمتدّ مقارعة اليهود وأعداء الله مرات ومرات ، حتى تقوم الساعة .

وفي السنوات الأخيرة ظهر من يقول إن المرّة الأولى **﴿..فإذا جاء وعد أولاهما..﴾** كانت عندما دخل المسلمون أصحاب ﷺ القدس زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وأن المرة الثانية هي التي أشار إليها حديث رسول الله ﷺ : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : **«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر فيقول الحجر أو الشجر: يامسلم! ياعبدالله هذا يهوديٌّ خلفي ، فتعال فاقتله ، الا الغرقد فإنه من شجر اليهود»**
[رواه مسلم][1]

ونرى أن هذا التأويل الجديد فيه أخطاء . أولا: كما ذكرنا فإن المرّتين هما عن علم

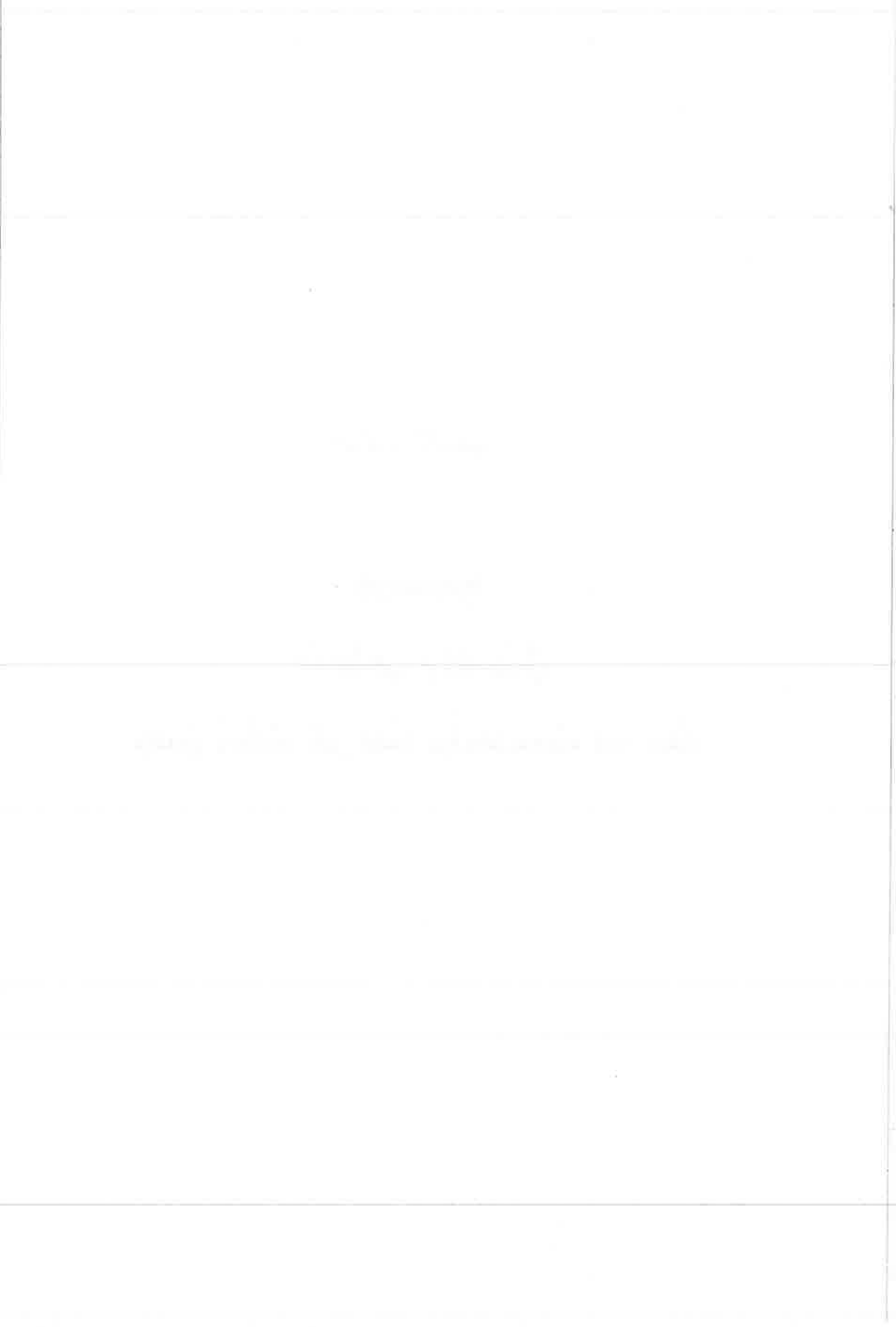
---

(١) مسلم : ٥٢/١٨/٢٩٢٢ .

الغيب، لا يصحّ معرفتها إلا من الكتاب أو السنة، وهذا غير متوافر. ثانيا: إن المرّة الأولى، كما يفترضها هؤلاء، لم يكن بنو إسرائيل عندها هم أصحاب الأمر في فلسطين، بل النصارى في ظل الرومان هم الذين كانوا يحكمون فلسطين، والمعركة كانت معهم لا مع اليهود. ثالثاً: إن التأويل الذي قيل عن المرّة الثانية يوحي بالاستسلام اليوم حتى يأتي موعد المرّة الثانية. وهذا خلاف ماتقصده الآيات الكريمة. فالمرة الثانية، وكذلك المرة الأولى علمهما عندالله. وأما الذي يعنينا ونفهمه من هذه الآيات أن على المسلمين أن يدركوا أنه لايحلّ لهم التوقف عن مقارعة الفتنة التي ينشرها اليهود في الأرض ولا الفساد الذي يمدونه في الأرض مرّات كثيرة.

الباب الخامس

مــــع
النفس والعقـل
بين آيات كريمة وأَحاديث شريفة



الفصل الأول

النفس

بين الفطرة والنية

مع آيات كريمة وأحاديث شريفة

﴿ونفسٍ وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دسّاها﴾ [الشمس : ٧ - ١٠]

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناسَ عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكنّ أكثر الناس لايعلمون ﴾ [الروم : ٣٠]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « **مامن مولود إلا يولد على الفطرة وأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟** » ثم يقول : **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها ....﴾** الآية

[رواه مسلم][1]

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إنما الأعمال بالنيّة وإنما لامرىء مانوى . فمن كانت هجرته لله ورسوله فهجرته لله ورسوله . ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ماهاجر إليه** » [متفق عليه][2]

النية [3] أمر يتفرّد به الإسلام عن جميع المناهج البشرية التي رسمها الشيطان للناس . وعظمة هذا التفرد تأتي من أن الإسلام هو دين الله الذي بعث به الأنبياء والرسل الذين ختموا بمحمد ﷺ ، وبرسالته الكاملة التي جاء بها الوحي الكريم على النبيّ المصطفى ﷺ . إن الله سبحانه وتعالى هو الذي وضع هذا التشريع ورسم نهجه وصاغه رحمة بعباده . فجاء مع إعجازه ميسّراً سهلاً لمن صدقت نيّته وصحت عزيمته ونهض لمسئولياته .

---

(١) مسلم : كتاب القدر (٤٦) ، باب (٦) . حديث (٢٢/٢٦)

(٢) صحيح البخاري : كتاب الإيمان (١) . باب (٤١) . صحيح مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) . باب (٤٥) . حديث (١٩٠٧) . والنص لمسلم

(٣) يراجع كتاب النيّة في الإسلام وبعدها الإنساني . وكتاب التوحيد وواقعنا المعاصر للمؤلف .

تفرّد الإسلام بالنيّة التي جعلها الله أحد الأساسين لقبول عمل ابن آدم ، حيث كان الأساس الثاني هو مطابقة العمل لمنهاج الله . ونستطيع أن نلمس بعض مظاهر هذا التفرّد حين نجد أن النيّة تربط عمل الإنسان وجهده بعاطفته وفكره ، بشعوره وتصوره ، فتلتقي طاقات الإنسان كلها في مجرى واحد من الخير والنور . والنية تنبع كذلك من الإيمان والتوحيد ، وتدفع العمل على طريق الإيمان والتوحيد . أما إذا فسدت النيّة فإنها تُفسد العمل وتدفعه إلى دروب الفتنة والشر.

والفطرة ! إنها تعبير ربّاني معجز كذلك . جاء في كتاب الله وجاء في السنة أيضاً . وهو تعبير يتفرّد به الإسلام . ولا نستطيع أن نقول عن الفطرة أكثر مما علمنا الله فهو اليقين والحق . إنها جزء من خلق الإنسان ، إنها الفطرة التي فطر الله النّاسَ عليها . ويرى بعضهم أن الفطرة هي الإيمان والتوحيد أو أنها هي الإسلام .

ونوّد أن نوضح ذلك بأن الله سبحانه وتعالى جعل الإيمان والتوحيد مغروساً في فطرة الإنسان ، كما غُرست فيها سائر القوى التي أودعها الله في كيان الإنسان وبنائه وطبيعته : من غرائز وميول ، ورغبات ، ومواهب وقدرات . إنها أشبه ماتكون بالمستودع الذي أودع الله فيه هذه القدارت كلها . وكل طاقة أو ميل أو غريزة في الإنسان أوجدها الله فيه لتؤدي مَهمَّة محدَّدة في الحياة . فالشهوة الجنسية ، وحبُّ المال ، والكرم ، والشحّ ، والشجاعة والجبن ، والخوف والإقدام ، وحب الأهل ، والبغض ، وغير ذلك مما يصعب تعداده هنا ، ومما وردت الآيات والأحاديث به وبيّنت أنه جزء من طبيعة الإنسان وسجاياه أو جزء من فطرته التي فطره الله عليها ، هذه كلها تعمل في طبيعة الإنسان على صورة متوازنة عادلة أمينة مادامت الفطرة سليمة لم تشوّه ولم يضطرب توازنها .

وحتى تعمل هذه القوى والغرائز والميول بصورة متوازنة عادلة أمينة ، فإنها يجب أن تظلّ كلها مرتبطة بالقدرة الأُولى والطاقة الأكبر ، الإيمان والتوحيد . ويجب أن تظلّ ترتوي منه رياً عادلاً .

ونستطيع أن نشبه الفطرة ، للتوضيح ، ببستان ، والقوى والغرائز والميول بالشجر المنتشر في البستان . ويمتدّ من الإيمان والتوحيد ، من نبعها النقيّ الصافي ، شبكة متوازنة

للريّ ، لريّ هذه الأشجار ريّاً عادلاً متوازناً أميناً على حكمة غالبة من الله سبحانه وتعالى .

والنيّة هي التي تفتح النبع الغني الصافي ، نبع الإيمان والتوحيد ، لينطلق منه الريّ العادل المتوازن ، مادامت النيّة خالصة لله صادقة نقية . في هذه الحالة فقط ، في حالة إخلاص النيّة ينطلق الريّ من نبع الإيمان والتوحيد ، ويظل الريُّ عادلاً أميناً مادام نبع الإيمان والتوحيد غنياً نقيّاً . وفي هذه الحالة تنمو الأشجار كلها نموّها العادل وتعطي ثمارها الطيبة . وفي هذه الحالة تؤدي كلُّ طاقة دورها الحقَّ ومهمّتها التي خُلِقت من أجلها . وفي هذه الحالة تتعاون كل الطاقات والقوى والميول في الإنسان على صورة متوازنة عادلة ، لتؤدّي الأمانة ، ولينهض الإنسان إلى الوفاء بالأمانة التي عُرِضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان ليتعبّد الله بالوفاء بها ، وليؤدي حق العبادة والخلافة والعمارة التي أُمِر بها ، من خلال ابتلاء وتمحيص كتبه الله على بني آدم .

في هذه الحالة تمضي الشهوة الجنسية إلى الزواج الذي أحله الله ، وتجاهد النفس لتبتعد عن الزنا وعما حرّم الله . ويجمع الإنسان المال من مصادره الحلال وينفقه بالحلال . ويصبح حب أهله وبلده نابعاً من حبه الأكبر لله ولرسوله ، بعيداً عن العصبيات الجاهلية كلها . إنه برٌّ وصدق ووفاء ، خاضع كله لمنهاج الله . وتمضي كل طاقات الإنسان لتعمل عندئذ على هذا النحو من الوفاء للأمانة والخلافة والعمارة والعبادة التي أمر الله بها .

وعلى هذا النحو يكون التفسير لما جاءت به سورة الشمس وآياتها عن نفس الإنسان وعن «التقوى» التي ألهمها الله لها ، ولما جاءت به الأحاديث ، أقرب للعدالة .

هذه هي التقوى في نفس الإنسان عندما ترتوي الطاقات كلها من نبع الإيمان والتوحيد ، وترتبط بها وتؤدي كل طاقة المهمّة التي خُلقت لها .

أما إذا فسدت النيّة فلا ينفتح نبع الإيمان والتوحيد ، ولا ترتوي الطاقات عندئذ بالري العادل المتوازن . وكذلك إذا ضعف نبع الإيمان والتوحيد بالآثام والمعاصي ، أو إذا جفّ بالكفر والإلحاد . في هذه الحالات إما أن يكون الريّ غير متوازن فتضعف بعض

الطاقات ، وينمو غيرها نمواً زائداً . فتلتهب الشهوة الجنسية مثلاً وتسعى للحرام ، أو تنمو الرغبة بالمال وجمعه من أي مصدر كان ، ويفسد الإنفاق ويتحول إلى إسراف وتبذير، ويصبح حب الأهل والوطن عصبية جاهلية وشراً . وهكذا لا تعود هذه الطاقات متوازنة ، ولا تعود كل طاقة قادرة على أداء المهمة التي خُلِقَتْ لها ، ويتحول عطاء هذه الطاقات إلى «فجور» وفتنة وفساد :

﴿ ونفس وما سواها *فألهمها فجورها وتقواها ﴾ [الشمس : ٧،٨]

وإنها مسئولية الإنسان نفسه أن يرعى فطرته ونفسه فيزكيها بالنيّة الصالحة أولاً لتقوده إلى العمل الصالح . وإنها مسئولية الوالدين والبيت ، ومسئولية المجتمع كله بجميع مستوياته أن يوفّر الرعاية الأمينة لفطرة الإنسان ، لنفسه ، لطبيعته وسجاياه ، حتى يظل أقرب مايكون للتقوى . إنها مسئولية الإنسان أنَّ «يُزكِّي» نفسه ويطهّرها : ﴿قد أفلح من زكّاها ﴾ . أما حين يأتي الإثم بعد الإثم ليَنكُت نكتة سوداء في قلب الإنسان ، فذلك مما كسبت يداه . وهذه النكتة السوداء تُعطّل الريّ العادل المتوازن ، أو تفسد النية فتعطل الريّ ، أو تزداد الآثام والمعاصي حتى يغلق الريّ أو يجف الإيمان والتوحيد ، أو يضعف ويختل ويضطرب . وذلك كله بما كسبت أيدي الناس .

ويمضي هذا كله على قدر لله غالب ، وقضاء ماض ، وحكمة بالغة ، وعدالة بيّنة، وحق لاباطل معه . إنها مشيئة الله العادلة التي لاتظلم أبداً ، والتي سبقت كلمتها وقضت بمسئولية الإنسان عن عمله الذي سيحاسبه الله عليه .

وحين تفسد النيّة ويفسد العمل يكون عندئذ الدسُّ والإخفاء في نفس الإنسان ، وتغلق منافذ الريّ أو تضطرب شبكتها : ﴿ وقد خاب من دسّاها .﴾ وهكذا تتضح الصورة الجلية من هذه الآيات الكريمة .

﴿ قد أفلح من زكاها* وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس : ٩ ، ١٠]

حين تفسد النيّة وتضطرب الفطرة يفسد عمل الإنسان كله : تفسد السياسة والاقتصاد ، وينطلق شياطين الإنس والجن يفسدون في الأرض ، لينشروا الجريمة والفتنة والظلم والعدوان ، والحروب والقلق والخوف :

﴿ ظهر الفساد في البَرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ [الروم : ٤١]

ويهمنا هذا التصور للنفس البشرية وهي تعمل بين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وبين النيّة التي هي من مسئولية الإنسان . وكيف يمضي هذا كله على تناسق وترابط مع قضاء الله وقدره دون أي تعارض أو تناقض. يهمنا هذا التصور لنعرف كيف نعالج النفس البشرية في ميدان الدعوة ، وكيف تكون التربية والبناء ، وكيف يَكون إعداد الجيل المؤمن .

إن ماعرضناه هنا هو قبسات من الكتاب والسنة ، نهدف بها أن تدفع المؤمن ليعود إلى منهاج الله ليجد هناك الصورة المعجزة المتكاملة المتناسقة ، وليسهل علينا بعد ذلك إقرار الخُطّة والنهج ، والاستفادة مما يمنّ به الله على عباده في كل عصر لتحقيق الأهداف المرجوة في بناء الجيل المؤمن وإعداده ، وتوفير الزاد اللازم له على دربه الممتدّ إلى الجنة .

ونهدف كذلك إلى أن يعرف المسلم مسئوليته فينهض لها دون تراخٍ أو تهاون اعتاده المسلم خلال قرون طويلة .

ولقد عرضنا في كتب : التوحيد وواقعنا المعاصر ، النية في الإسلام وبعدها الإنساني، الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام ، تفصيلات أوسع عن هذه القضايا ، لأهميتها وخطورتها في حياة الإنسان .

فعلى مناهج التربية أن تأخذ هذه القضية بعناية ورعاية ، حتى توفّر المناهجُ رعايةَ الفطرة وحمايتَها ، وتوفّر القدرةَ للإنسان ليصدق النيّة مع ربّه وخالقه في عمله كله .

وبهذا الأساس المتين نبني الإنسان الصالح الذي ينشر الخير والصلاح في الأرض ، وينشر الحق والأمن والعدل في حياة البشرية كلها . إن هذا الإنسان الصالح هو الإنسان المؤمن الذي سلمت فطرته وصدقت نيته ، فصحّت عزيمته واستقام نهجه .

الفصل الثاني

العقل

بين الحكمة والضلال

مع آيات كريمة وأحاديث شريفة

﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا في أصحاب السعير﴾ [الملك : ١٠]

﴿ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسئولاً﴾ [الإسراء : ٣٦]

﴿ .. ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة ... ﴾ [الأنعام : ١١٣]

﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ [الأعراف : ١٠١]

﴿ ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون ﴾ [الأعراف : ١٧٩]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن غِرٌّ كريم ، وان الفاجر خَبٌّ لئيم » [رواه أحمد والترمذي وأبوداود]

وعن شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال : « الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » [رواه الترمذي وابن ماجه]

قوة التفكير والتدبر ، والنظر والتأمل هي من أبرز طاقات الإنسان التي تميّزه عن سائر المخلوقات ، وهي ماجرت العادة أن نسميها « بالعقل » . فالعقل إذن طاقة من طاقات الإنسان وليس عضواً مادّياً نبحث عنه في مكان مُحدَّد واحد في جسم الإنسان نحصره فيه ، فربّما عملت عدة أجهزة في جسم الإنسان أو عدة أجزاء منه ، هنا وهناك ، مما نعلمه ومما نجهله ، معاً في وقت واحد ، لتوفّر للإنسان قدرة التفكير والتأمل والتدبّر ،

أي «العقل» . فربّما عمل الدّماغ والجهاز العصبي والقلب ، وأجزاء أُخرى من جسم الإنسان، والله وحده أعلم بما خلق ، وهو يعلّم عباده مايشاء ، وهم لايحيطون من علمه إلا بما شاء . ويمضي الإنسان يبحث في آيات الله ويتأمّل خلقه ، عبادة لله وطاعة ليبلغ بذلك ماشاء الله له أن يبلغ .

وقد أشار منهاج الله إلى هذه الطاقة بتعبيرات مختلفة ، ونشعر أن كل تعبير يُشير إلى سِمة من سمات هذه الطاقة أو غاية أو مَهَمَّة من مَهَامّها ، حتى تجتمع الظلال فترسم الصورة المعجزة الكاملة . ولانستطيع أن نورد هنا أكثر من قبسات من منهاج الله :

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩]

فجاء التعبير هنا يحمل ظلاله الخاصة ، جاءت كلمة ﴿ **الحكمة** ﴾ لتدلّ على منحى العقل الكبير والتفكير السليم والرأي الصائب والعلم الصادق القائم على صدق الإيمان والتوحيد والعلم بمنهاج الله . وكذلك جاءت كلمة ﴿ **أُولوا الألباب** ﴾ لتمدّ ظلالها ولتشير إلى موضع من مواضع الطاقة ، وهو اللبّ ، ولتجمع كلها زاد الإيمان والتقوى والخبرة والدراية . ويرتبط العقل بالسمع في آية أُخرى :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُناَّ نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَاكُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠]

وترتبط هذه الطاقة العظيمة في الإنسان بالسمع والبصر والفؤاد في أكثر من آية في كتاب الله :

﴿ وَلاَ تَقْفُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦]

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّاتَشْكُرُونَ ﴾ [الملك : ٢٣]

وتشير آيات أُخرى إلى الأفئدة وحدها :

﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ .. ﴾ [الأنعام : ١١٣]

وآيات أُخرى تشير إلى القلب كأنه هو موضع التدبُّر والتفقه والتفكير :

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٠١]

وكذلك :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩]

وتمتد الظلال مع هذه الآيات الكريمة لتبيّن تميّز الإنسان عن الأنعام بهذه الطاقات العظيمة المتشابكة المتكاملة ، ولتشير إلى القلوب كأنها هي موضع التفقه والتدبّر ، ولتشير إلى ترابط السمع والبصر والقلوب .

وتصور لنا الآيات الكثيرة الممتدة في كتاب الله أن القلب لايقتصر نشاطه على التفكُّر والفقه والعقل ، وإنما هو كذلك وعاء العاطفة والاطمئنان والرضا ، والغضب والسخط ، والوجل والسكينة ، والأُلفة والتدبر . وتمتدّ كل هذه الظلال والمعاني في أكثر من مائة آية ترد فيها كلمة « قلب » و « قلوب » في القرآن الكريم .

وتصوِّر لنا آيات أُخرى هذه الطاقة في الإنسان من خلال تعبيرات أُخرى مُتعددة : يعقلون ، يتفكَّرون ، يتدبَّرون ، يفقهون ، يعلمون ، يسمعون ، تعي ، واعية ، . . ! ومع كل لفظة ظلالها وإيحاءاتها الخاصة .

وتشير آيات كريمة أُخرى إلى أصحابها في صيغة المديح بتعبيرات مختلفة متعدِّدة أيضاً ، تزيد الصُّورة وضوحاً وجلاء :

النُّهى وأُولوا النهى ، الأَلباب وأُولوا الأَلباب ، الحكمة ومن يؤت الحكمة ، القلوب ، وغيرها مما يرد في الآيات والاحاديث ، ومما يصعب عرضه كله هنا . ولكنها قبسات نستعين بها لنوضّح القضية ونرسم الصورة ، لنوجّه القلوب والعزائم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، إلى منهاج الله ، حيث نجد الصورة الكاملة المعجزة .

وقد اعتاد الناس أن يُسَمُّوا النباهة والعقل بالذكاء على إطلاقه ، حتى اختلطت الصورة الإيمانية المتكاملة بالصورة المادية المضطربة المتناقضة . فالإسلام يُشير إلى حسن التفكير وقوته ، وإلى الفطانة والنباهة والذكاء بألفاظ ربانيّة جامعة ترسم منهجاً وتحدِّد هدفاً وغاية ، فتأتي التعبيرات جليّة مشرقة قوية :

﴿ .. وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣]

فالعقل والفطنة والذكاء لايكون جهلاً . إنما هو علم يسارع الذكيّ الصادق إليه ، ليبلغ منه قدر وسعه الذي وهبه الله إياه ، وليستوعب فيه طاقته :

﴿ .. وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ٧]

إذن هم أولو الألباب الذين يذَّكَّرون الحق ويؤمنون به . إن التذكُّر إذن هو النباهة ، هو الذكاء ، هو الفطنة ، في ميزان الله .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤]

إنها آيات الله المبثوثة في الكون ، في حياة الإنسان ، في كيانه وجسمه وبنائه ، ففي كل صغيرة وكبيرة آية تدلُّ على أنه لاإله إلاّ الله وحده لاشريك له . فالعقل والذكاء والفطنة والنباهة هي وعي هذه الحقيقة الكبرى في الكون والخضوع لها والخشوع بين يدي الله الواحد القهار . ولذلك يتكرر السؤال في القرآن الكريم : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ .

وهكذا تتوالى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة لترسم نهجاً محدَّداً ومعنى جلياً للذكاء والعقل وحسن التفكير . وهذه الطاقة على هذا النحو مغروسة في كيان الإنسان وبنائه ، في فطرته وطبيعته ، لتؤدي مَهَمَّتها الحقيقية في الحياة . وتتفاوت مستويات هذه الطاقة من إنسان لإنسان ، وتتفاوت المواهب والقدرات على سُنَّة لله ماضية في خلقه ، وحكمة لله غالبة . ولكنها تظلُّ في الإنسان المكلف شرعاً مستوفية للقدر اللازم للإنسان ، ليقوم بأمانته ومسئوليته في حدود وسعه وطاقته ، كما وهبها الله له وحدّدها .

وحتى تظل هذه الطاقة عاملة في دربها السليم ، مستقيمة على النهج الحق ، والحكمة والعقل والفطنة ، على ميزان الإسلام ، فلا بُدَّ من أن تصدق النيّة في القلب ،

حتى تفتح النية بـابَ الرَّيِّ والغـذاء من نبع الإيمان وَالتوحيد ، ولتظلَّ هـذه الطاقـة قادرة على أداء الأمـانـة والـوفـاء بـالمهَمَّـة التي خُلقـت لها ، ولتظل متـوازنـة مع سـائر القـوى والطاقـات ، والغرائز والـرغبات ، مما جعلـه الله في فطرة الإنسـان ، لتتسانـد كُلُّها حتى تؤدي كل طاقة وظيفتها وأمانتها التي خلقت لها .

فإذا فسـدت النيّة اضطـرب دور هذه الطاقـة واختل توازنها ، وانحـرفت عن مجراها الحق . ويصبح الـذكـاء عنـدئذ مهـارة في الخداع والنفاق ، مهـارة في الجريمـة والسرقـة والقتل والفاحشة ، مهارة في الجري اللاهث وراء الـدنيا وشهواتها ، تحت كل شعار حتى ولو كان شعار الإسلام .

هنا تصبح النباهة والفطنة والذكاء والعقل خـداعاً ومواربة ومراء وتصبح فتنة وفساداً في حياة الإنسان ، وعـدواناً وظلماً ، وصراعاً على لعاعة من الدنيـا ، زيَّنها الشيطان حتى حسبها المفتـونون شيئاً عظيماً ، فجروا يلهثـون خلفها بغباء كبير ، وجعلوا من هـذا الغباء ذكاء ونباهة وفطنة !

لقد اختل الميـزان اختلالاً كبيراً حين فسدت النيّة ، واضطربت المقـاييس والمعايير ، واختلطت الصورة وساء الفهم والتقدير ، وساءت حياة الناس !

في علم النفس اليوم ، فرَض علينـا المشركون في الأرض مفهوماً خاصـاً « للذكاء » ، مفهوماً حصروه بالصـورة المادية المتناقضة المضطربة ، حتـى غاب المفهوم الإيماني . وأخذ بعض المسلمين هـذا المفهـوم الماديَّ كأنّـه حقيقـة مطلقـة مُسَلَّـم بها ، وجَـرَوا خلفـه ، فـاستخدمـوه في حيـاتهم العامـة وحياتهم العلميّـة ، وفي أبحـاثهم ودراساتهم ، وطـووا المفهـوم الإيماني وطرحـوه جـانبـاً . وظلَّ بعضهم ، بـالـرغم من صـلاتهم وصيـامهم ، وتلاوتهم للقـرآن الكريم ، غافلين عن عظمـة المعنى الإيماني للعقل والذكـاء ، لاتوقظهم صـلاتهم ولاصيـامهم ولاتـلاوتهم لكتـاب الله . عجبـاً لحالنا اليـوم ، وعجبـاً لغفـوتنـا العميقة ، وعجباً لاضطراب النية واضطراب الإيمان .

ومن هنا جاءت عظمة الحديث الشريـف :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« إن المؤمن غِرٌّ كريم ، وإن الفاجر خَبٌّ لئيم »** [رواه أحمد والترمذي وأبوداود] [1]

فالمؤمن سليم الصدر ، صادق النيّة ، بعيد عن الشرّ وأبوابه . فهو « غِرٌّ » بذلك قويّ الخلق متينه ، لاتنزع نفسه إلا إلى الخير فهو « كريم » . أما الفاجر فقد فسدت نيّته حتى صار قريباً إلى أبواب الشر ، يلجها وهو مخادع ، فهو بذلك « خَبٌّ » ، لاتنزع نفسه إلا إلى الأذى والغش والمراء والخداع فهو « لئيم » . والمؤمن له بإيمانه حماية من الله وقوة ورعاية ، وبنيّته الصادقة نهج مستقيم ، إن أوذي مرّة جعل الله له فرجاً ونصراً ، وجعل العاقبة للمتقين .

والمؤمن غِرٌّ قبل أن تصقله التجربة والميدان . ولكنَّ نزول المؤمن للميدان يضاعف من زاده وسلاحه ، وتجربته وخبرته .

ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : **« لست بالخَبِّ ولكن الخَبَّ لايخدعني »** [2] .

وكيف يكون عمر رضي الله عنه خَبّاً ورسول الله ﷺ جعل هذه الصفة ملازمة للفاجر بعيدة عن المؤمن ؟! ولقد صقلت التجربة عمر بن الخطاب ونمت مواهبه حتى قال : **« . . . ولكن الخبَّ لايخدعني »** .

ويؤكد لنا الرسول ﷺ ميزان الإسلام للعقل والذكاء والكياسة والفطنة في حديثه الشريف :

عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال : **« الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني »**

[رواه الترمذي وابن ماجه] [3]

وهكذا تتوالى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة حتى تحدِّد ميزان العقل والفطنة ، ونهج التفكّر والتدبّر ، على أساس النيّة الصادقة الخالصة المتجهة إلى الله سبحانه وتعالى ،

---

(١) أحمد : الفتح الرباني . ج (١) . ص (١٠٨) . حديث (٨٥) . أبوداود : كتاب الأدب (٣٥) . باب (٦) . حديث (٤٧٩٠) . الترمذي : كتاب البر (٢٨) باب (٤١) . حديث (١٩٦٤) . صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني ج (٦) . ص (٦) . حديث (٦٥٢٩) . وقال عنه حسن . سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٩٣٢) .

(٢) أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر ، لعلي الطنطاوي وناجي الطنطاوي : طبعة دار الفكر في بيروت . الطبعة الثانية . (ص : ٢٨٣) . وقال في الهامش سراج الملوك ٥٦ .

(٣) الترمذي : كتاب صفة القيامة (٣٨) . باب (٢٥) . حديث (٢٤٥٩) وقال عنه حديث حسن والنصّ له . ابن ماجه : أبواب الزهد (٣٢) . باب (٣١) . حديث (٤٣١٤) .

النيّة التي تطلق ريَّ الإيمان والتوحيد ليغذّي طاقات الإنسان كلها على صورة متوازنة أَمينة عادلة ، النيّة التي توجِّه طاقات الإنسان على نهجها الحق ، وإلى غاياتها التي خُلِقَتْ من أجل أدائها . ثم تعمل هذه الطاقات مما نعلم ومما لانعلم لتكون هذه القدرة في الإنسان، القدرة التي نسميها « العقل » .

وإذا كان العقل يمثل الطاقة الخاصة بالتدبّر والتفكير ، فهناك طاقة أُخرى إذا تحرّكت خفق القلب أو دمعت العين أو انفرجت الشفاه عن بسمة أو عن ذهول وأسى . إنها العاطفة التي تعمل في كيان الإنسان وتعمل هاتان الطاقتان معاً ، طاقة العقل والتفكّر وطاقة العاطفة والشعور . تعملان معاً ، لاتستغني واحدة عن الأُخرى ، ولكن تختلف نسبة هذه الطاقة وتلك من موقف إلى موقف ، ومن عمل إلى عمل ، ومن إنسان إلى إنسان .

وهنالك قوى غيبية في كيان الإنسان ، لا يستطيع العلم المادّيّ أن يدرسها أو يحّدد دورها . فالشيطان له دور في غواية ابن آدم يثير شهوته أو يضلّ عقله :

فعن أنس عن النبي ﷺ قال : « إنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم »

[رواه أحمد والشيخان وأبوداود][1]

وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « **إنَّ الشيطان قال : وعزتك يارب لاأبرح أُغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الرب : وعزّتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ماستغفروني** » [رواه أحمد وأبو يعلى والحاكم] [2]

فهذه قوة غيبية تؤثر في فكر الإنسان وفي عقله وتدبره بطريقة غيبية لانعلمها ، ولكن ندرك بعض آثارها . ولكن هذا الشيطان يَفْرَقُ من عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فعَن بريدة عن النبي ﷺ قال : « **إن الشيطان ليفْرَق منك ياعمر** »

[رواه أحمد والترمذي وابن حبان][3]

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني : حديث رقم (١٦٥٤) . وقال الألباني رواه كذلك الشيخان وأبوداود وابن ماجه عن صفية

(٢) المصدر السابق : رقم (١٦٤٦) .

(٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته : حديث رقم (١٦٥٠) .

والله سبحانـه وتعالى لم يخلق الإنسـان ليتركه سدى دون رحمة منـه سبحانـه وتعالى أو عقاب وابتلاء يؤثر في فكر الإنسان وعاطفته ورأيه وموقفه :

﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ [القيامة : ٣٦]

كلا ! لن يترك الله عباده سـدى . فقد خلق الخلق والكون ، وسنّ سنناً ماضية على حكمة بالغة وقدر غالب .

وكـان من بين ذلك أن جعل الله الإيمان في فطرة كـل إنسان ، وكـان من سنن الله في الحيـاة أن الوالـدين يهوّدان أولادهم أو ينصرانهم أو يمجسّـانهم ، أو يـرعوا فطـرتهم حتى تظل على الإيمان والحق . وجعل ابن آدم يسعى في الحيـاة ، فيعمل صالحاً أو يـرتكب إثماً ومعصية . وإذا تراكمت المعاصي على ابن آدم أغلقت قلبه بنكتة سوداء فوق نكتة .

ومن خلال ذلك كله ، وممـا لانعلم ، جعل الله برحمته الهداية منه سبحـانه وتعالى ، يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء على حكمة بالغة وعدل حق لاظلم معه .

وكان من رحمة الله كذلك أن علم آدم الأسماء كلها ، وعلمه مايشاء سبحانه وتعالى ، وبثّ آيـاته في الكون لينظـر الإنسان فيفكـر ويتدّبـر ، ويؤمن فيخشع . وبعـثَ الأنبياء والرسل لتذكّـر الناس بالحق الذي قامت عليه السمـوات والأرض ، ولكي لايكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

فهذه كلهـا قضايا غيبيـة تعمل في الإنسان لتساهم في بنـاء فكرة وعقله ، وعـاطفته وشعوره بطريقة لا ندركها ، ولكن نعلم أنها حق لأنها من عند الله .

هـذا الغيب الذي لانعلم منـه إلا مـاعلَّمنا الله إيـاه يـؤثر في فكـر الإنسـان وقدرتـه العقلية ، ويؤثر في عاطفته وشُعوره وفي كيانه كله .

إن العلم المادي ينظر إلى القلب فيرى فيـه عضلة وشرايين وأوردة وصمامات وماشـابه ذلك من أجـزاء ماديـة . وينظر إلى الـدماغ فيرى أنـه هو مكـان التفكير والتدبـر ، وهو العقل . إنـه بهذه النظرة ألغى جميع العـوامل المادية الأخـرى والعوامل الغيبية التـي تُكوِّن كلها قدرة الإنسان على التفكر والتدبر .

أمـا النظـرة الإيمانية فترى القلب غير مـا تـراه النظـرة المادية . إنـه ليس مجرّد عضلـة وشرايين وغير ذلك . إنه مكـان النيّة والعزيمـة والقصد ، وإنـه يصلح الجسد إذا صلح هو ، وإنه هو مركز الوعي والهداية والإيمان . إنه القلب الذي في الصدور :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور * ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون ﴾

[الحج : ٤٦ ، ٤٧]

نعم ! إنها القلـوب التي في الصدور ! حتى لايبقى هنـاك لبس في موضع القلـوب ، ولايبقى مجال لأحد أن يؤوّل أو يغالط !

وعن النعمان بن بشير قـال سمعت رسـول الله ﷺ يقـول : « الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشتبهات لايعلمها كثير مـن الناس . فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينـه وعرضه ، ومن وقع في الشبهـات كـراع يرعـى حول الحمى يـوشك أن يـواقعـه . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله في أرضه محارمـه . ألا وإن في الجسد لمضغـة إذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهي القلب » [رواه البخاري ومسلم] [1]

والروح ! إنها من أمـر الله ، لايعلم أحدمن البشر عنها شيئاً إلا أنها هي الحياة التي تـدبّ في جسد الإنسـان ، وأنها هي التي تطلق كـل أجهزة هـذا الجسـد بطـريقة غيبّيـة لايمكن أن ندركها ، ولكن نؤمن أنها حق ! .

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾
[الإسراء : ٨٥]

أما الماديّون والمثاليون فيرون الروح شيئاً آخـر ابتدعوه من عند أنفسهم ، ماهم به من علم إلا اتبـاع الظنّ واتبـاع البـاطل . فهم جميعهم يعتبرون الـروح هـو « الفكـر والوعي والعقل » [2] ويتركون الفكـر والوعي والعقل كلمات تـائهة متفلّتـة لاتدرك لها معنى واضحاً .

---

(١) البخاري : كتاب الإيمان (٢) ، باب (٣٩) ، حديث (٥٢) .
(٢) يراجع كتاب « تقويم نظرية الحداثة » الطبعة الثانية للمؤلف ص (٤٦ , ٤٧) . لتفصيل أوسع عن المادية والمثالية ونظريتها للروح .

هذه القـوى التي عدّدنـاها من قـوى ماديـة في جسم الإنسان نعلم بعضهـا ونجهل بعضها ، وقـوى غيبية لانعلـم عنها ولا عن كـامل دورها إلا مـاعلمنا الله ، هـذه القوى تعمل كلها لتكون مايمكن أن نسميه العقل .

ويعتبر القرآن الكـريم أن هذه القوى كلها تـرتبط بطريقة غيبية بـالقلب ، وبالقلب الذي هو في الصدر .

من ذلك نرى أن كلمة « العقل » لايصحّ أن تطلق على عضـو واحد معزول عن سائر القوى والأعضـاء كالـدماغ الـذي يُعتبر اليوم أنـه هو العقل ، أو أنـه هو وحـده مصدر الفكر والوعي .

العقل طاقـة تعمل قوى كثيرة على بنـائها في الإنسان ، وليست عضـواً ماديـاً واحداً نبحث عنه في جسم الإنسان معزولاً عن غيره من الأعضاء والقوى .

ومن خـلال هذه القـوى جميعهـا يكون العقل إمـا حكمة وصـلاحـاً ، وإما ضـلالاً وفساداً، ويظل العقل بين الحكمة والضلال ، إماهنا وإما هناك .

الفصل الثالث

نقص العقل والدين

مع الحديث الشريف : « يامعشر النساء ..»

عن عبدالله بن عمر عن الرسول ﷺ أنه قال :

« يـامعشر النساء ! تصـدّقن وأكثرن الاستغفـار فإني رأيتكنّ أكثر أهل النـار ، إنكنّ تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، مارأيت من نـاقصات عقل ودين أغلب لذي لبٍّ منكنّ ، أمـا نقصان العقل فشهـادة أمرأتين تعـدل شهـادة رجل ، فهذا نقصـان العقل ، وتمكث الليالي ماتصلي وتفطر في رمضان ، فهذا نقصان الدين » . [رواه مسلم وابن ماجه][1]

وعن زينب امرأة ابن مسعود :

« يامعشر النساء ! تصدَّقن ولو من حُليّكنّ فإنكنّ أكثر أهل جهنّم يوم القيامة »

[رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم][2]

كثر الكلام والجدل في الآونـة الأخيرة حول موضوع هـذا الحديث الشريـف . وتناولته المنابـر في المساجـد وبعض الصحف والدراسـات وغلب على هذا كلـه الاتجاه إلى أن هذا الحديث الشريف هـو تحقير للمرأة وإنقـاص من قـدرهـا ومنزلتهـا ، وألحّ الكثيرون بهذا الاتجـاه .

لقد سمِعت النســاء المؤمنات هـذا الحديث أيام النبوة الخاتمة ومـا تلاهـا من عصور الخلفاء الـراشدين ، فما وجدت النساء في هـذا الحديث ، ولا وجد الرجـال تحقيراً للمرأة وإنقاصاً من قدرها ومنزلتهـا ، فلماذا ضجَّ اليوم بعض الناس حول هذا الحديث ، لينكرَه فريق يحسب أن الحديـث ، يُنقص من قدر المرأة ويحقِّرهـا ، وليثبته آخـرون مقرين بتحقير المرأة ، فلا هؤلاء أصابوا ولاعدلوا ولا أولئك . والحديث صحيح عادل حق !

---

(١) رواه عن أبي هريرة أحمد ومسلم والترمذي وعن أبي سعيد رواه أحمد والشيخان . وجاء في المشكاة برقم (١٩) ، وفي الإرواء (١٩٠) .

(٢) وجاء في المشكاة برقم (١٨٠٨) ، وفي الإرواء (١٩٠) .

إننـا نعتقد أن سبب اضطـراب فهم الحديث هـو مـاتسلل إلينـا من الحضارة الماديـة الغـربيـة أو الشرقية من مسـاواة المرأة بـالـرجل ، وإبـاحـة العلاقـات على ضـوء ذلك ، وإطلاق الحريـة الفرديـة في لهيب وجنون . والغـرب في حقيقته لم يسـاوِ بين المرأة والرجل مساواة عادلة ولكنه ساوى بينهما في ميـدان الرذيلة والفاحشة أولاً ، ثم أطلق المرأة في سائر الميادين ولو لم تكن هي أهلاً لها ، ثمَّ استغلها أسوأ استغلال ، ثمّ أسقط الرجل والمرأة معاً من منزلتهما الكـريمة التي أنـزلهما الله فيها بـالفتنة والعلمانيـة والكفر أواضطـراب التصور الإيماني ، والابتعاد عن منهاج الله الحق .

لابدَّ أَن نعي هذه الحقيقة أَولاً لتسـاعدنا على فهم هذا الحديث الشريف الصحيح . ونستدل على ماذهبنـا إليه في أن الغرب لم ينصف المرأة ولم يكرمهـا ، وكذلك الشرق المادي الملحد ، بأَدلـة كثيرة من فكرهم ومن واقعهم ، ومن بينها ما قـاله جوربا تشـوف في كتابه «البيروسترايكا » .

« ولكن في غمـرة مشكلاتنـا اليـوميـة الصعبة كـدنـا ننسى حقـوق المرأة ومتطلباتها المتميّـزة المختلفة بدورها أُمّاً وربّة أسرة ، كما كدنا ننسى وظيفتها التي لابديل عنها مرّبية للأطفال . . »[1]

ويتابع غـورباتشـوف قوله فيقـول : « . . فلم يعد لـدى المرأة العاملـة في البناء وفي الإنتـاج وفي قطـاع الخدمـات وحقل العلم والإبـداع ، مـايكفي من الـوقت لـلاهتمام بالشؤون الحياتية اليومية ، كإدارة المنزل وتـربية الأطفال ، وحتى مجرد الراحة المنزلية . وقد تبيّن أَن الكثير من المشكلات في سلوكيـة الفتيان والشباب ، وفي قضايـا خلقية واجتماعية وتربوية وحتى إنتاجية ، إنما يتعلق بضعف الروابط الأُسرية والتهاون بالواجبات العائلية »

آلآن يـاغوربـاتشوف؟! آلآن ، بعـد أن حطمتم المرأة أنتم والغرب مئـات السنين ، وأسقطتموها بوحول الفاحشة ، واستغللتموها في إشباع شهواتكم دون رحمة ؟! ألم تروا المرأة العجوز في بـلادكم وسائر البلدان التي تسير في ركابكم وهي تنظف الشـوارع في عمل شاق مـزرٍ ؟! ألم تـروا المرأة وهي تجري لاهثـة من عمل شـاق إلى عمل شـاق لتبحث عن لقمـة

(١) جورباتشوف : البيروسترايكا والتفكير الجديد لبلادنا والعالم أجمع . ترجمة أحمد محمد شومان وإخوانه (ص : ١٦٦) .

العيش ، فمن لايعمل لا يأكل ؟! هنا في هذا الشقاء الإجرامي ساويتم دون وجه حق بين المرأة والرجل في ظلم وعدوان وإجرام ، حتى تفلتت البيوت وتقطعت الأرحام وتمزّقت الأُسرة ، وفسدت الأجيال وانتشرت الجريمة ! ذلك لأنك لم تسمع قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾

[محمد : ٢٢]

أما الإسلام فقد كرّم المرأة وحدّد لها دورها في الحياة كما سنرى بعد قليل . كرم الإسلام المرأة والرجل وساوى بينهما في الشعائر والعمل الصالح ، فكلف الله سبحانه وتعالى المرأة ، كما كلف الرجل ، بالشهادتين والصلاة والصوم والزكاة والحج . وحسب الإنسان تكريماً أن كلفه الله بهذه الأركان وغيرها من التكاليف الشرعية .

وأصف في قصيدة « هي النجاة أدركيها » موقف الحضارة الغربية من المرأة في ديواني «مهرجان القصيد » ، وموقف المؤيدين لذلك في بلادنا [1] أقتبس منها :

وكم تـــرى عصـــابـــة	وثـــــــورةً مـــن حُمُق
تقـــول يـــاحضـــارة ال	غــــــرب أطِلّي واخْفقي
واقتلعي الـــــدين وكلّ	غــــرســـــة من خُلُق
وزيّني الظلـم وحَمْـــــــــ	ــــأ الجنس دفقَ الشبق
وجَـــــرّدي المرأة مـن	عفّتهـــــا وانطلقي
وجـــــرّديها من بقـــا	يـــــا ثـــوبها والخِرَق
وارم بها عـــــاريـــــة	على ثنـــايـــا الطـــرق
لكلّ ذئب جـــــائع	وكـــل وحــش مطبــق
ثـمّ اقتلي بقيـــة الـــــ	إنســــان فيهـــا واسحقي
لم يبق إلا مضغـــــة	يلفظهـــــا كـلّ شقي

(١) ديوان مهرجان القصيد ، للمؤلف ، ص ١١١ ، ١١٢ ، قصيدة هي النجاة أدركيها .

يصفقهـــــــا وينثني	للهـــــوه الممـــــزّق
وغلّفـي الجريمةالـــــــــ	ـــــكبرى بثـــوبِ خلـقِ
بـــرايـــة كـــاذبـــة	أو بشعـــــــــار شيّـق
كـم عُـــــرُس في مـأتـمٍ	ومـــأتـــمٍ في رونـــق

إنها حضارة الغرب التي غـزتنا بطوفان جبّار لم تكرم المرأة، وإنما جّردتها مـن جوهرها الإنساني، وأغـرقتهـا في وحـول المادية من جنس فـاجـر أو علم منقطع عن الإيمان والتوحيـد، أو مراكز قيادية في بعض الشعوب وفي بعض مراحل تاريخهـا ، منصرفة عن مهمتها الحقيقية في الحياة ، المهمة التي خلقها الله لها .

لانستطيع هنا أن نفصّل في مهمـة المرأة ودورها في الحيـاة كما بيّنها منهاج الله - قـرآناً وسنّـة ، ولكننا نبتـدىء بـالقول بأنها زوجـة في سكن ومـودة ورحمة وحنان ، وأمّ في بنـاء وتربية ، وعـون للرجل في نصرة دين الله ، وتحقيق الأهداف الثابتة التي حـدّدها منهاج الله وفصّلها ورسم نهجها ودربها ، ثمّ نشير إلى قبسات من الكتاب والسنة حول منزلة المرأة في الإسلام ومهمّتها ودورهـا في الحياة ، مما يعيننا في فهم هـذا الحديث الشريف لنستفيد من ذلك في واقعنا اليوم ، في واقع الدعوة الإسلامية وحركتها ونهجها ، ودور المرأة فيها .

١ - منزلة المرأة في الإسلام ، وتكريم الإسلام ورعايته لها :

يجب أن نـــــدرك أولاً أن نظرة الإسلام للمرأة يقوم عليها تحديد لمهمتها في الحياة ، وتكريم لها ، وإنقاذ لها من وحول الفتنة ومدّها بـالتوجيه الصادق الذي تحتاجه في مسيرتها في الحياة . ولايمكن للمرأة أن تعـرف مسئولياتها ومنزلتها وواجباتها وحقـوقها إلا من كتاب الله وسنـة رسـولـه ﷺ ، كما كـانت المسلمات زمن النبـوّة الخاتمة يأخـذن ويعـرفن . أمـا الاقتصار على قول البشر والقيل والقال فإنه يسبب الاضطراب ويثير الشبهات .

نظرة الإسـلام للمرأة تختلف بـذلك اختلافاً كليـا عن نظرة الحضـارة المادية . تختلف النظـرتان اختـلافاً واسعـاً لا لقاء معـه بينهما . فهذه سبيل وصراط مستقيم ، وتلك سبل شتى ، كما جـاء في حديث عبـدالله بن مسعـود عن رسول الله ﷺ حيث قـال : **خطّ لنا**

رسول الله ﷺ خطاً ثم قال : هذا سبيل الله . ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال : هذه سبل متفرّقة ، على كل سبيل شيطان يدعو إليه . ثم قرأ الآية : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه.. ﴾ [رواه أحمد والنسائي والدارمي] [1]

فحتى نفهم معنى الحديث الذي نحن بصدده يجب أن نتحلّل أولاً من سلطان المادية الغربية والشرقية ، وأن نستجمع في قلوبنا حقيقة الإيمان والتوحيد ، وأن نستجمع الآيات والأحاديث المتعلقة بموضوع المرأة هذا ومنزلتها وقيمتها في دين الله .

فمن الخطأ أن نأخذ الحديث أو الآية ، وأي حديث أو أي آية ، معزولاً عن سائر الأحاديث المتعلقة بموضوعه ، أو عن سائر الآيات . وكذلك لا بدَّ أن نجمع في ذهننا صورة متكاملة متناسقة عن القضية كلها ، لتكوّن الخلفية الضرورية أو القاعدة اللازمة لفهم الحديث أو الآية ، والفقه في هذا الحديث أو تلك الآية .

لقد كرّم الله بني آدم رجالاً ونساءً في الآية التالية من سورة الإسراء ، دون أن يفاضل سبحانه وتعالى بين الرجال والنساء ، فكان تكريماً لبني آدم عامة فضلاً من الله ورحمة :

﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠]

وتأتي وصيّة رسول الله ﷺ لتأمر المؤمنين أن يستوصوا بالنساء خيراً ، لتكون هذه الرعاية للنساء معنى من معاني الإيمان بالله واليوم الآخر ، ولتكون وصيّة بالرعاية والتعهد :

فعن أبي هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره ، واستوصوا بالنساء خيراً » . [رواه البخاري] [2]

وعن أنس كذلك : « استوصوا بالنساء خيراً . » [رواه أحمد] [3]

وعن أبي هريرة أيضاً : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فإذا شهد أمراً فليقل خيراً

---

(١) مشكاة المصابيح للتبريزي بتحقيق الألباني : كتاب الإيمان (١) . باب الاعتصام بالكتاب والسنة (٥) . حديث رقم(١٦٦) وإسناده حسن .
(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني : رقم : (٦٥٠٤)
(٣) المرجع السابق : رقم : (٩٥٩) .

أو ليسكت . استوصوا بـالنساء ، فإن المرأة خُلِقتْ من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، إن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج » [رواه مسلم][1]

وصية ماضية أبدا الدهر ، ورعايـة حانية كريمة . فالمرأة خُلقتْ من ضلع الرجل . حقيقـة نؤمن بها ، ولكن تكفُـر بها الحضـارة المادّية كلهـا . ومع أنها خلقت من ضلع ، وأعوج شيء في الضلع أعـلاه . . . . ، فإن الإيمان حين يدخل قلب المرأة يلطّف كثيراً من نقاط ضعفهـا . ففي المرأة ضعف يبيّنه هذا الحديث ، وفي الرجـال ضعف كذلك ، وفي الإنسان عامة ضعف كما سنبين بعـد قليل . ولكن جاء هذا الحديث ليكشف عن جانب من جوانب ضعف المرأة يتطلب هذه الوصيـة من الرسول ﷺ ، دون أن يعنى هذا أوغيره تحقيراً للمرأة ، ولا إنقاصاً من منزلتها في الإسلام ، ولا سبباً لنعيب به على المرأة .

وقـــولـــه ﷺ : « . . . فإن المرأة خلقـت من ضلعٍ ، وإن أعـــوج شيء في الضلع أعـلاه . . . » لايعني تحقيراً للمـرأة المؤمنـة . إن هـــذا الحديث الشريف الصحيح يبيّن لنا حقيقة ثابتة ، ويبّين جانباً من طباع المرأة عامة ، وليس من طباع المرأة المؤمنة بخاصّة .

ومنهـاج الله يكشف لنا من خـلال الآيات والأحـاديث جوانب من ضعف الإنسـان بعامة ، وجوانب من ضعف الـرجل وجوانب من ضعف المرأة ، كما سيرد معنا أثناء شرح الحديث موضوع بحثنا هذا .

وكيف يحقّ لنا أن نعتبر هذا نقصـاً وتحقيراً للمرأة ، والمرأة من خلق الله ، والله أحسن كلَّ شيء خلقه . ومن حكمة الله أن جعل نواحي الضعف في الـرجل والمرأة ، في الإنسان عامة ، جزءاً من تكوين الإنسـان تجعل للإنسان دوراً في الحياة الدنيا ، يمضي بـه الإنسان من خلال ابتلاء وتمحيص . فمن نجا ارتفعت مكانته بإذن الله وفضله ومن زلَّ وسقط نزلت مكانته .

﴿ الذي أحسن كلّ شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ [السجدة : ٧]

وسنعود إلى هذه القضية مرة ثانيـة عند شرح الحديث الذي نحن بصدده . إن نواحي الضعف في الـرجل والمرأة يعـالجها الإسـلام . فمن استجـاب للعلاج خـفّ أثر ضعفـه

---

(١) المرجع السابق : رقم (٦٥٠٠) .

بإيمانه وهداية الله له ، وبعلمه بمنهاج الله . واستمع لقول الله سبحانه وتعالى يبيّن لنا هذه الحقيقة المهمة :

﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشرّ جزوعا* وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون* والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين* والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ [المعارج : ١٩ - ٢٧]

إن هذه الخصائص الإيمانية من إقامة الشعائر والصدقة والخشيةمن الله ، والتوبة والاستغفار ، هذا كله وكثير غيره يخفف من أثرالضعف أو يزيله .

فلا يجوز لنا أن نجعل مايعرضه منهاج الله لنا من ضعف في الرجل أو المرأة سبباً لتحقير هذا أو ذاك ، نعيب به عليه .إنها حقائق ثابتة عن الضعف في الرجل أو المرأة تساعدنا في واقعنا على وضع مناهج التربية والبناء على أساس من منهاج الله .

وتمضي رعاية الإسلام للمرأة من خلال المنهاج الرباني في جميع مراحل حياتها : وهي طفلة ، وزوجة ، وأم ، وأخت ، ورحم موصولة . إنها رعاية حانية دائبة تتحدّد معها منزلة المرأة وتبرز خصائصها التي خلقها الله عليها .

فكان من أول الرعاية لها أن أنقذها الإسلام من الوأد الذي كانت تتعرّض له الطفلة حين تولد في الجاهلية لاحتقارهم لها . ومع احتقارهم لها فقد كانوا ينسبونها لله ويجعلون من الإناث بنات لله . فلقد أساؤوا في حكمهم مرّتين : حين وأدوا الطفلة دون وجه حق :

﴿ وإذا الموؤودة سئلت * باي ذنب قتلت ﴾ [التكوير : ٨ ، ٩]

وكذلك حين نسبوا الإناث إلى الله سبحانه وتعالى. ويكشف الله سبحانه وتعالى لنا سوء حكمهم وتقديرهم في هاتين الحالتين في أكثر من سورة :

﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون* وإذا بُشّر أحدهم بالأُنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم * يتواري من القوم من سوء مابشر به أيُمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء مايحكمون ﴾ [النحل : ٥٧ - ٥٩]

هكذا كان خلق الجاهليـة وهكذا كان احتقارهم للمـرأة وظلمهم لها ، وهكذا كانت فلسفتهم ، وهكذا كان تناقضهم فيهـا وسخف تفكيرهم بها ، حين يجعلون الإناث بنات لله سبحانـه وتعالى مع احتقارهم لهن . فكان حكمهم سيئاً في جميع هذه الحالات : حين يئدونهن ﴿ **أم يدسه في التراب** ﴾ ، وحين يمسكونهن على احتقـار وهون﴿ **أيمسكه على هون** ﴾ ، وحين ينسبون الإناث بناتِ لله : ﴿ **ألا ساء مايحكمون** ﴾

وفي سورة الزخرف :

﴿ **وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين** ﴾ [الزخرف : ١٥]

هكذا يـرفع الله من شأن المرأة والـرجل فيساوي بينهما ويجعلهما عبـاداً له ، عبـاداً له كرّمهم بـالعبادة والخلافـة وبالأمانـة ، لكل منهما دور ومهمة في الـوفاء بالأمـانة ، الـوفاء الذي يقوم عليهما معاً ، لاعلى الرجل وحده ، ولا على المرأة وحدها .

﴿ **أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفـاكم بالبنين * وإذا بُشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظلّ وجهه مسوّداً وهو كظيم** ﴾ . [الزخرف : ١٦ ، ١٧]

هكـذا يفضح الله سخف الجاهلية وتنـاقض فكـرهـا ووقوع أَهلهـا في ضـلالة بعـد ضلالة ، وسوء تقديرهم ، حتى ساء حكمهم في كل حالة وضلالة .

وتمضي رعايـة الإسلام للمـرأة في جميع مراحل حيـاتها . ويبيّن لنا حـديث رسول الله ﷺ عظمة هذه الرعاية وامتدادها وهي تنشأ بين أبويها :

فعن عقبـة بن عـامر عن الـرسـول ﷺ أنه قـال : « **من كـان لـه ثلاث بنـات فصبر عليهن ، وأطعمهن ، وسقاهنّ وكساهنّ من جدته كن له حجاباً من النار يوم القيامة** »

[رواه أحمد وابن ماجه][1]

نعم ! «فصبر عليهنّ» ! وذلك يعني بـذل الجهـد الصـادق بإحسـان تـربيتهن على الإيمان والتـوحيـد ومنهاج الله ، وتعهّـدهنّ إيمانـاً وعلماً وعمـلاً ، مع رعـايتهن بـالمطعم

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (رقم : ٦٤٨٨) .

والمشرب ، والكساء الجديد الحسن . وتجيء هنا كلمة « فصبر عليهنّ » لتدلّ على ماتحتاجه التربية والتعهد من جهد وصبر . ولايختص ذلك بالنساء وحدهن ، فإن التعليم والتربية والتعهد أمر شاق في جميع حالاته مع الأطفال ذكوراً أو إناثا ، ومع الفتيان والفتيات والرجال والنساء . ولكلّ حاجته وأسلوبه . ولكن الرسول ﷺ كان يدرك حاجة المرأة إلى أن تحاط بالرعاية الإيمانية ، والتوصية على ذلك ، لما تتعرض له الفتاة في المجتمع البشري من استغلال وإفساد .

ورعاها الإسلام وهي زوجة رعاية دائمة حانية ، ليجعل لها منزلتها الحقيقية ويصون حقوقها وكرامتها ، . في ظلال الإيمان والتوحيد :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون ﴾ [الروم : ٢١]

وكذلك :

﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ [النساء : ١]

فالآية الأُولى تمثل الرعاية في جو السكن والمودّة والرحمة . إنه حق ويقين ، وآية من آيات الله ، يغفل عنها الكثيرون حين يدرسون منزلة المرأة وتكريم الإسلام لها ، ودورها العظيم في الحياة الزوجية .

وتأتي الآية الثانية لتربط الرجل والمرأة في نفس واحدة آية أُخرى من آيات الله ، لاتُقِرُّ بها الحضارة المادية ، ولكنها الحق البيّن من عند الله . ومن هذه النفس بثّ الله رجالاً كثيراً ونساء ، لينشأ الرحم بين الناس صلةً من أطهر الصلات في حياة البشرية ، يقيمها الرجل والمرأة معا في ظلال الإيمان والتقوى ، وتتمزّق هذه الصلة ، صلة الرحم ، بالفجور والفتنة والفساد :

﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾

[محمد : ٢٢]

ويأتي الأمر من عند الله لرعاية هذه الصلة ، صلة الرحم ، وتربط الآية الكريمة هذه الرعاية بتقوى الله : ﴿ .. **واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾

ويتابع الإسلام هذه الرعاية الحانية من خلال آيات بينات وأحاديث شريفة لانستطيع إيرادها كلّها ، ولكننا نورد إشارات ونأخذ قبسات :

فعن سعد عن الرسول ﷺ أنه قال : « **أربع من السعادة : المرأة الصالحة ، والمسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب الهنيء . وأربع من الشقاء : المرأة السوء ، والجار السوء ، والمركب السوء ، والسكن الضيق** »

[رواه الحاكم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان][1]

وعن ابن عمر عن الرسول ﷺ قال : « **الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة** »

[رواه أحمد ومسلم والنسائي] [2]

وعن معاوية بن حيدة عن الرسول ﷺ قال : « **حق المرأة على الزوج أن يطعمها إذا طعم ، ويكسوها إذا اكتسى ، ولايضرب الوجه ، ولايقبّح ، ولايهجر إلا في البيت** »

[رواه الطبراني في الكبير والحاكم] [3]

ففي الحديث الأخير عن معاوية بن حيدة ، يأتي كلمة : « **ولايضرب الوجه** » وينساق الكثيرون أحيانا ليحسبوا أن مهمة الزوج أن يظلّ حاملاً عصاه يضرب بها زوجته . وتغيب في أذهانهم معاني السكن والمودة والرحمة ، ومنزلة المرأة الكريمة . فهذا الضرب غير المبرّح ، الضرب الذي لاينال الوجه ، هو للمرأة التي تنشز فلا تلتزم منزلتها وحدودها ، ولاتلتزم قواعد الإيمان ، ولاتعالج الأُمور من خلال منهاج الله ، ويصبح سلوكها يهدّد البيت والحياة الزوجية . وفي هذه الحالة التي تنشز فيها المرأة يظل الإسلام يعالجها ويرعاها . فالضرب ، كما سنذكر بعد قليل ، هو محاولة من محاولات الإصلاح بعد الوعظ ، وقبل أن يعتزلها ، وقبل الفراق والطلاق .

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (رقم : ٨٨٧)
(٢) المرجع السابق : (٣٤١٣)
(٣) صحيح السابق : (رقم : ٣١٤٩) .

« ولا يُقبّح . . . » ! فهـذا توجيـه كريم معـاملة المرأة النـاشز التي نشـزت بسلوكهـا وعشرتها ، نشزت واستعصت عل زوجها .

« . . ولا يهجر إلا في البيت . . » ! مرحلـة تالية كذلك للمعالجة والـرعايـة للمرأة الناشز ، المسيئة في بيتها .

ولايَخْدَعَنَّ أحد بـالغرب وحضـارته ودعـوة تلامذتـه ، حين يحاولون إثـارة الشبهات حول « الضرب » « والهجر» . فـالذي يفعلـه أولئك بالمرأة أشـد إيلامـاً وأسوأ مـآلاً ، فما يفعلونه هو انتقام أو خيانة ، لامعالجة فيها للبيت والأُسرة ومشكلاتها . نجد هناك روابط الأسرة مفككـة ضحلة والمرأة تخون . وتقبح في اللفظ والمعـاملة ، والـرجل يخون ويقبحّ في اللفظ والمعاملة ، وإذا ضرب انتقم ، وإذا ثارت النقمة تحولـت إلى جريمة مروعة من قتل وتقطيع . والخيـانة ممتـدة من أعلى المستويـات إلى أدناها ، حتـى انتشرت الفاحشـة أسوأ انتشار . وأما هذا فهو تشريع حق عادل مـن عند الله للمرأة الناشز لتطمئن المرأة المسلمة إلى مكـانتهـا في دين الله ، ورعـايتهـا لها ،رعـــايـة دائمـة . ولايَخْدَعَنّ أحـد بمن يحاول استغـلال جهل المسلمين بـدينهم ، فيثير الشبهـات البـاطلة ، في تبعيّـة ذليلـة للغـرب والحضارة المادية كلها .

وسنعود بعد قليـل إلى هذا الموضوع ونحن نتحدث عن مسئـوليات المرأة وواجباتها ، بعد أن تحدثنا هنا عن بعض حقوقها .

وحسبهن كـذلك أن ذكرهنّ الله في كتـابه الكـريم ، فقرنَهنّ مع الـرجال في مستـوى واحد من المسئـوليات المبينة ، لاتفاضل فيهـا إلا بالتقوى والبذل في طـاعة الله ، ذلك في سورة النساء والتوبة والأحزاب ومحمـد والفتح والحديد ونوح والبروج . وجعل برحمته لهؤلاء مغفرة وأجراً كريماً .

وحسبهن كذلك أن خصّهن الله بـالذكر والتـوجيه والرعـاية في عدد من سـور القرآن الكريم ، وعدد من أحاديث الرسول ﷺ .

وكلما جاء في القـرآن ﴿ يـا أيها الذين آمنـوا ... ﴾ فإنها تشمل الـرجـال والنّسـاء بالرعاية الربانية والتوجيه :

وحسب النساء تكريماً أن تكون زوجـات النبي ﷺ أمهات المؤمنين . وحسبهن شرفاً أنَّ منهنَّ أربع نساءٍ هن خير نساء العالمين .

ولقد ظهر في عهد النبوة والخلفاء الراشدين والتـاريخ الإسلامي عامة نساء عبقريات كن النموذج للمرأة المؤمنة ، الواحدة منهن تفوق نساء الحضارة الغربية كلهنّ :

﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ [الأحزاب : ٣٥]

لقـد رعى الإسـلام المرأة وأكـرمهـا ، وأنقـذهـا من الجاهليـة ، وحـدّد لنـا بعض خصائصها كما حدد بعض خصائص الرجال وبعض خصائص الإنسان عامة .

ورعاها وأكرمها وهي أم كذلك ، فنالت الـرعاية الكريمة . فحين أمر الله عباده المؤمنين بالبر بالوالدين ، كان ذلك عاماً للرجل والمرأة وقرن هذا البرّ بعبادة الله مباشرة في النص :

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبـالوالدين إحسانـاً إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كـلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولاتنهـرهما وقل لهما قولا كـريماً ۞ واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربّياني صغيراً ﴾

[الإسراء : ٢٣ ، ٢٤]

وتتوالى الآيات الكثيرة والأحاديث تحضُّ على بر الوالدين وتقرنهما معاً رجلاً وامرأة .

وعن أبي هـريـرة عن النبي ﷺ قـال : « **رغم أنف ثم رغم أنـف ثم رغم أنف رجل أدرك أحد أبويه أو كلاهما عند الكبر ولم يدخل الجنة** » (١)

وعن مالـك بن ربيعة السعدي قـال : « بينما أنا جـالس عند رسـول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال : هل بقي من برّ أبوي من شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : «**نعم ! خصال أربع : الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفـاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة**

(١) صحيح الجامع للصغير وزيادته : حديث رقم (٣٥٠٥) . وقال رواه أحمد ومسلم .

الرحم التي لارحم لك إلا من قبلهما ، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما »

[رواه أحمد وأبوداود وابن ماجه] (1)

وعن معاوية بن جاهمة السلمي ، أن جاهمة جاء إلى النبيّ ﷺ فقال : « هل لك أم؟ » قال : نعم قال : « فالزمها فإن الجنة عند رجليها » [رواه أحمد والنَّسائي وابن ماجه] (2)

وعن معاوية بن حيدة عن أبيه عن جده قال قُلت يارسول الله : من أبرّ ؟ قال «أمك، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أباك ، ثم الأقرب فالأقرب »

[رواه أحمد وأبوداود والترمذي والحاكم] (3)

فأي تكريم تريده المرأة بعد هذا ، وأي منزلة تريدها أعظم من هذه ، وأي رعاية أكرم وأجمل وأفضل .

هذا هو تكريم المرأة : طفلة وصبيّة وزوجة وأُماً . فلا يُعقل أن يأتي في الإسلام مايناقض ذلك ، ولا مايُحقّر المرأة أو ينزلها عن منزلتها لأنها امرأة ، ولا ما يكرّم الرجل لأنه رجل . ولكنها التقوى والوفاء بالتكاليف والعهد هي ميدان التفاضل والتنافس .

٢ – مسئوليات المرأة والتكاليف المنوطة بها :

أما وقد عرفنا من خلال الآيات والأحاديث منزلة المرأة المؤمنة في الإسلام وتكريم الإسلام لها ، فلا بد أن نتعرّض الآن لمسئوليات المرأة المؤمنة ودورها في الحياة الدنيا . نشير لها هنا إشارات سريعة ونعرض أهم ملامحها العامة على نفس الأسس التي سبق ذكرها مع أول هذا البحث . خلق الله الرجل والمرأة وجعل لكل منهما خصائص يتميز بها وخصائص يشتركان بها ، وجعل للإنسان ، وللناس عامة ، خصَائص مشتركة ، وخصائص يتميزبها رجل عن رجل ، وإنسان عن إنسان ، كما تتميّز المرأة عن الرجل ، والرجل عن المرأة بخصائص خلقهما الله عليها . وعلى ضوء هذه الخصائص التي أوجدها الله في خلقه ، جاءت التكاليف من عند الله ، للإنسان عامة ، ولكلّ قدر وسعه وطاقته ، وتكاليف ومسئوليات للرجل ، وتكاليف ومسئوليات للمرأة .

---

(1) أبو داود : كتاب (٣٥) ، باب (١٢٩) ، حديث (٥١٤٢) . ابن ماجه : الأدب ، حديث (٣٦٦٤) .
(2) أحمد : الفتح الرباني : ١٤/ ٤٠ – ٤١/ حديث (١٣٥) .
(3) أحمد الفتح : ٧/ ٦١ – ٦٢/ حديث رقم (٣٤) . أبو داود : كتاب (٣٥) ، باب (١٢٩) ، حديث (٥١٣٩) .

على ضـوء ذلك تتحـدّد منـزلـة كل من الـرجل والمرأة ، وعلى ضـوء التـزام كل منهما بعهده ، والوفاء بالمسئوليات والتكاليف .

وعلى ضوء هـذه التكاليف والمسئـوليات يتحـدّد دور الرجل في هـذه الحياة الـدنيا ، ودور المرأة كـذلك . دوران متكامـلان ، يكمل كل منهما دور الآخـر على تناسق وتـرابط يمضي من خلال الالتزام بمنهـاج الله ، من خلال الإيمان والتوحيد الذي يـرتفع به الرجل والمرأة . وكل منهما سيحـاسَب يـوم القيـامـة عن مـدى الـوفـاء بـالأمـانـة التي خُلِق لها والتكاليف التي أُنيطت به .

فـالأمانـة التي يحملها الإنسـان في الحيـاة الدنيـا ، يحملهـا الرجل والمرأة معـاً للوفـاء بها. وكذلك أمانـة العبادة حسبما كلّف كل منهما، وكذلك تكـاليف الخلافة في الأرض وعمارتها . فلا يستطيع الرجل أن يمضي في هذه الحياة الدنيا وحـده ليفي بالأمانة والخلافة والعبادة والعمارة. إنما عمل مشترك بين الرجل والمرأة ، بين دورين متكاملين تبينهما لنا الآيات والأحاديث .

فلقـد سبق أن عرضنـا في ظلال الآيـة من سورة النسـاء ، كيف أن الله **﴿بث منهما رجالاً كثيراً ونساءاً﴾** ذرية ممتدة في الأرض يقوم بها الرجل والمرأة معاً ، ليشتركا معاً في بناء صلة الرحم ، الرابطة الإيمانيـة الكريمة اللازمة في حياة البشرية : **﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ..﴾** !

ولننظر الآن في مسئولية كل منهما في ميدان واحد ، هو البيت ، الأسرة ، الحياة الزوجية :

﴿ الرجـال قوامون على النســاء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصــالحات قانتات حافظـات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظـوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فـلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً﴾ [النساء : ٣٤]

فالقوامة في البيت للـرجل . هذه حقيقة ربّانية وتكليف من الله سبحـانه وتعالى له . حقيقة ربانية ثابتة تمضي في البيت ، بيت الـزوجية من خلال ماسبق أن عرضناه من سكن ومودة ورحمة ومن خلال خضوع كل منهما لقواعد الإيمان والتوحيد ، وقواعد منهاج الله .

إن هذه القوامة أمر ربّاني ، حق مطلق ، لايحل لمؤمن ولامؤمنة مخالفته ، تتلقاها الزوجة المؤمنة بالرضى والاستجابة والخشوع ، لأنها تعرف فضل الزوج عليها مما علمها الله في قرآنه وسنة نبيّه . بهذه الاستجابة لأمر الله تأخذ المرأة المؤمنة منزلتها في الإسلام ، وتصان كرامتها ، وتؤدي الأمانة التي خلقت لها . إنه تكريم ربّانيّ للمرأة :

فعن عبدالله بن أوفى عن الرسول ﷺ أنه قال : **« لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها . والذي نفس محمد بيده لاتؤدي المرأة حق ربّها حتى تؤدي حق زوجها كله ، حتى لو سألها نفسها وهي على قَتَب لم تمنعه »**

[رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان] [1]

إنها صورة يرسمها الحديث الشريف لحقيقة العلاقة الزوجية وقوامة الرجل . ذلك كله من خلال وفاء الرجل بأمانته وتكاليفه ، من خلال السكن والمودة والرحمة ، في أجواء الإيمان والتوحيد ، وممارسة الرجل والمرأة كلاهما لمنهاج الله للوفاء بالأمانة الكبيرة التي خلقا لأجلها .

لن يأمر الرسول ﷺ المرأة أن تسجد لغير الله أبداً . ولكنه أسلوب في التعبير اقتضته مناسبة معيّنة ، حين عاد معاذ بن جبل من اليمن أو الشام ، ورأى النصارى تسجد لبطارقتها وأساقفتها ، فقال للرسول ﷺ أنت أحق أن تعظّم بمثل ذلك . فأجابه بهذا الحديث الشريف [2] والإنسان حين يسجد لله فله في ذلك العزة والمكانة الرفيعة ، وهو أقرب مايكون لله . والله سبحانه وتعالى أبدلنا عن سجود المرأة لزوجها بما شرع لنا من الدين مايحفظ هذه الرابطة ، وجعل في الفطرة السليمة ما يصونها ويَرْعاها . وسجود الرجل والمرأة لله هو عزتُهما معاً ، وحماية لرابطتهما وللسكن والمودة والرحمة بينهما .

﴿ بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ... ﴾ . وأول مايريد أن يثيره بعضهم من شبهات وجدل هو استنتاج أن الرجل خير من المرأة ولكن الله سبحانه وتعالى لم يجعل للتفاضل بين أحد من خلقه إلا بالتقوى ، وجعل الميدان مفتوحاً

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (رقم : ٥٢٩٥) .

(٢) الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد ، ترتيب وتأليف أحمد عبدالرحمن البنا ، (ج: ٢٢) ،(ص : ٢٤) ، حديث (رقم : ٦٨٣ ، ٦٨٤) .

للمنافسة في ذلك : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾[1] ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾[2] . والمفاضلة بين الرجل عامة والمرأة عامة لم يطرحها الإسلام قضية تُدرس وتثار . ولكن جعل للرجل مَهمّة ودوراً في الحياة لاغناء عنه ، وللمرأة مهمةً ودوراً لاغناء عنه كذلك ، وجعل الدورين مترابطين متناسقين ، حتى تمضي الحياة الدنيا بهما معاً على درب واحد . والفضل كل الفضل بمقدار وفاء كل منهما بعهده مع الله ، وأمانته والتزام منهاج الله ، لافي أي شيء آخر ، على أن يعرف كل منهما دوره الحقيقي ومكانه الحق ومهمته ، فلا يتشبه الرجال بالنّساء ، ولا تتشبَّه النساء بالرجال ، ولعن الله هذا وتلك حين يتشبَّه أحدهما بالآخر فتختلط الحدود ، وتضطرب المهمات ، ويعتدي الرجل فيزل ويعصي ، وتعتدي المرأة فتزل وتعصي . إن المفاضلة هي في ميدان التقوى والإيمان لافي ميدان مساواة المرأة بالرجل كما يدّعي بعضهم اليوم ، ولابمساواة الرجل بالمرأة ، إلا في نطاق الإيمان والإسلام وماشرع الله لهما من مسئوليات مشتركة .

نعم ! ﴿ بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم ... ﴾ !

فلقد فضل الله الرجل على المرأة بمسئوليات ، وفضل المرأة على الرجل بمسئوليات . فلقد جعل الله بحكمته ، على ضوء ماخلق، مسئولية للرجل ومسئولية للمرأة . فهناك فروق في الخلق والأعضاء ، وهناك تشابه وتماثل . وهناك فروق في القدرات وهناك تماثل . ونتج عن ذلك تفاوت في المسئوليات والواجبات في الحياة الدنيا ، كل على قدر وسعه وعلى قدر ما هيّأ له الله من قدرات ، مما لا مجال هنا لتفصيله ، ففي منهاج الله تفصيل واسع .

فالمرأة هي التي تحمل وتلد . فلها فضل عظيم بذلك . فلا يستطيع الرجل أن يقوم بدور المرأة ولا المرأة بدور الرجل . وهذه وحدها آية عظيمة من آيات الله ، ولهما ميادين مشتركة ، ولهما ميادين خاصة بكل منهما .

وجعل الله مسئولية الإنفاق على البيت مسئولية الرجل أولاً فهو المكلّف بالسعي في طلب الرزق خارج البيت ، والمرأة مكلفة شرعاً بأمر الله برعاية البيت وتعهد الأبناء .

---

(١)(الصافات : ٦١).
(٢) (المطففين : ٢٦).

ولكن الإسلام لايمنع المرأة من مساعدة الرجل في مسئولياته ، ولايمنع الرجل من مساعدة المرأة في مسئولياتها دون أن تسقط المسئولية عن أحدهما ، ودون أن تختلط الحدود وتضطرب ، ودون أن يقصّر أحدهما بمسئوليته والوفاء بها . ويتم التعاون بين الرجل والمرأة من خلال الإيمان والتوحيد والخضوع لمنهاج الله ، ومن خلال السكن والمودة والرحمة .

هذا أمر الله وهذا تشريعه ، يتلقاه المؤمن والمؤمنة بالاستجابة والسمع والطاعة والرضى . ولكن الحضارة المادية تخالف في ذلك ، وينهض شياطينها لينشروا فتنتهم وليصدّوا عن سبيل الله وليزّينوا للناس ضلالهم ، وليدعوا إلى المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة ، وليطلقوا الحرّية المتفلّتة والفسق والفجور ، باسم الحرية ، وحقوق الإنسان ، والمساواة ، في صورة جريمة واسعة . ترتكبها هذه الحضارة المادية بحق الإنسان والبشرية كلها على مدى التاريخ . ولايقف أمامها إلا رسالة الأنبياء والمرسلين الذين ختموا بمحمد ﷺ ومنهاجه الرباني مهيمناً على ماسبقه من الكتب المنزلة . وكذلك جنود الدعوة الإسلامية الذين يصدقون الله ورسوله ، ويحملون أمانة تبليغ رسالة الله إلى خلقه وعباده ، لينقذوهم من عبادة العباد والأصنام والأوثان إلى عبادة الله الذي لا إله إلاّ هو .

﴿ فالصالحات قانتات لله ﴾ ، ويحفظن حدودهن ويعرفن مسئولياتهن ويؤدينها عبادة وطاعة لله الذي أمر بذلك ذكراً أنزله على أنبيائه ورُسله .

وأما الناشزات اللواتي يخرجن عن حدود ماشرع الله لهن ، فأولئك يُدْعَين إلى العودة إلى الصراط المستقيم ومنهاج الله والدرب السوي . يُدعَينْ بالوعظ والتوجيه والكلمة الطيبة والحكمة . وإنها مسئولية كبيرة يتحملها الرجل ليختار أفضل الأساليب وأنجعها في وعظه . فإذا فشل الرجل في ذلك فقد جعل الله قبل الطلاق والفراق مراحل كل مرحلة هي عند المرأة الصالحة أهون بكثير من الطلاق والفراق . الهجر في المضاجع أولاً ، وهو الهجر في البيت كما سبق ذكره في الحديث الشريف . فإذا لم يجد هذا ، وهو غالباً

مـايجدي ، لجأ الـزوج إلى الضرب غير المبرح ، لايقـرب الـوجـه ، ولايُقبّح . إنها وسـائل للعـلاج وإصلاح أمـر الأسرة والبيت . إنـه تشريع من عنـد الله الذي خلق الـرجل والمرأة وهو أعلم بما يصلح لهما . وهذا التشريع لاتظهـر ثماره إلا حين تكون الأُسرة قد بُنيت منذ الأساس على شرع الله والتزام الرجل والمرأة له فهذا هو أساس عقد الزواج .

إنها آيـات بينات يُشرِّع الله فيهـا لعباده مـايصلح لهم دنياهم وينجيهم في آخـرتهم . ويمضي التشريع الـرباني ليفصّل في ذلك كلـه مما لامجال لعـرضه هنـا ، ومما هـو ضروري للمسلم أن يتلقّاه من منهاج الله إيماناً وعلماً وتطبيقاً .

لايوجـد في الإسلام إنسان دون مسئـولية وتكاليف محدّدة شرعهـا الله لعباده كلهم : رجلاً أو امرأة ، فتى أو كهلاً أو عجوزاً ، حرّاً أو عبـداً . وجاءت هذه التكاليف من عند الله الـــذي خلق كل شيء ، الـــذي هـو أعلم بخلقـــه ووسعهم ، ومـــايجب عليهم من تكاليف ، كلها تخضع لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لايكلف الله نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لايظلمون ﴾

[المؤمنون : ٦٢]

ويشير الرسول ﷺ إلى هذه المسئوليات والتكاليف بحديثه الشريف :

عن عبـدالله بن عمـر عن الـرسـول ﷺ أنـه قـال : « **كلكم راع وكلكم مسئـول عن رعيته ، فالإمـام راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ في أهله وهـو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعيـة في بيت زوجهـا وهي مسئـولـة عن رعيّتها ، والخادم راعٍ في مـال سيـده وهـو مسئول عن رعيته ، والـرجل راع في مال أبيـه وهو مسئول عـن رعيته ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته** » [رواه أحمد والشيخان وأبوداود والترمذي][1]

هكذا تتحدّد المسئوليات ، ثم يأتي تفصيل كل مسئولية في منهاج الله تفصيلا وافياً . وتتحدّد المسئـوليات وتأتي تفصيـلاتها على أساس خصـائص كل إنسان ، رجـلاً كان أم

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (رقم : ٤٥٦٩) .

امرأة ،على أساس الخصائص التي خلقه الله عليها ، ليؤدّي كلٌّ دوره وأمانته . فليس في بيان الخصائص وتحديد المسئوليات إنقاص من قدر هذا أو ذاك ، ولكنه الشرف كل الشرف أن يعرف كل إنسان حدوده وخصائصه ووسعه ، وأن يعرف مسئولياته التي كلّفه الله بها ، ثم ينهض ليؤديها بأمانة ووفاء . فبهذا الوفاء يأخذ كل من الرجل والمرأة منزلته ومكانته ، وينال من الشرف والتكريم ماهو أهل له .

٣ - مع الحديث الشريف : « يامعشر النساء» :

هذا العرض الموجز الذي عرضناه كان تمهيداً لفهم الحديث الشريف موضع البحث. ونؤمن أن هذا التمهيد هامٌ وضروري لأنه يفيد في فهم آيات وأحاديث أخرى .

وأهمية هذا التمهيد في نظرنا ، نودّ أن نوجزه في نقاط محددة على النحو التالي :

١ - ضرورة التحرّر من سلطان الحضارة المادية الغربية أو الشرقية ، مما تلبسه علينا من فكر ضال ، وما تزينه من فتنة وهوى وفيما يتعلق في موضوعنا ، نرى ضرورة التحرّر من فلسفة تلك الحضارة ونظرتها للمرأة ، لأنها تصادم نظرة الإسلام ونهجه الربّاني .

٢ - ضرورة دراسة الآيات والأحاديث التي تتعلق بالموضوع ذاته وربطه بها ، لتتكامل الصورة وتتناسق كما هي في منهاج الله ، لا أن نعزله عن ذلك كله ثم ندرسه مفصولاً مستقلاً .

٣ - نخرج من هاتين القاعدتين بأن الإسلام جعل للمرأة منزلة كريمة على ضوء خصائصها التي خلقها الله عليها ، ورعاها رعاية كريمة حانية : طفلة وزوجة وأُمّاً ورحماً موصولة . وجعل لها تكاليف ومسئوليات على ضوء ذلك ، تنال الشرف والكرامة بالوفاء بها .

٤ - ضرورة بيان الصورة المشرقة للحياة الزوجية وما فيها من نظام وتعاون وسكن ومودة ورحمة في ظلال الإيمان والتوحيد والتزام الرجل والمرأة سواء بسواء ، بمنهاج الله ، ليعرف كل مسئوليته وحدوده كما شرعها الله وفصّلها في منهاجه الرّباني .

٥ - ضرورة بيان أن الله ميّز الرجل عن المرأة والمرأة عن الرجل ، بخصائص وقدرات، مما نعلم ومما نجهل ، وأن الله حدّد دور كل منهما على ضوء تلك الخصائص ، وحدّد

المسئوليات والتكاليف ، لتتكامل هذه المسئوليات وتتناسق ويكمّل بعضها بعضاً، لا أن يصادمها .

٦ - إن تحديد هذه الخصائص والمسئوليات المترتبة عليها لا يُعتبر إنقاصاً لقدر الرجل أو المرأة . بل هو تكريم لكل منهما وبيان من عند الله للحق المطلق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه . ولكن الكرامة والشرف هو في وفاء كل منهما بعهده ومسئولياته.

٧ - يتلقى المؤمن والمؤمنة أمر الله ورسوله بالإيمان واليقين ، والعلم الأمين ، والرضى والاستجابة والسمع والطاعة ، على وعي وتدبّر حتى تتيسّر الاستجابة ، ويتيسّر السمع والطاعة ، لا ليدور الجدل وتُثار الشبهات .

بعد هذا التمهيد وهذا الموجز نستطيع الآن أن نتدبر الحديث الشريف . وهو حديث صحيح لامجال للطعن فيه ولا للشك ، ولا للجدل وإثارة الشبهات .

الحديث يتبدىء بالتوجيه ومخاطبة النساء : « **يامعشرالنساء تصدّقن وأكثرن الإستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار** . . . » إنه نداء وتوجيه ونصح وإنذار . ولكنه حق مطلق . الحديث خطاب أولاً للنساء المؤمنات زمن النبوّة الخاتمة ، ثم هو خطاب للنساء المسلمات إلى آخر الزمان ، ثم هو خطاب ونذير للنساء عامة .

إن الحديث الشريف يذكّر النساء على مدى الدهر بحقيقة كبيرة وهي النار . ويدعوهن لبذل الجهد للنجاة منها بالصدقة والاستغفار .

وإذا كان الحديث ينصّ على أن النساء أكثر أهل النار يوم القيامة ، فهذا حق لامجال للشك فيه ، ولكنه في الوقت نفسه لاينقص من قدر المرأة المؤمنة التقية . وأهل النار يوم القيامة فئتان : فئة كافرة ملحدة مشركة أو منافقة ، وفئة مسلمة . فالأولى خالدة في النار والثانية يخرج منها من تناله رحمة الله وعفوه .

فحين يوحي الله إلى عبده ورسوله ﷺ ، ويطلعه على مايشاء من غيبه ليبلغنا إياه ، فيريه النار أو بعضها فيصفها لنا رسول الله ﷺ ، فإن الرسول يصف عندئذ الوصف الحق . ولكن علينا أن نعي هذا الوصف ونتدبره بها لايناقض ماسبق أن عرضناه من

تكريم الإسلام للمرأة ومن منزلتها ومسئولياتها .

فإذا قـال رسـول الله ﷺ إن أكثـر أهل النـار من النسـاء ، فهـذا حق ! ولكن أيّ النساء؟! فلا يعقل أن يكنّ المسلمات المؤمنات ، فذلك تنـاقض واضح مع ماسبق عرضه من سـورة الأحزاب : ﴿ أعد الله لهم مغفـرة وأجراً عظيماً ﴾ إنـه معنى فاسـد مخالف لنصـوص القـرآن والسنة أن تكـون النسـاء المسلمات من أكثـر أهل النار . أمـا أن يكـون جنس النساء من الكـافرات والمشركات والمنـافقات هـو أكثر أهل النار فهـذه هي الحقيقة التي كشف لنا عنهـا حديث رسـول الله ﷺ هذا .إنّه من علم الغيـب لايستطيع أحد من البشر أن يعرفه إلا من ربّ الغيب والمشهد ، الله الذي لا إله إلا هو !

إنه نبأ من الغيب لانملك الا أن نتـدبّره ونعيـه لنستعين به في واقعنا اليـوم ، لنستفيد على أساس من منهاج الله بدور الرجل ودور المرأة حق الاستفادة .

ووجّه الرسول ﷺ الخطـاب في هذا الحديث الشريف للنساء وخصّهن وحدهن دون الرجال . ولكن الأمر بـالصدقة والاستغفار والتوبة جاء إلى الـرجال في أكثر من حديث ، وجاء عاماً في أحاديث أُخرى . وهو شرف للمرأة المؤمنة أن يخصّها الرسول ﷺ بالتوجيه !

فـالـرجل مطـالب بـالصـدقة كما أن المرأة مطـالبـة بها ، و كـذلك الـرجل مطـالب بالاستغفار ، والمؤمنون كلهم مطالبون بهذا وذاك .

فأين التحقير للمـرأة في ذلك ؟! وأين الإنقـاص من قـدرها ومنـزلتهـا بعـدما رأينـا التكريم الجميل لها في الإسـلام ؟! للمرأة المؤمنة منـزلتها المصونـة وكرامتها مـادامت وفيّة لعهدها ، قائمة بمسئوليـاتها الخاصة بها ودورها الخاص بها ، من خلال التناسق والترابط بين دور المرأة ودور الرجل على أساس من الإيمان والتوحيد ، وعلى أساس من منهاج الله .

ونرى ، خلافاً لما يراه الكثيرون ، أن تخصيص النساء بهذا التـوجيه النبوي هو تكريم للمرأة . وحين يخصّ الرسول ﷺ الرجال بالموعظة والتـوجيه هو تكريم للرجال ، وتكريم لـلإنسان عـامـة ، وفضل من الله عظيم . ولايكون في مـوعظـة النبوة تحقير لأحـد لا من الـرجال ولا من النسـاء ، وإنما يكون التحقير بهبـوط الإنسـان بعمله وسعيـه . ومن حق النبـوة أن تنصح ، والرسـول محمـد ﷺ ينصح الرجـال والنسـاء . فلا مجال إذن لإثـارة

الشبهة حين وجه خطابه في هذه الكلمات للنساء ، كما وجّه قبل ذلك وبعده خطابه للرجال والنساء وللمؤمنين وللنساء عامة ، وخصّص وعمّم .

وكأن الرسول خاطب النساء المؤمنات أولاً فقال : « **تصدّقن وأكثرن الاستغفار .** » فهذا خطاب خاص بالمسلمات المؤمنات القانتات . ثم قال : «**فإني رأيتكنّ . .** » فلا تعني هذه الكلمة أن المسلمات الحاضرات في المسجد هنّ وحدهنّ المعنيّات بالحديث . ولا تعني كذلك أن المسلمات عامة هن وحدهن المعنيات . وإنما المعنى الذي يتناسق مع القواعد التي سبق ذكرها هو : فإني رأيت أكثر أهل النار من جنسكنّ ، من النساء عامة . كما ذكرنا قبل قليل .

فليطمئن النساء المؤمنات القانتات إلى أن الحديث يعظهنّ بالصدقة والاستغفار دون أن ينقص من قدرهن . وقد وعظ الرجال والمؤمنين عامة في هذين الأمرين في أكثر من نصّ وأكثر من موقف . فهذه الموعظة ، ولو أنها جاءت خاصة بالنساء ، إلا أنها عامة للمؤمنين رجالاً ونساء .

وما جاء التخصيص للتحقير أو إنقاص المنزلة ، ولكنها النبوة الحانية أكرمت النسَاء في هذا الموقف فخصتهنّ بالموعظة .

ويذكر الحديث الشريف بعد ذلك أهم سببين يُدخلان النساء إلى النار . السبب الأول كثرة اللعن ، والثاني إنكار الزوجة فضل زوجها عليها . وهذه صفات خاصة بالنساء عامة ، وبالمشركات والمنافقات خاصّة . إنه طبع من طباع النساء يعالجه الإيمان والتوحيد ، وذكر الله وتلاوة القرآن ، حتى يخفّ كثيراً في النساء المؤمنات القانتات الذاكرات الله كثيراً ، أو يزول .

لانستطيع إلا أن نُقِرّ ، كما جاء في هذا الحديث الشريف ، أن اللعن وإنكار فضل الزوج طبع في النساء . ولكننا لانفهم من الحديث أنه طبع خاص بالمسلمات . فالله يُذهب عن المسلمات المؤمنات كثيراً من الطباع السيئة ، كما يُذهب عن الرجال المؤمنين مثلها . وإن كانت هذه صفة سيئة غالبة على النساء ، فهناك صفات سيئة مقابلها غالبة على الرجال . ولكن الرسول ﷺ أكرم النساء بتخصيص الموعظة لهنّ هنا ، دون أن يعني

أن الرجال خالون من طباع سيئة يعالجها الإسلام كذلك .

فهذه موعظة من النبوة الخاتمة ، تتلقاها النساء المؤمنات برضى واستجابة لينتهين عن اللعن وإنكار حق الزوج وفضله وليميّزن بذلك عن سائر النسَاء ، وليقمن بدورهن ومسئولياتهن بأمانة ووفاء . ثم يمضي الحديث الشريف ليقرّر حقائق ثابتة في القرآن والسنة ، فيقول : «**مارأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لبّ منكنّ . .** » وهنا يثير أهل الفتنة الشبهات ويدورون بالجدل حول نقص العقل والدين .

والذي نفهمه من منهاج الله أنه لايوجد في البشر عقل مطلق كامل لايخطىء أبداً ، ولايزلّ ، والآيات والأحاديث على ذلك كثيرة جداً ، فالله سبحانه وتعالى وصف الإنسان وصفاً دقيقاً وبيّن لنا خصائصه ونواحي الضعف ، وما غرس الله فيه من ميول وغرائز وشهوات . وبين لنا الله سبحانه وتعالى الخصائص العامة في الرجل والمرأة . ونكتفي هنا بالإشارة وقبسات قليلة :

﴿ **يريد الله أن يخفف عنكم وخُلق الإنسان ضعيفاً** ﴾ [النساء : ٢٨]

وعن أنس رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال : « **كلّ بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون** » [رواه الترمذي وأحمد والحاكم] (١)

فالنسيان والخطأ والميل إلى الظن من خصائص الإنسان . وعلم الإنسان محدود ، ولكل إنسان شيطان ، وقد يغلبه هواه وشهواته ومصالحه ، وقدرات الإنسان كلها محدودة مهما قويت في ظاهرها ، وعقل الإنسان محدود مكلف بأمور محدودة إذا تجاوزها هلك . وفتح الله له آفاقاً في السموات والأرض ، وأغلق دونه الغيب إلا ماعلّمه لأنبيائه ورسله ليبلغوه عباده وخلقه . وتتوالى الآيات والأحاديث لتفصّل في نواحي ضعف الإنسان وأهوائه وشهواته وقدراته المحدودة . (٢)

نخلص من ذلك كله إلى أن نقص العقل والدين ليس صفة خاصة بالنساء وحدهن

(١) الفتح الرباني في ترتيب مسند الامام أحمد : ج : ١٩ ، ص : ٣٣٧ ، حديث : ١٣ .
(٢) يراجع كتاب : « الشورى وممارستها الإيمانية » للمؤلف ، ط :(٣) الباب الرابع – باب الاختلاف لأخذ تفصيلات أوسع عن طبيعة الإنسان عامة كما يصفها منهاج الله ، وعن خصائص التشابه وخصائص الاختلاف .

إنها صفة بشرية عامة في الرجال والنساء ، يثبت ذلك الآيات والأحاديث .

وحتى نطمئن إلى ذلك أكثر ، فلا بد أن يكون لدينا تصور واضح لكلمة «العقل» ماهو العقل في التصور الإيماني ؟! وأين مكانه وموضعه في جسم الإنسان ؟!

يعتبر بعضهم أن الدماغ هو مركز العقل . فيقيسون العقل حيناً بحجم الدماغ وحيناً بوزنه وحيناً آخر بتركيبه ، أو بتركيب الرأس . وتدور هذه الدراسات في معظمها وهي تعزل الدماغ عن جسم الإنسان ، ولاترى له رابطة تربطه بها إلا رابطة مادية . ويدور حول ذلك دراسات وأبحاث ، ومعايير للذكاء والفطنة وغير ذلك .

لانمانع في هذه الدراسات والأبحاث ، ولانمانع في أن تمضي في الطب وغيره من العلوم . ولكنّ الذي نرفضه أن تكون النتائج الظاهرية موضع تقديس وإجلال ، يريد به بعضُهم أن يخضع القرآن والسنة لها ، وأن تُلوى الآيات لتناسب مايصل إليه البشر مما يسمونه حقائق علمية ، ولو ناقضت نصّاً واضحاً صريحاً في منهاج الله .

وترد الآيات الكريمة وهي تستخدم كلمة « القلب والقلوب » ، «واللب والألباب» « لتبيّن هذه الآيات الكريمة لنا أن القدرة على الفهم والوعي والتفكر والتدبر مرتبطة بالقلب . وأيّ قلب ؟ إنه القلب الذي في الصدور . !

ماهو العقل ؟! العقل ليس جسماً مادّياً ولا عضواً محدّداً في جسم الإنسان . العقل طاقة من طاقات الإنسان . إنه طاقة التفكر والتدبر ، تعمل قوى مختلفة وأجهزة متعددة في جسم الإنسان ، مما نعلم ومما نجهل ، لتؤمن هذه الطاقة فيه ، في الإنسان ، ولتؤمّن دورها وتناسقها مع سائر الطاقات التي وضعها في الإنسان ، في كيانه وفطرته وروحه [(١)] فربما عمل الدماغ والجهاز العصبي والقلب وغير ذلك ، والله وحده أعلم بما خلق ، ربما عملت هذه معاً لتوفر هذه الطاقة ، وعملت أجهزة أُخرى معها . وتشير الآيات والأحاديث إلى هذه الطاقة بتعبيرات مختلفة ، وتربطها بقوى أُخرى . فحينا يسميها القرآن الكريم « الحكمة » ، وحينا « الفقه » ، ويربطها حينا بالسمع ، وحينا آخر بالسمع والبصر والأفئدة ، ويظل ذلك كله يدور حول القلب واللب ويرتبط به .

(١) يراجع كتاب النيّة في الإسلام وبعدها الإنساني ، للمؤلف ، ط(١) (ص : ٥٤-٦٤) لتفصيل أوسع .

وجاء دور « العقل » في الإنسان ، دور هذه الطاقة ، محدوداً كسائر طاقات الإنسان ، لكل طاقة حدود لايملك الإنسان تجاوزها ، فإذا تجاوز العقل حدوده اضطرب وهلك .[1]

فالعقل إذن محدود ، وله دور محدود ، وطاقات الإنسان كلها محدودة ، وطبيعة الإنسان الخطأ والنسيان ، وفيه غرائز وميول وشهوات ، وغير ذلك مما يشير إلى أن نقص العقل صفة بشرية عامة في الرجال والنسَاء . وعلى أساس هذا الضعف أو النقص جاءت التكاليف الربانية .

فنقص العقل ، كما هو وارد في الحديث ، لا يعني ذلك النقص الذي يورث الجنون ويسقط التكاليف . إنه إشارة الى طبيعة ثابتة في الإنسان أشارت لها الآيات والأحاديث في غير موضع ، وبنى عليها الإسلام قواعد النصح والتوجيه للرجل والمرأة . وإنما أكرم رسول الله ﷺ النساء بهذا الحديث الشريف حين خصّهن بالنصيحة والرعاية والتوجيه ، كما خصّ الرجال في مواقف أخرى ، وجمع بين الرجال والنساء في مواقف أخرى أيضاً وبيّن الرسول ﷺ بهذا الصدد صفة من صفات نقص العقل خاصة بالنساء ، ذلك بأن شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد . فهذه حقيقة ربانيّة ، ثابتة ، تمثل حقّاً مطلقاً لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه . ولا يضرّنا أن الحضارة المادية في الأرض لاتقبل بهذه الحقائق الربانية ، فذلك شأنها . أما نحن فنقرُّ بها على رضى ويقين .

ولانجد في هذه الحقيقة المقرّرة في القرآن والسنة مايجرح كرامة المرأة أو يحقّرها أو ينقص من منزلتها التي أكرمها الله بها . فهذا النقص ليس خطأ ترتكبه المرأة فتحاسب عليه ، أو هي مسئولة عنه . ولكن الله الذي خلقها والذي هو وحده يعلم كل خصائصها حدّد منزلتها الكريمة كما سبق عرضه ، وحدّد مسئولياتها ودورها في حياة الإنسان تحديداً كريماً ، يحقّ للمرأة أن تحمد الله على فضله عليها ، وعلى ماأنقذها به من فتنة الجاهلية والحضارة المادية .

وإذا كان بعضهم يريد أن يستغل هذا النصّ لينزل المرأة عن منزلتها أو ليثير شبهات المفاضلة بينها وبين الرجل ، فقد فصّل الله سبحانه وتعالى في ذلك ، وجعل للرجل

---

(١) يراجع كتاب « التوحيد وواقعنا المعاصر » ، للمؤلف ، ط (٢) - الباب الثالث ، الفصل الثاني ، (ص: ٢٠٣- ٢٢٤) لتفصيل أوسع عن دور العقل وحدوده وموقفه من نبأ الغيب ، ومسئولية الانسان .

مسئولية وللمرأة مسئولية ، تتناسق هذه وتلك في سعي دائب لنصرة دين الله وإعزاز كلمته ، كما سبق أن أشرنا إليه .

ونقصان العقل ، بمعنى أنه ليس عقلاً كاملاً مطلق الكمال ، فهو إما أن يكون في أمر لايتبعه حساب ولاعقاب ، كما جاء في أمر النساء أعلاه ، وإما أن يكون في أمر يترتب عليه حساب ومغفرة أو عقاب . فالآثام والمعاصي ، والزلل والأخطاء مَثَلٌ على هذا النوع الثاني الذي يشترك فيه الرجل والمرأة . وهذا النوع من النقص هو الذي ينزل الرجل والمرأة عن منزلتيهما ، ويسبب الحرج والتحقير . أما الأول فلا تحقير معه ولاإنقاص لقدر المرأة. فليطمئنّ النساء إلى أنه كلما التزمن منهاج الله وتمسكن به ، زادت درجتهن عند الله وعند الناس .

أَما نقصان الدين فهو كذلك على نوعين . إما نقص نتج عن مخالفة أو زلل أو معصية ، فهذا نقص في الدين يُنزِل الإنسان عن منزلته السابقة ، سواء أكان رجلاً أم أمرأة ويترتب عليه مسئولية وحساب ، ثم عقاب أو مغفرة من الله ، ونوع آخر من نقصان الدين شأنه شأن نقصان العقل الذي عرضناه قبل قليل ، نقص يمثّل حقيقة ربّانية ، لاعيب فيها ولاتحقير ولاإنقاص لحق أو منزلة ، ولايترتب عليه مؤاخذة من الله أو من الناس ، ولاهو أمر تعاب به المرأة ولاتُحقَّر به ، وتظل منزلتها الكريمة في الإسلام مصونة .

وهذا النقص لايعتبره عيباً أو تحقيراً أو إنقاصاً لمنزلة المرأة إلا الجاهلون . أوليس أمهات المؤمنين ، وخير نساء العالمين الأربع ، فيهن ماسمّاه رسول الله ﷺ نقصان دين ؟!

فكلمة نقصان هنا لاتعني التحقير ولكن تعني تقرير حقيقة ربانية ثابتة . وهذا النقص من خلاله تؤدي المرأة مسئوليتها في الحياة الدنيا من ولادة ورعاية وحنان . فإذا أثار بعضهم الشبهة على منزلة المرأة من ذلك ، فلماذا لم يرفعوا من منزلتها بما تتحمل من شؤون الحمل والولادة والرضاع ، والتربية والتعهد وغير ذلك ؟

وإذا كانت هذه المظاهر نقصاً في العقل ونقصاً في الدين ، كما ورد في الحديث ، فإن الحديث نفسه أشار إلى نقص في عقل الرجل ودينه يؤاخذ عليه ويحاسب به ، ويُنقص من قدره ومنزلته : « . . . مارأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لبّ منكنّ . . »

فبالرغم من هذا النقص تستطيع النساء بما جعل الله لهنّ من قدرات أُخرى أن يغلبن الرجال ويذهبن بألبابهم . وكم اعترف الرجال بهذه الحقيقة عبر التاريخ . وحين يُغلب الرجل على عقله ولبه من امرأة فإنه يفقد شيئاً من منزلته ويؤاخذ على ذلك ويحاسب عليه ، لأن الغلبة هنا تعني تقصيراً في الوفاء ببعض المسئوليات والتكاليف .

نخلص من ذلك بنتيجة واضحة هي أن الحديث لم ينقص من قدر المرأة ومنزلتها وكرامتها ، ودورها المهم في الحياة ، وإنما أشار إلى طبيعة عامة في الرجال والنساء ، هي عدم كمال العقل أو الدين ، فمن ذا الذي ماساء قط ؟! وأشار من خلال ذلك إلى ناحية من هذا النقص خاصة بالنساء ، لايترتب عليها مسئولية ولاحساب ، وربما كان لبعض ذلك أجر عند الله وثواب ، والمرأة غير مؤاخذة بذلك ولاهي معاقبة عليه .

إن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان ، رجلاً أو إمرأة ، كاملاً لانقص فيه أبداً :

﴿ .. وخلق الإنسان ضعيفا .. ﴾ [النساء : ٢٨]

وقال ﷺ : « كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون »

[رواه أحمد والترمذي والحاكم][1]

وقال ﷺ : «كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أُمه إلا مريم وابنها»

[رواه مسلم][2]

وقال ﷺ : « لكل ابن آدم حظّه من الزنا . فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والأذنان زناهما الاستماع ، واليدان يزنيان فزناهما البطش ، والرجلان يزنيان ، فزناهما المشي ، والفم يزني وزناه القُبل » [رواه أبو داود][3]

وقال ﷺ : « كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت فمرّت بالمجلس فهي زانية »

[رواه أحمد والترمذي][4]

﴿... وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً . ﴾ [الكهف : ٥٤]

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته - ط ٣ - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م - حديث رقم (٤٣٩١).
(٢) المرجع السابق : حديث رقم (٤٣٩٣).
(٣) المرجع السابق : حديث (٥٠٧٣).
(٤) المرجع السابق : حديث رقم (٤٤١٦).

﴿... وأحْضِرت الأنفُس الشّح...﴾ [النساء : ١٢٨]

وتتوالى الآيات والأحاديث لتكشف لنا عن نواحي ضعف الإنسان ، مما يشير إلى أن قدرة الإنسان العقلية ليست على الصورة الكاملة التي لاتخطىء ولاتقصّر في الوفاء بمسئولياتها ، ولكن الخطأ والنسيان والهوى مظاهر نقص في الإنسان ، في الرجل والمرأة . إنها طبيعة بشرية في الرجال والنساء .

ولتيسير الأمر نقسم هذا النقص إلى قسمين : قسم أراده الله ليكون ثابتاً في البناء والتركيب ، لاذنب للإنسان فيه ، ولاهو مؤاخذ عليه ، فلا ينقص قدره ولاينزل به عن منزلته . وقسم جعله الله موضع ابتلاء وتمحيص ، يؤاخذ الإنسان بالتقصير والإثم والمعصية ويبتلى بذلك ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء . وهذا النقص هو الذي يسيء للرجل والمرأة ، وينقص قدر كل منهما على قدر مايأتيان منه .

ومن خلال هذا التركيب للإنسان بنواحي ضعفه أو قوته ، بأهوائه وشهواته وعقله ، بإيمانه وتقواه وهداه ، بكل ماخلقه الله عليه ، كان الخلق متقناً ، على حكمة ربانية . فلا نعيب على خلق الله ، ولكننا نعيب على الإنسان فيما زلّ وأخطأ وعصى وأثم ، فيما يتحمل هو مسئوليته كما مضى قضاء الله وقدره على ذلك : والله قد أحسن كل شيء خلقه :

﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم * الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ [السجدة : ٦ , ٧]

إن الله قد أحسن خلق الإنسان رجلاً أو امرأة ، ولايسقط الرجل ولا المرأة إلا بالنية الفاسدة والعمل الفاسد :

﴿ والتين والزيتون وطور سينين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذّبك بعد بالدين* أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾

[التين : ١-٨]

إن هذه القضية خطيرة لأنها تمسُّ واقعنـا اليوم . إننا نريـد أن تطمئن المرأة المسلمة إلى أن كرامتهـا وشرفها ومنزلتهـا ، كل ذلك مصون في الإسـلام ، وأن لها دوراً عظيماً في الحياة الدنيا من خلال الترابط والتناسق مع الرجل . وبهذا نجاتها في الدنيا والآخرة .

أمـا في الحضـارة المادية فـالمرأة في حقيقتهـا مسحـوقة مهما نـالت من الشهـادات أو احتلت من المراكـز ، وهي فـاقدة إيمانها وغير ملتـزمـة بمنهاج الله ، وهنـا تهلك المرأة في الدنيا والآخرة .

إن هذه القضية مهمـة وخطيرة لأنها تساعدنا على فهم خصـائص الرجل وخصائص المرأة ، وخصائص الطفل والفتى ، الخصائص التـي خلقهم الله عليها ، دون أن نجعلها مسوّغـاً لأن نعيب على المرأة أو على الرجل بهذه الخصـائص . ولكن فهمنا لها مـن خلال منهاج الله ، وعلى صـورتها المتكاملة ، تعيننا على وضع أفضل المنـاهج وأعدلها ، وأسلم الخُطط وأدقهـا : للدعـوة إلى الله ورسولـه للإيمان والتـوحيد ، وللبنـاء والتعهد والتربيـة ، ولبناء الأجيال المؤمنـة المتواصلة مع الزمن ، ولسلامة الجهـاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليـا ، ولبناء حضـارة الإيمان في الأرض ، وللوفاء مـن خلال هذا كلـه بعهدنـا مع الله، وبالأمانة التي نحملها ، والعبادة التي خلقنا لها ، والخلافة التي جُعلت للإنسان ، ولعمارة الأرض بالايمان والتوحيد . إنها مسئولية كبيرة وخطيرة لايمكن للرجل أن يحققها في واقع الحياة ولاأن يفي بها وحده دون المرأة ولا المرأة دون الرجل .

إنها أمـانة يمكن الـوفاء بها حين يتكـامل دور الـرجل ودور المرأة من خلال منهـاج الله، ومن خـلالـه فقط ، ويتناسقـان في إيمان وتـوحيـد ، وخشوع وإنـابـة ، وعلم حق بمنهاج الله .

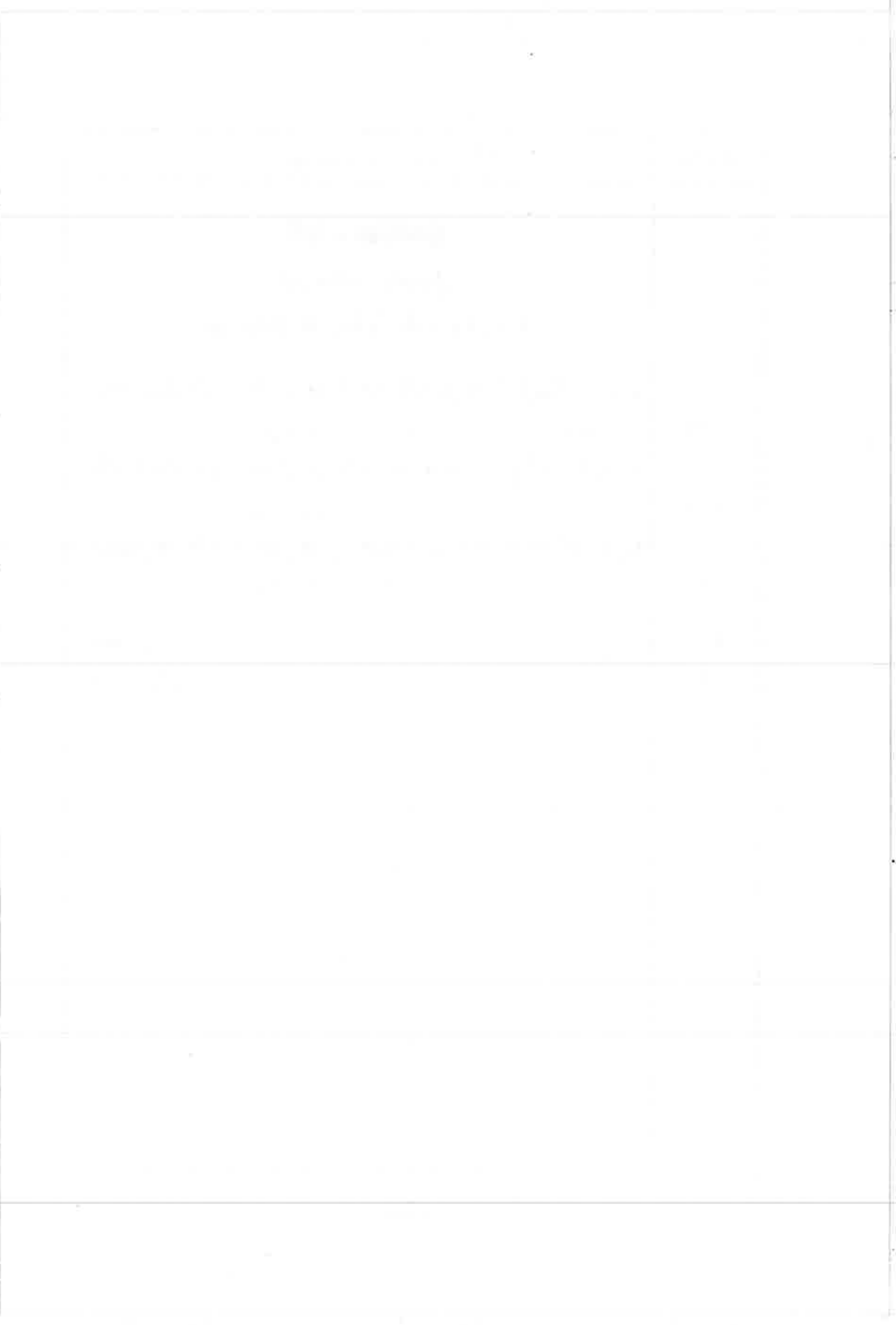
وإذا كانت الحضارة المادية فتحت أبواب العلـوم المختلفة للمرأة كما فتحتها للرجل ، فالإسـلام يفتح أبواب العلم هـذه مترابطة بجميع قواعـد الإيمان والتوحيـد ومنهاج الله . وعلى ذلك فـلا نرى أن نقص العقل الـذي أشـار إليه الحديث الشريف يمس قـدرة المرأة على التعلّم . فقد حـدّد الحديث الشريف معنى النقص الذي يعنيه بنقطة واحـدة ، فلا

حقّ لنـا بتجاوزهـا . وحين يفتح الإسلام بـاب العلم للرجل والمرأة فـذلك حتى يستطيع كل منهما الوفاء بعهده مع الله ، وبالأمانة التي خُلِق لها ، والمهمّة والدور المنوط به .

إن هذا الحديث الشريف ، وما عرضناه من شرحـه وفهمه مثل على القواعد الأساسية التي عـرضناهـا في الفصول الأولى من هـذا الكتاب لتدبّـر منهاج الله ، وكيـف أن صفاء الإيمان والتوحيد ، واللغـة العربية يساعدان على فهم منهـاج الله . وكذلك كيف أن القرآن يفسّر القرآن ، والسنّة تفسّر القرآن ، والقرآن والسنّة يعين كل منهما على فهم الآخر.

فهرس
كتاب قبسات من الكتاب والسنّة - تدبُّر وظلال

الموضـــــــــوع	رقم الصفحة
الباب الخامس	
مع النفس والعقل	
بين آيات كريمة وأحاديث شريفة	



كتب للمؤلف

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
أولاً : كتب توجز النهج العام والنظرية العامة للدعوة الإسلامية :		
١	موجز النهج العام للدعوة الإسلامية وأساس لقاء المؤمنين	ط ١
٢	أضواء على طريق النجاة	ط ٢
٣	النهج والممارسة الإيمانية في الدعوة الإسلامية	ط ٥
ثانياً : كتب تفصل النهج العام والنظرية العامة والمناهج :		
٤	دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية	ط ٦
٥	منهج المؤمن بين العلم والتطبيق	ط ٥
٦	النظرية العامة للدعوة الإسلامية - نهج الدعوة وخطة التربية والبناء	ط ٣
٧	منهج لقاء المؤمنين	ط ١
٨	لقاء المؤمنين - أسسه وقواعده - الجزء الأول	ط ٤
٩	لقاء المؤمنين - الجزء الثاني - الأهداف	ط ٤
١٠	العهد والبيعة وواقعنا المعاصر	ط ٤
١١	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال	ط٣
ثالثاً : كتب تعرض أهم قضايا التوحيد في واقعنا المعاصر والنهج والخطة للدعوة والبلاغ والبيان		
١٢	التوحيد وواقعنا المعاصر	ط ٣
١٣	الحقيقة الكبرى في الكون والحياة	ط ١
١٤	النية في الإسلام وبُعدها الإنساني	ط ٣
١٥	الولاء بين منهاج الله والواقع	ط ٢
١٦	الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام	ط ٣

الرقم	اســـم الكتـــاب	الطبعـة
١٧	الخشوع	ط٢
رابعاً : كتب تدرس بعض القضايا الفكرية في الواقع :		
١٨	الشورى وممارستها الإيمانية	ط ٣
١٩	الشورى لا الديمقراطية	ط ٤
٢٠	الصحوة الإسلامية إلى أين ؟	ط ٣
٢١	التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام	ط ١
٢٢	واقع المسلمين أمراض وعلاج	ط ٢
٢٣	بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية	ط ١
٢٤	المسلمون بين العَلمانية وحقوق الإنسان الوضعية .	ط١
خامساً : كتب تدرس بعض أحداث الواقع وقضاياه «وتدخل معها الملاحم»		
٢٥	على أبواب القدس	ط٢
٢٦	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع	ط ٤
٢٧	عبدالله عزام أحداث ومواقف	ط ١
سادساً : كتب تدرس الأدب الملتزم بالإسلام والنقد (النصح) الأدبي ، وترد على المذاهب الأخرى :		
٢٨	الأدب الإسلامي – إنسانيته وعالميته	ط ٣
٢٩	النقد الأدبي المعاصر بين الهدم والبناء	ط ١
٣٠	أدب الوصايا والمواعظ منزلته ونهجه – خصائصه الإيمانية والفنيّة	ط ١
٣١	الحداثة في منظور إيماني	ط ٤
٣٢	تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها	ط ٢
سابعاً : الدواوين الشعرية :		
٣٣	ديـوان الأرض المباركـة	ط ٦

الرقم	اســـم الكتـــاب	الطبعـة
٣٤	ديوان موكب النور	ط ٤
٣٥	ديوان جراح على الدرب	ط ٣
٣٦	ديوان مهرجان القصيد	ط ١
ثامناً : الملاحـــم الشـعريـة		
٣٧	ملحمة فلسطين	ط ٥
٣٨	ملحمة الأقصى	ط ٢
٣٩	ملحمة الجهاد الأفغاني	ط ٣
٤٠	ملحمة البوسنة والهرسك	ط ٢
٤١	ملحمة الإسلام في الهند	ط ٢
٤٢	ملحمة القسطنطينية	ط ٢
٤٣	ملحمة الغرباء	ط ٣
تاسعاً : كتب في الدعـوة الإسـلامية باللغـــة الانجليزيـة		
٤٤	خطة الداعية (The Caller's Plan)	ط ١
عاشراً : كتب ترجمت إلى لغات أخرى :		
٤٥	لقاء المؤمنين - الجزء الأول « باللغة التركية »	ط ١
٤٦	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع «باللغة التركية »	ط ١
٤٧	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع « باللغة الانجليزية »	ط ١
حادي عشر : كتب في علوم أخرى :		
٤٨	دراسة الموجات الإلكترومغناطيسية المتوسطة «بالانجليزية»	ط١

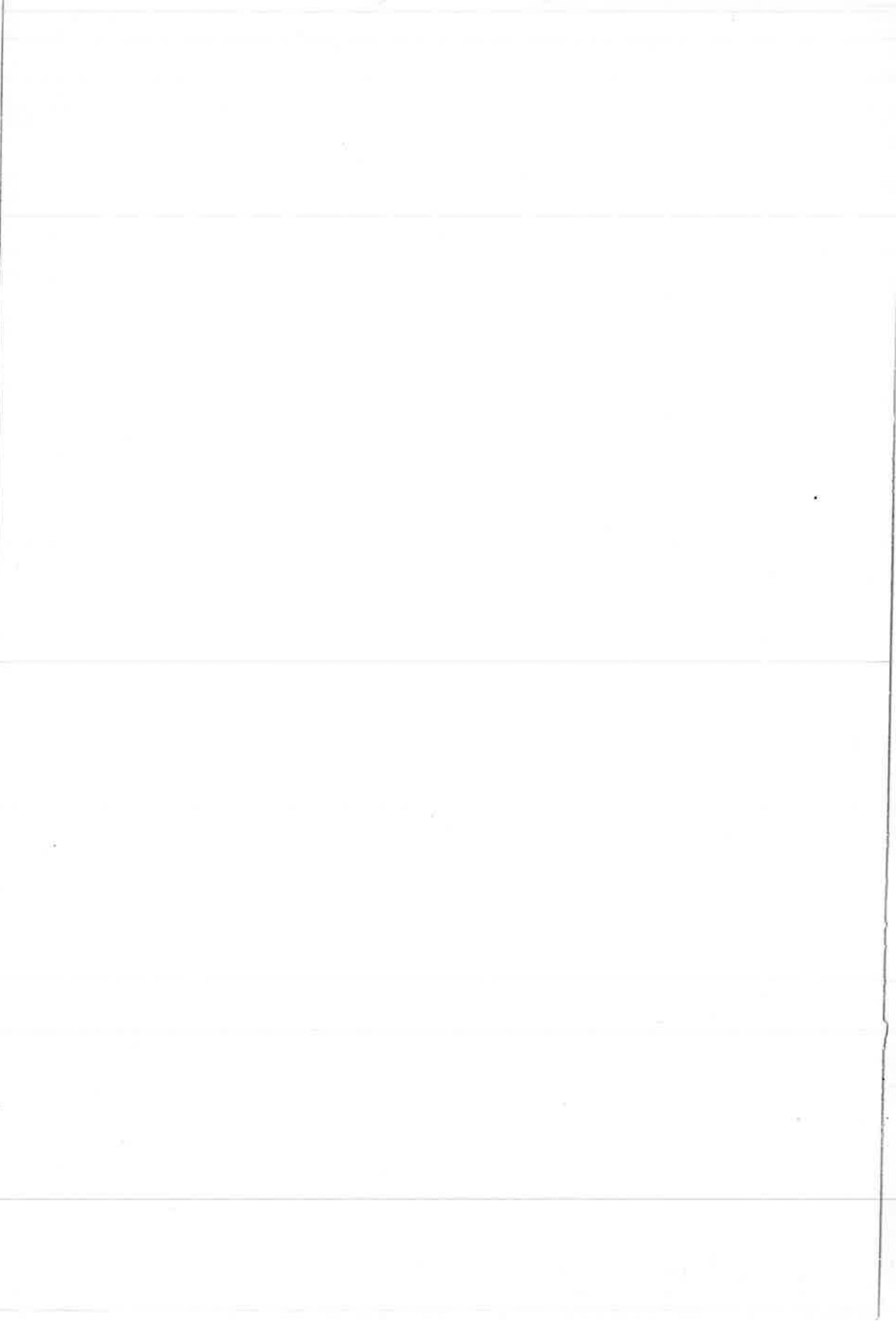


دار النحوي للنشر والتوزيع

هاتف وفاكس ٤٩٣٤٨٤٢ - ص.ب ١٨٩١ الرياض ١١٤٤١

المملكة العربية السعودية

مطابع الحميضي ت ٤٥٨١٠٠٠ - فاكس ٤٥٩٢٢١٧ - الرياض
AL-HOMAIDHI PRESS Tel. 4581000 Fax 4592217 Riyadh



مع هذا الكتاب

من خلال دراسة بعض الآيات والأحاديث في هذا الكتاب نودّ أن نؤكد أهمية تدبر منهاج الله في واقعنا اليوم بخاصة وفي العصور كلها بعامة، ليكون الهدفُ الرئيسُ مع التدّبر هو ممارسة منهاج الله في الواقع البشري ممارسة تقوم على صفاء الإيمان والتوحيد، وقوة العلم والتدبر، ووعي الواقع وفهمه من خلال منهاج الله. إنها حاجة ماسة لكل إنسان. وحسبنا بيانًا لذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ... **فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾ [ق : ٤٥].

ونودّ أن نؤكد من خلال تدّبر هذه الآيات والأحاديث أهمية دراسة اللغة العربية وإتقانها من ناحية، وأهمية الإيمان والتوحيد وصفائهما في قلب المؤمن، حتى تتفتح له المعاني: ﴿ **كتابٌ فُصِّلتْ آياتُه قرآنًا عربيًا** ... ﴾ [فصلت : ٣]. وكذلك ﴿ ... **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى** ... ﴾ [فصلت : ٤٤]. ونعتقد أن الإيمان واللغة العربية هما مفتاحا كتاب الله يهدي به الله من يشاء من خلقه وعباده.

وقضية أخرى نود أن نؤكدها هي مسئولية المؤمن نفسه في أن ينهض ليتدبر كتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، مستفيدًا من كلّ الإمكانات المتوافرة في مجتمعه من كتب وأجهزة فنيّة وعلماء، ليأخذ كل مؤمن من منهاج الله قدر وسعه وطاقته، بجد وعزيمة، أخذًا منهجيًا، صحبة عمر وحياة لا تتوقف، مع متابعة دراسة اللغة العربية ومحاولة إتقانها، ودراسة الواقع الذي يمارس منهاج الله فيه. ومسئولية الفرد المؤمن لا تُسقِطُ مسئولية العلماء والأُمة كلها ومعاهدها ومؤسساتها لتساهم كلها في دفع المؤمنين إلى منهاج الله ـ قرآنًا وسنة ولغة عربية ـ تلاوة وتدبرًا وحفظًا، وليظل منهاج الله والواقع هما الركنين الأساسيين في النظرية العامة للدعوة الإسلامية.

إن الإيمان والتوحيد يدفعان المؤمن إلى تدبر منهاج الله، ومنهاج الله ينمّي الإيمان والتوحيد، ويظل الأمران في تأثير متبادل من الخير والبركة، تأثيرًا ممتدًا مع حياة المؤمن، وليكون التدّبر، والممارسة والعمل، هدفين رئيسين في حياته.

ردمك : ٩٩٦٠ - ٦٨٧ - ٣٧ - ٦